د. سيّد محمود القِمَني

# أوزيريس

# و
# عقيدة الخلود
# في
# مصر القديمة



دار الفكر
١٢
كتاب الفكر

# أوزيريس

# و

# عقيدة الخلود

# فى

# مصر القديمة

د. سيّد محمود القمني

# أوزيريس
# و
# عقيدة الخلود
# في
# مصر القديمة

## اهداء

إلـــى إيزيــــــس

إبنتـــــى

الأمل الذى أرجوه

كانت مصر مسرحا لحضارة ارتقت حتى كادت تبلغ عنان السماء ، ولم تعد حتى فى وقتنا هذا إلى الأرض ، ولعلها اعظم حضارة أزدهرت فوق كوكبنا على وجه الإطلاق

د / إيفار لسنر

# مقدمة

ليس هناك شك ، أن الاعتقاد فى الخلود من بعد الموت ، في عالم اخر ،يرتبط تماما بالاعتقاد فى وجود إله يشرف على العالمين ، العالم المادى الذى نعيشه ، والعالم الاخر الخالد ، المفترض أن ينتقل اليه البشر من بعد الموت ، لأن الله في هذه الحال سيضمن هذا الانتقال ، وهو — كما ذهب كانط Kant— الضامن لفكرة الخلود وتنفيذها أصلا . وتاسيسا على هذا المعنى ، الذى تقوم عليه أهم الأعمدة الايمانية في كثير من الديانات ، يمكن القول أن هناك ارتباط ، بل وتكامل ، بين العقيدتين : الأخروية والإلهية ، يصعب فصمه ، مما يجعل البحث فى إحدى العقيدتين مستقلة عن الاخرى ، مسألة شائكة وصعبة إلى حد كبير ، ثم أن ذلك يعنى : أن الأولوية لم تزل بعد للعالم الاخر ، لأنه يحمل معنى الخلود ، ولو لم يكن هناك خلود ، لما كان هناك عالم أخر ، ولانهار سند كبير للاعتقاد في الالوهية ، باعتبار أن أهم صفات الإله هى الخلود ،

لكن رغم أن العالم الأخر عالم غيبي،ورغم أنه موضوع لتصورات مختلفة ، فانه يرتبط ارتباطا وثيقا بالسلوك الاجتماعى للانسان ، حتى أن بعض الديانات الكبرى كالمسيحية والاسلام ،

ترى أن عدم الإيمان بحياة أخرى ، يعنى الانهيار الكامل للنظام الأخلاقى الدنيوى برمته

هذا بينما يمثل الخلود فى عقائد مصر القديمة أهمية كبرى وقصوى حتى أكد المفكرون أنه لا يمكن فهم أو تصور مصر القديمة بوضوح ، دون تصور عالمها الأخر ، لأن الاعتقاد فى الخلود قد نفذ الى كل فكرة وسلوك ، وصبغ كل شيىء بصبغتة ، وما كان يحدث تقدم أو تخلف اجتماعى ، او تغيرات سياسية أو اقتصادية ، أو حتى فنية أو معمارية أو أدبية ، دون أخذ هذا الإعتقاد كعامل اول ، وأساس مشترك ، مؤثر ومتأثر بعلاقة جدالية قائمة ومستمرة ، بينه وبين هذه المتغيرات . إضافة إلى أن تصورات المصريين القدماء عن عالم الخلد تعطى إنطباعاً واضحاً عن اسلوب تفكيرهم . وعن أخلاقياتهم ، ونظمهم الاجتماعية ، بل أنه لولا اهتمامهم بعالمهم الاخر ما وصل إلينا شيىء واضح عن تاريخهم ، لأنهم لم يدونوا مادونوا ، ولم يهتموا بتسجيل ماسجلوا ، إلا بسبب ، ومن أجل أملهم العظيم فى الخلود .

أما الأخطر ، فهو ما أكده الباحثون حول قوة تأثير عقيدة خلود مصر القديمة وعمقه فيما تلاها ، حتى وصل هذا التاثير فى مده ومداه إلى اليوم ، وهو ماعبر عنه ( جون ويلس J. Willson ) في قوله :« .. ان مصر القديمة كانت الينبوع الذى استقينا منه ميراثنا الخلقى »(١) ، أو ما عبر عنه قول ( برستد Breasted) :« كشفت وأنا مستشرق مبتدىء أن المصريين كان لهم مقياس اسمى بكثير من الوصايا العشر ،وأن هذا المقياس ظهر قبل أن تكتب تلك الوصايا بألف سنة » (٢)

ومن هنا تكتسب ديانة مصر القديمة وعقيدتها فى الخلود ، أهمية تجعلها جديرة بالبحث ، فهى ليست مجرد إبداع يمثل طورا في التطور

العقلى الانسانى ، إنما هي ابداع اثر فى العقل تاثيرا عميقاً ، عاش فيه حتى اليوم ، من خلال ديانات اخرى استفادت منه وأخذت به وسلمت . إلا أن هناك أسباب أخرى دفعت إلى هذه الدراسة ، تتلخص فيما أثير حول قيمة إبداعات المصريين القدماءفى ديانتهم ،حيث نجد اراءأخرى ترى أن هذه الديانة ، رغم طول بقائها الزمنى لأكثر من سبعة آلاف عام ، فانها لم تستطع أن « .. تصبح قوة روحية شاملة أبداً ، ولا أن تثمر فلسفة حياتية ملائمة »[٣] ، بل ويذهب البعض مثل ( اريك بيت Eric Peet ) إلى أن شهرة العقائد المصرية وابداعاتها ، إنما هو خطأ شائع ، يرجع فى الحقيقة إلى شهرة جامعة الإسكندرية ــ التى ينسبها الى اليونان ــ ومن ثم يؤكد أن هذه الديانة كانت مجموعة خرافات واساطير ، وأن فكر المصريين القدماء قد خلا تماماً من النظر فى الوجود والموت والأخلاق ، حتى انهم ــ فى رايه ــ قوم كتب عليهم الجمود ، ولم يرتقوا يوما ارتقاء عقلياً أبدا[٤]وأن هذا التعارض فى اراء الباحثين إزاء الديانة الفرعونية مشكلة ، لكنه ــ أيضا ــ سبب وجيه يجعل بحثنا مطلباً لحل هذا التعارض ، والوصول بالمسألة إلى الوجه الأقرب إلى حقيقة الأمور .

وإذا كان حل التعارض المشار إليه مشكلة ، فهو أمر هين إلى جوار إشكليات اكثر تعقيدا ، إذا ما قرنا تناول هذه الديانة ، وهو أمر يعترف به كثير من المصرولوجيين المشهود لهم بطول الباع ، فهذا ( برستد ) يقول : إن العقائد المصرية قد تشابكت ، حتى « .. صارت تشبه حزمة خيوط معقدة مما يجعل بحثها الأن صعباً جداً ، بل يكاد يكون مستحيلا »[٥] أما ( ستانلى كوك ) فيقول : إن « .. آراء المصريين فى الآلهة والموتى، اكثر تعقيدا واضطرابا من تسمح ببسطها بسطاً يسهل ادراكه »[٦] ، أو ماصرحت به ( اليزابيث رايفشتال ) بيأس شديد : « .. إن الديانة المصرية ، موضوع لا يقبل التحليل الموجز ، بل لايقبل التحليل على الاطلاق »[٧]ولو حاولنا الحصول

على فكرة متصلة الحلقات عن ديانة مصر القديمة فان المصرولوجي ( أدلف إرمان ) يتطوع بالنصيحة : إنه « .. إذا أريد استقصاء التفاصيل ، فدون ذلك متناقضات من ضروب شتى » ويعزو هؤلاء اسباب صعوبة البحث فى الديانة المصرية القديمة أواستحالته بتعبير ( برستد ) ، إلى أنها لم تتألف من عقيدة واحدة متسقة التفاصيل ، إنما تكونت من عقائد عبادات مختلفة ، تتصل بعبادات محلية متفرقة ، إضافة إلى حشد من الأساطير ، فأصبحت ــ فى زعمهم ــ تحوى تناقضات صارخة ، من مفارقات شتى ، لا تأتلف مع بعضها بأى حال ، ومن ثم يعاضد ( هرمان رانكه ) زميله ( إرمان ) فى إعلان « .. أن الأمر ينجلى عن اضطراب لامثيل له ، فهذه النصوص لم تعرف النظام أبدا .. خلال الثلاث الاف سنة ، التي عاشتها الديانة المصرية ،بعد عصر نصوص الأهرام .. »[٨] ليبدى ( إرمان ) عجبه « .. كيف تحمل شعب ذكى كل هذا الخلط قرناً بعد قرن ؟ ! »[٩] . لكن ( سيد عويس ) يضع يده على واحدة من عقد المشكل ، فيقول : إن المصرى القديم لم يكن يشعر « .. من جراء تضاربها بأى قلق ، اكثر مما كانت تشعر به أية حضارة قديمة أخرى ، بأستبقائها طائفة من عقائدها الدينية ، جنباً إلى جنب مع عقائد أخرى تخالفها أو تتناقض معها كل التناقض »[١٠] ، ومن هنايوضح ( محمد أنور شكرى ) أن السبب المؤكد لهذا التناقض ــ فى عرف هؤلاء الباحثين ــ « .. لايرجع .. الى طبيعة المصريين ، انما لأنها ( ديانتهم ) تراث أجيال طويلة وعبادات مختلفة .. »[١١] .

ومن هنا نعترف ببساطة ، وبداية ، أن عوائق هذا العمل كانت جمة وكثيرة ، خاصة إذا علمنا أن موضوعنا ( عقيدة الخلود ) هو أساس ديانة مصر القديمة ، والقاسم المشترك بين عقائدها المختلفة المتضاربة ، فنالها من هذا التضارب نصيب أوفى وأكبر ، لأنها حملت من هذا التضارب أصنافاً ، تتعدد بتعدد العقائد المصرية القديمة .

وكان لخيال الكهان فى العصور المتالية ، دور أنكي وامر ، بما اضافوه من أمور شتى ، تراكمت مع العقائد المتضاربة داخل النص الواحد ، مما جعل التمييز بين مذهب وآخر أمرا غاية فى الصعوبة، إضافة الى الأساطير المقدسة التي دخلت خليطا مع نصوص هذه العقائد ، روايات مختلفة ، اختلفت باختلاف آراء كاتبيها وأمزجتهم ، وحسب الظروف والملابسات التى أحاطت بزمن كتابتها ، فكان أن كتبت الأسطورة الواحدة مرات متتالية ، متفرقة ، عبر القرون فاذا بها بعد جمعها قد اختلفت أحداثها ، وتضارب أولها مع أخرها ، بل أن بعض كتاب تلك العهود كان يضع لما يكتب تاريخاً مغايرا لعصره الحقيقى ، بقصد رفع قيمة ما كتب ، وإعطائة هالة قدسية ، تحقيقاً لأغراض خاصة ، متداخلا مع كل هذه المتراكات ، ووسط هذا الازدحام ،باستمرار وباصرار عجيبين ، أورادا سحرية بلا رابط ولا زمام ، فاختلط الحق بالوهم والخيال ، مما جعل تعبير ( برستد ).ـــ أن حل كل هذا من ضروب المستحيل ــ تعبيراً غير مبالغ فيه .

وقد أدى هذا بدوره إلى تناقض النتائج التي وصل اليها الباحثون فى تفسير النص الواحد ، أو الحدث الواحد وفى نسبة النص او الحدث إلى زمنه الصحيح ، بل واختلفوا احياناً حول مراحل بكاملها من مراحل هذا التاريخ العتيد . ورغم كثرة مانالته اليد من مصادر ، فقد كان العقل يخرج بعد كل قراءة أكثر تشتتا ، وقلّما كان يخرج ــ إلا قيلا ــ بالقليل ، فاستبعد الكثير الذى كان بلا فائدة ترجى للبحث ، أو ما كان تكراراً أو ترديدا لموضوع واحد ، واستبقى القليل ، وفى هذا القليل ، كان البحث شاقا ، مشقةاستأهلهاالغرض والهدف في حقيقته مجموعة اهداف .

أولاً : تخليص عقيدة الخلود من ارتباطها بالمعتقدات الأخرى التى تشابكت معها وتغشتها ، حتى يمكن دراستها مستقلة ، منذ مناشئها الأولى ، وعبر مراحلها

التطورية ، مع التفسير والتعليل وإيضاح الأسباب والنتائج كلما استدعى المقام ذلك .

ثانيـــاً : وضع فصول مستقلة توضح هذا الارتباط بين الخلود وبين بقية المعتقدات ، لإيضاح العلاقة ، وبخاصة العقيدة الإلهية وما تحوية من آراء فى الوجود ، باعتبارها ملازمة لعقيدة الخلود

ثالثـــاً : محاولة الكشف عن ملامح السبق والتأثير للديانة المصرية فى فكر الأمم الأخرى ، دون إفاضة تبعد البحث عن موضوعه الأساسى ، تأسيساً على عراقة هذه الديانة ، وعلى أنه لا يمكن استبعاد هذا التأثير ، إعمالا لمبدأ الاتصال الدائم المستمر للفكر البشرى وهو أمر قد حدث إبان عصر الامبراطورية المصرية الكبرى التي امتدت من الجندل الرابع في العمق الافريقى ، حتى الفرات الآسيوى ، فى عصر الدولة الحديثة .

رابعـــاً : استنطاق التاريخ ما خفى وراء احداثه الظاهرة ، من تاثير العوامل السياسية والأقتصادية والأجتماعية ، على العقل المصرى بحيث دفعته إلى ابداع تصوراته عن عالم خالد . ونتائج إرتباط الحدث السياسي أو الإجتماعى بتطور عقيدة الخلود ومفاهيمها .

خامساً : البحث عن الحقيقة الكامنة وراء آراء الباحثين المتضاربة ، حول الديانة المصرية القديمة : هل كانت ساذجة متخلفة جامدة كما افترض البعض ، أم كانت فكرا قوياً ترك أثرة بعمق فى الفكر الإنسانى ، كما ذهب البعض الأخر ؟ والبحث وراء هذا الأضطراب عن

الأسباب التى أدت اليه ، وربما الوصول إلى حقائق فكرية ثابتة يحتمل أن يكون المصرى القديم قد أمن بها .

سادساً : ربط كل حلقة تطورية نكشفها بأحداث عصرها لبيان الأسباب والنتائج ، حتى نتمكن فى النهاية من رسم صورة واضحة لخط التسلسل الزمنى المتصل لتطور هذه العقيدة .

سابعاً : محاولة اعادة ترتيب بعض النصوص القديمة ، وفق خطة منهجية* تبغي الكشف عن الاتساق وراء الاضطراب ، لإيضاح الجدل بين هذه النصوص وبين واقع المجتمع وأحداثه .(١٢)

ثامناً :الإنتهاء من كل هذا إلى الكشف عن طريقة العقل البشرى وأسلوبه ،فى حقبة قديمة من تاريخ الانسانية ، والقوانين التى حكمت تطوره .

ورغم وضوح الأهداف ، فإننا لا ندعى قدرة تحقيقها مقدماً. ودفعة واحدة ، خاصة مع تعبير ( برستد ) عن استحالة البحث أصلا ،تلك الاستحالة التي لم تمنعه هو ذاته من البحث ، ولم تمنعنا من المحاولة لتحقيق ما رصدناه من اهداف ، وإنا إذ لا نزعم فهماً يفوق المتخصصين ، نزعم فقط المحاولة لدفع الموقف عبر الاستحالة ، من خلال عمليات ترتيب وتبويب وتنظيم جديدة للموجود من القديم ، من أجل تحقيق ما نرجو ، وفق ما تستطيع استطاعتنا وقدر ما نملك قدرات .

---

* عند الحديث عن المنهج لا يفوتنى أن أشير إلى التوجيهات القيمة وجهد المتابعة الذى أعطانيه ( د . فؤاد زكريا ) عن رضى ومحبة يليقان بأستاذيته

# هوامش


١ ـ جون ولسن : الحضارة المصرية ، ترجمة د . أحمد فخرى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د . ت ، ص ٤٩٥ .

٢ ـ جيمس هنرى برستد فجر الضمير ، ترجمه د . سليم حسن ، مكتبة مصر ، القاهرة ، د . ت ، ص ١٠

٣ ـ اليزابيث رايفشتال : طيبة فى عهد امنوحتب الثالث ، ترجمة ابراهيم رزق ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢١ .

٤ ـ د. إريك بيت : حياه المصريين وثقافتهم فى عهدهما الأول ، ترجمة محمد بدران ، سلسلة مجلدات تاريخ العالم ، المجلد الأول ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، د.ت ، ص ٥٩٤ .

٥ ـ جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ، ص ٦٤ .

٦ ـ د . ستانلى كوك : آلهة السحر ، ترجمة إبراهيم خورشيد ، بسلسلة مجلدات تاريخ العالم المجلد الأول ، وكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، د . ت ، ص ٦٨٢ .

٧ ـ اليزابيث رايفشتال : مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠٦ .

٨ ـ أدولف ارمان وهرمان رانكــــــــــــه : مصرو الحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة د . محمد عبد

المنعم أبو بكر ومحرم كمال ، البابى الحلبى ، القاهرة ، د . ت ،
ص ٨٧٩

٩ ــ أدلف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ترجمه . د . محمد عبد المنعم أبو بكر ، ومحمد أنور شكرى ، مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، د . ت ، ص ٢٦٢ .

١٠ ــ د . سيد عويس : الخلود فى التراث الثقافى المصرى ، دار المعارف ، القاهرة د . ت ، ص ٧٨

١١ ــ د . محمد انور شكرى ( وآخرون ) : حضارة مصر والشرق الأدنى القديم ، القاهرة ، د . ش ، د .ت ، ص ٩٢ .

# الفصل الأول
# مصر على ذمة التاريخ

ليس جديداً ولا غريباً ، أن يؤكد الباحثون فى تراث الانسانية : أن تاريخ مصر هو تاريخ الدنيا ، ولم يكن ( برستد j. H. Breasted ) مغاليا ، حين أكد أن أعلى معانى المدنية كان مهده هناك [1] . ففى هذا الوادى الضيق ، الذى تضرب جذوره فى أعماق الماضى السحيق ، بزغت شمس الحضارة ثم أستوت حتى أكتملت دورتها ، من مهدها حتى شيخوختها ، عدة مرات ، فى وقت كان الإنسان فى كثير من أنحاء المعمورة ، لا يزال يصارع وحشيته البدائية ، فتصرعه !!

وكان طبيعياً أن تمور فى هذه الحضارة وتفور — وقد أمتدت قرابة سبعة ألاف عام — موجات كثيرة من الأنظمة والنظريات والعقائد ، مداً ، وجذراً ، منها ما أتلف ، ومنها ما تناقض وأختلف ، ومنها ما علا حتى عمر مسيطرا ، ومنها ما تراجع وإنحسر ، ثم اندثر .

وعبر تيارات اليم الزمنى ، سارت هذه الأنظمة علوا وهبوطا ، فتركت للبشرية تراثا فرض نفسه على عقلها وروحها ، بحيث أصبح من فساد الرأى ، أن يقوم باحث بتأصيل لأى نوع من النظريات أو الأنظمة — وبخاصة العقائدية منها — دون الرجوع إلى مصر القديمة .

وبحثاً عن البدايات الأولى للتاريخ المصرى القديم ، يبدأ الفكر جولته ، مع شعب الوادى ، على طريق بدئه الحضارى ، ساعيا عبر

مصادره ومراجعه ، فيجدها ترتد به ارتداداً نحو أغوار الزمن الماضى ، لتوقفه على إتفاق معظمها على تقسيم مصر حضاريا إلى عدد من المراحل ، أو العصور ، يمكن بعد إستقرائها ، تفصيلها على الوجه التالى .

## أولاً : عصر فجر التاريخ :

أو مايطلق عليه أحياناً : عصر ما قبل بداية التاريخ المكتوب ، وترجع التسمية إلى عدم وجود المدونات الخطية فى أثريات هذا العصر[٢] ، كما لم تسمح الشواهد الآثارية بتكوين فكرة إيجابية عن ديانه هذا العصر ، أو أهم أحداثه[٣] . والمرجع لما دار فيه من أحداث ، هو تفسيرات علماء المصريات القديمة ، لما حملته الذاكرة ، ورددته الشفاة ، ليسجل فى مدونات العصور التى تلته .

ويوضح ( أريك بيت Eric Peet ) أن هذه المدونات ، قد جأت على شكل إشارات متفرقة فى متون الاهرام ، كقصص ميثولوجية ، تحكى عن حكام مصر من الآلهة ، أمثال ( حور Horus ) و ( ست Seth ) و ( أتوم Atum ) وإن هذه المدونات لم يبدأ تسجيلها إلا فى العصر التالى ، مع الأسرة الرابعة فى الدولة القديمة ، على وجه التقريب [٤] .

وتفصيلا لمجريات أحداث هذا العصر ، يمكن لنا تقسيمه إلى أربعة عهود هى على الترتيب كما يلى :

### ١ ــ عهد الأقاليم المستقلة :

وفى هذا العهد ، بدأ سكان الوادى الأول يستقرون ، أرتباطا بالأرض زرعا وتفليحا ، فكان أن نتج عن ذلك إستقرار سكانى ، تبعه

بالضرورة قيام المدن المستقلة ، تلك المدن التى اتخذت كل منها إلها تعبده ، وتتقرب إليه ، ويبدو انها كانت آلهة طوطمية ، إرتبطت بأشكالها الحيوانية البدائية ، بحيث تركت هذا الأثر الحيوانى فى أجيالها التالية .

ولم يمضى وقت طويل ، حتى اقتضت الظروف الجغرافية والأقتصادية ، أن تتقارب هذه المدن لتتوحد مندمجه فى أقاليم ، لتؤلف كل مجموعة من المدن اقليما متسعا ، يتميز بحدوده التى رسمتها له الطبيعة ، ولتغدو عاصمته أهم مدينة فيه ، ويصبح معبود هذه المدينة ، هو المعبود الرئيسى للأقليم .

وواصلت العوامل الجغرافية والاقتصادية ، مع دفع مكثف من العوامل السياسية عملها فى توحيد الأقاليم ، فى حكومات كبيرة قوية ، ونحو إدماج الأقاليم ـــ إن سلما أو حربا ـــ كان لا بد أن يحدث ادماج للارباب ، حتى يقف من بينها إله واحد لمجموعة الأقاليم المتعددة ، هو فى الاصل إله الإقليم القوى أو الأكبر أو الظافر فى المعركة .

وانتهى الأمر فى هذا العصر فيما يرى ( زيته Sethe ) إلى تجمع اقاليم الدلتا فى مملكتين ، إحداهما شرقية تحت راية الإله ( عنجتى ) والأخرى غربية تحت زعامة الإله ( حور ) ، الذى انعقدت له زعامة الدلتا كلها بعد توحيدها بينما كان الصعيد قد خطى نحو الوحدة خطوات حثيثة ، انتهت بتوحيد أقاليمة تحت زعامة ربه الأكبر ( ست )( ٥ ) .

## ٢ ـــ عهد الوحدة الأولى :

ويحدث التاريخ بأنه على الحدود بين مملكتى الشمال والجنوب قد قامت نزاعات تطورت إلى حروب كبرى ، تصورها المصريون أنذاك حرباً بين الإلهين العظيمين : حور إله الشمال ، وست إله الجنوب ، ليسجل الزمان انتصار الاله حور على غريمه الصعيدى ست ، وتقوم بين الأقليمين وحدة ، لا يكتب لها البقاء طويلا ، ولا يلبث الصعيد أن

ينفصل ، كما لو كان مقدراً لهذه الوحدة القسرية المفروضة بالقوة العسكرية ، أن تفشل فى الاستمرار .

### ٣ ـــ عهد الوحدة الثانية :

لكن الاحوال لم تهدأ ، فعاد طموح الشمال يدفع جيوشه نحو الجنوب ، فى محاولة ثانية للسيادة والسيطرة ، لكن الراية هذه المرة كانت معقودة لإله جديد بدت سيادته واضحة فى هذا العهد ، هو الاله ( آتوم رع Atum Ra ) اله مدينة ( اون Iwnw )(٦) ، ويبدو أن هذا الآله قد سجل لعباده نصراً جديداً على الآله الصعيدى ( ست ) غريم سلفه ( حور ) ، ومرة ثانية يؤكد التاريخ أن الوحدة المفروضة بالقسر والإلزام لا تدوم ، فينفصل الصعيد مرة ثانية .

### ٤ ـــ عهد الوحدة الثالثة :

وبدا واضحاً أن تمرد الصعيد هذه المرة لم يكن بهدف الانفصال فقط ، بعد أن تمرس جنوده بفنون الحرب والقتال ، بل تعدى ذلك إلى دحر الشمال ثم غزو أراضيه ، بقيادة ملكه ( نعرمر مينا Narmr Mena ) ، الذى استطاع أن يسيطر على الشمال تماماً ، ليتنفس التاريخ عن إعلان الوحدة الثالثة(٧) .

ولكن الملحوظة الهامة هنا هى **أن قادة العسكر الصعيدى ، لم يحملوا هذه المرة راية إلههم القديم ( ست ) ، وإنما راية إله الشمال ، غريمهم القديم ( حور )** ، ولعل تفسير هذا الأمر غريب ، يعود إلى أن سيادة ( حور ) على المملكة المتحدة الأولى ، جعلته يستقر فى القلوب ، ليزيح من وجدان الجنوبيين الههم القديم ( ست ) ويحل محله ، وبمرور السنين ، نسى الجنوبيون أن ( حور ) إله غريب وارد ، وغابت صفته كإله مغتصب غاز ، ولم يبق له فى القلوب سوى صفته القدسية ، ويبدو أن ما يصدق على الغزاة من البشر ، غالباً ما لا يصدق على الغزاة

من الآلهة ، وهو أمر اعتيادى تكرر عبر العصور التاريخية وفى دول وحضارات أخرى متعددة .

ويمكننا تفسير استقرار الأمور وهدؤ الأحوال واستمرار الوحدة الثالثة وصمودها إلى أن ذلك راجع إلى حكمة حتمتها سياسة الجنوب بعد خبراته مع تجارب التوحيد السابقة ، فالتاريخ الدينى يقول أن ( حور ) قد توحد مع ( رع آتوم )[٨] ، وهو أمر يوحى باحتمال كشف العلاقة بين الدين والسياسة والمجتمع ، فيحتمل أن يكون الجنوبيون قد رأوا أن خير وسيلة للسيطرة ليست القهر بسلاح العسكر بقدر ما هى التوسل إلى إستغلال العواطف الدينية لتحقيق وحدة طوعية ، فلم يجعلوا من الههم ( حور ) الاله الرسمى الأوحد ، إنما أدمجوه مع إله الشمس ( آتوم رع ) ، بحيث يبدو كما لو ليس هناك غالب ولا مغلوب .

ويبدو أن هذه الحكمة أتت ثمارها ، فلم يرى الشماليون فى سيطرة الجنوب غضاضة ، لا سيما أن إلههم الأكبر ( آتوم ) هو من يحكم الملك بأسمه وإذا كان قد توحد مع ( حور ) فليس أحب اليهم من هذا ، فهم لم ينسوا بعد أن ( حور ) كان إلههم القديم ، ولم يزل له فى القلوب المكان المكين . ومن هنا أصبحت الوحدة التى قادتها حكمة الصعيد ، هى الوحدة الأخيرة ، وتحولت إلى أساس وقاعدة راسخة لقيام الحضارة المصرية ، تلك الحضارة التى رأها أكثر الباحثين أعظم الحضارات القديمة على الإطلاق .

## ثانيــــاً : عصر التأسيس

ويسمى أيضاً العصر العتيق ، أو العصر الطينى نسبة إلى مدينة طينة أو ثنى Thini ، كما يطلق عليه بعض المؤرخين : بداية العصور التاريخية .

ويبدأ هذا العصر بملك الوحدة الثالثة (نعرمر مينا) وتأسيسه أولى الاسرات الحكمة ، وقد أستمر هذا العصر نحوا ربعمائة عام ، استغرقتها أسرتان حاكمتان منذ عهد مينا عام ٣٢٠٠ ق م ، وحتى عهد زوسر عام ٢٧٨٠ ق م . ورغم عدم وجود المدونات فى هذا العصر ، مع قلة المصادر وندرتها ، فانه يمكن ايجاز القول فيه . أنه كان عصر ارساء الاسس السياسية والدينية والاجتماعية التى قامت عليها شوامخ الحضارة المصرية فيما بعد .

## ثالثـــــاً : عصر الدولة القديمة :

ويشار إليه أيضاً بالعصور المنفية ، نسبة إلى استقرار فراعنته فى مدينة ( منف ) ، ويبدأ تاريخياً بقيام الأسرة الثالثة التى أسسها ( زوسر ) حوالى عام ٢٨٧٠ ق م ، وينتهى بسقوط الاسرة السادسة حوالى عام ٢٢٨٠ ق م ، وبذلك تكون قد استمرت ما يقرب من خمسائة عام .

وقد امتاز هذا العصر بما شيد فيه من الأهرام العتيدة ، التى بلغت زهاء الثمانين هرماً ، حتى سمى عصر بناة الأهرام . كما امتاز بأن وحدة البلاد ظلت متماسكة دون ضعف ظاهر حتى بداية الأسرة السادسة ، وكانت ذروة نضوجه فى منتصف الأسرة الرابعة ، وبالتحديد فى عصر خوفو وأخلافه .

أما أهم أسر هذا العصر لموضوعنا ، فهى ـــ بوجه خاص ـــ الأسرتان الخامسة والسادسة ، وترجع أهمية الأسرة الخامسة إلى كونها كانت من صنع رجال الدين الأونيين ، فاصطبغت لذلك بصبغة دينية واضحة ، وازداد فيها نفوذ الكهان من أصحاب ( رع ) الذين استولوا على الحكم وأسسوا هذه الأسرة ، وقد ظهر ذلك فى بردية يرجع تاريخها إلى أواخر الدولة الوسطى ، وان كان الآثاريون

يرجعون تاريخ تحريرها أول مرة إلى عهود أقدم ، وتروى البردية نوعا من الأسطورة الدينية ، تقول : إن ساحرا عرض على خوفو بعض سحره ، ثم قص عليه من نبؤاته ، أن ( روج جدت ) زوجة كاهن ( رع ) الأكبر ، ستلد ثلاثة ملوك ، يعودون ببنوتهم إلى الاله ذاته مباشرة ، وأنهم سيكونون هم حكام البلاد .

ويوضح الآثاريون أن هذه القصة قد أشاعها كهنة ( رع ) بعد استيلائهم على عرش البلاد ، وتأسيس الأسرة الخامسة ، لتدعيم سلطانهم بادعاء النسبة السلالية إلى ( رع ) ، ويكشف ذلك النقاب عن اعتبار حكام مصر منذ ذلك الحين ابناء ل ( رع ) وحتى نهاية التاريخ القديم ، بعد أن كانوا يعتبرون أبناء للاله ( حور )[9] .

ويبدو ان انتزاع كهنة ( رع ) للعرش ، قد سبب نوعاً من الصراع فيما بينهم وبين كهنة الاله ( بتاح ) أو ( فتاح ) إله ( منف ) ، وانتهت المسألة مؤقتاً إلى وراثة السدة الملكية لكهنة ( رع ) بينما احتفظ أتباع ( بتاح ) بوراثة كرسى الوزارة ورئاسة القضاء[10] .

وقد بدا سوء الطالع ملازماً لهذه الأسرة ، فبدأت تظهر عليها امارات الضعف ، بينما أخذ الأمراء من حكام الأقاليم يحتكرون مناصبهم لأسرهم ، بشكل وراثى ، كما بدأ يظهر لون من ألوان المجاعة ، يدل على خلل اجتماعى خطير بدأ يستشرى فى الدولة[11] .

ويرى بعض المؤرخين أن أهم مآثر هذه الأسرة ، أنه بدء فى منتصفها تقريباً ، تسجيل متون الأهرام ، التى حملت أسرار المصريين العلمية ، وقدراتهم العملية ، ونظراتهم الدينية ، إضافة إلى أن العقيدة الدينية لهذه الأسرة ، وظروفها الاجتماعية والسياسية ، كان لها آثار كبيرة وخطيرة في عقيدة الخلود ، وهو ما سيأتى بيانه فى حينه .

أما أهمية الأسرة السادسة لعملنا هذا ، فترجع إلى أنها كانت مفعمة بالانقلابات والتطورات الدينية ، التى سبقت أو لحقت أحداثاً عظام ، نوجزها على الوجه التالي :

**• ١ – الصراع السياسى :**

وقد بدأ — فى عرف المؤرخين — فى منتصف الأسرة الخامسة تقريباً بين الملوك وبين حكام الأقاليم ، ويرى ( جاردنر Gardiner ) أنه كانه نتيجة لتضخم ثروة النبلاء إلى الحد الكافى لأن يصبحوا منافسين للملك سواء فى القوة أو فى النفوذ ، فأمسوا هم ملاك الأرض الاقليمية التى بدأوا حكاماً عليها[١٢] بعد أن كان للملك وحده — وليس لأى فرد أيا كان شأنه — حق التصرف فيها وقد أدى تضخم ثروات النبلاء إلى ضعف المركزية الملكية ، بحيث أعتبر ذلك عند ( إريك بيت ) و ( جاردنر ) **الداء الذى عصف فى النهاية بالأسرة السادسة ، وأدى إلى سقوط الدولة القديمة**[١٣] .

ويرجع المؤرخون أسباب أرتفاع شأن النبلاء إلى هذا الحد ، إلى عطف — فى البداية — من الملوك على نبلائهم ، فمنحوهم بعض القيم الاعتبارية ، والإمكانات المادية ، وسمحوا لهم بتوراث مناصبهم ، أو ربما اضطروا إلى ذلك اضطراراً فى تطور لاحق ، مما أدى لأحتفاظ كل حاكم باقليمه ، بل وكوّن كل منهم جيشاً خاصاً به ، حتى وصل الأمر إلى قطع موارد الأقاليم عن العاصمة الملكية[١٤] .

وتصور احدى القصص المسجلة فى الأسرة الخامسة ، مدى ما وصلت اليه حال الملك إزاء نبلائه ، فتقول : أن النبيل ( رع ور ) كان فى ملابسه الرسمية ، وتصادف أنه كان بجوار الملك ( نفر اير كارع ) ، فأصابت عصا الملك ساق النبيل عفوا ، فذعر الملك ، واعتذر بشدة عما بدر منه ، وطلب تسجيل اعتذاره رسمياً على حجر يودع فى قبر النبيل ( ور ) بجبانة الجيزة[١٥] .

ومثل هذه القصص كثير ، وهي تكشف عن مظاهر جديدة لم تكن معهودة من قبل ، فقد بدأ الملوك يهبطون من عليائهم الالهية ، ويحرصون على إكتساب رضا وعطف نبلائهم . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، ضعف الحكومة المركزية وإنحسار نفوذها تماماً مع نهاية حكم الملك ( بيوبى أو بيومى الثانى ) ، الذى حكم أطول مدة حكمها ملك فى التاريخ ، فقد بلغت مدة حكمه زهاء الأربعة والتسعين عاماً ، فشاخ شيخوخة طويلة ،اعتبرها المؤرخون ذات أثر حاسم فى ضعف الحكومة المركزية ، حتى لم يتجاوز نفوذ خلفائه العاصمة وما جاورها مباشرة ، **وان كان ( نجيب ميخائيل ) يذهب إلى أن هذا الضعف قد سرى إلى الدولة منذ بداية الأسرة الخامسة(١٦) ، وهو مذهب له فى رأينا ما يبرره كما سيأتى بيانه .**

## ٢ ــ الصراع الأجتماعى :

وقد أشتعل أواره ــ فيما يذهب المؤرخون ــ بين السادة الاقطاعيين من حكام الأقاليم ، وبين جماهير الشعب ، وان كانوا قد اختلفوا فى تكييفه وفى توقيت بداية الصحيح ، فهناك ، من يأخذ برأى المؤرخ المصرى ( ما نيتون Manithon ) مثل ( جاردنر ) الذى يفترض أنه اتخذ شكل فوضى دموية نتجت عن سقوط الملكية فى الدولة القديمة ، وهو يعنى بالدولة القديمة الأسر من الثانية حتى السادسة ، دون إعتبار الأسرتين السابعة والثامنة ، أى أن الصراع فى رأيه لم يبدأ فى الأسرة السادسة ، إنما بعد سقوطها ، وأنه استمر ــ فيما يذهب ــ بصورة متقطعة أو مستمرة حتى نهاية الأسرة الحادية عشر ، أى أنه قد بدأ حوالى عام ٢٠٥٠ ق م ، مستمراً حوالى ستين عاماً(١٧) ، ويؤيد التوقيت ذاته ( سليم حسن ) و ( نجيب ميخائيل ) ، الذين جعلا الأسرة السادسة بمنجاة من هذا الصراع ، على أعتبار أنه لم يبدأ الا بعد سقوطها بل أن

( ميخائيل ) يدفع هذا الصراع مدة أطول فيقول : أنه « .. امتد إلى قرنين من الزمان أو ثلاثة »[18] .

ويستند هؤلاء فى توقيتهم إلى إصابة التاريخ المصرى بانقطاع مفاجىء بعد الأسرة السادسة ، مما يعنى حدوث أمر جلل ، أدى إلى مرور التاريخ المصرى بمنطقة الظل طوال الفترة التى أستغرقها هذا الصراع .

هذا بينما يذهب أخرون إلى **أن هذا الصراع قد بدأ فعلا خلال حكم الملك** ( **بيومى الثانى** ) ، **أى قبل سقوط الأسرة السادسة فعلا** ، ومن هؤلاء ( عبد الحميد زايد ) الذى أشار إلى أن نهاية الأسرة السادسة قد شهدت فعلا بداية هذا الصراع[19] ، ويعضده فى ذلك ( عبد العزيز صالح ) الذى يشير إلى أن الحكيم ( أبى أور ) ـــ الذى صور هذا الصراع فى أشعاره ـــ قد ذهب به الحد إلى مقابلة الملك وتحديه ، مفترضاً أن هذا الملك كان ( بيومى الثانى )[20] ، ويذهب المذهب نفسه كل من ( اتيين دريتون ) و( جاك فانديه ) اللذان أكدا **أن هذا الملك « .. قد أتعس شيخوخته .. ثورة إجتماعية ، ليست فى الواقع سوى النهاية المنطقية للتطور .. الذى بدأ فى عهد الأسرة الخامسة »**[21] ، بمعنى أن هذا الصراع لم يكن وليد ظروف حكم هذا الملك بالذات ، وإنما كان نتيجة لتراكمات سابقة ترسبت بعد تفاعلها فى الأسرة الخامسة .

أما الأختلاف حول تكييف هذا الصراع ، فقد أتخذ أحد اتجاهين : اتجاه يرى أنه فترة من الفوضى والغموض والظلام ، وانفلات لعرى الأمن بسبب سقوط الحكومة ، وعدم قدرتها على ضبط أمن البلاد ، واتجاه يراه ثورة طبقية حقيقية قام بها الشعب ضد الاستغلال والاضطهاد .

ومن أصحاب الاتجاه الأول ( عبد الحميد زايد )* الذى لم يره

---

* لا يفوتنى هنا أن أشكر الدكتور عبد الحميد زايد ، وأزجيه التقدير ، حيث خصص لى يوم الثلاثاء من كل أسبوع لمناقشة ما أصل إليه من نتائج ، فى الفصلين الأولين من هذا العمل .

ثورة ، استناداً لرأيه فى شيوع الديمقراطية فى أواخر الدولة القديمة ، وان حكام العصر المتوسط لم ينكروا على الناس حرية الكلام[٢٢] . كذلك تذهب ( اليزابيت رايفشتال ) ــ مستنده إلى ( فرانكفورت ) ــ إلى أن هذا الصراع « .. لم يحدث أبداً نتيجة انتفاضة شعبية [٢٣] . »

ويذهب مع الاتجاه ذاته ــ مع بعض الاعتدال ــ كل من ( أندريه ايمار ) و ( جانين إبوايه )[٢٤]

هذا بينما يمثل أصحاب الإتجاه الثانى ( نجيب ميخائيل ) الذى وصف هذا الصراع أنه كان « .... ثورة .. تأكل ماتلقاه »[٢٥] » ، و ( جاردنر ) الذى لخص مضمون هذه الفوضى فى قوله : « وهناك ما يدعوا إلى احتمال أن الفوضى التى ظلت .. حتى الأسرة الحادية عشر ، أنها صورة لثورة حقيقية »[٢٦] ، و ( دريتون ) و ( ڤانديبه ) اللذان لم يجدا غضاضة فى تكييف هذا الصراع على أنه نوع من أنواع « .. العمل الثورى »[٢٧] .

### ٣ ــ الصراع الدينى :

واتخذ فيه اتباع ديانة ( رع ) موقف الدفاع فى صراع عقائدى عنيف اشتعل على جبهتين ، جبهة الاله ( فتاح ) إله مدينة ( منف ) ، وجبهة العقيدة الشعبية ، وإلهها ( أوزير Osiris ) . ومن المعروف تاريخيا أن عبادة الاله ( رع ) تعد من أقدم العبادات التى ظهرت فى مصر ، فتعود أول أشارة تاريخية لها إلى عهد التوحيد الثانى ــ كما سلفت الاشارة ــ حتى استطاع مع تأسيس الأسرة الخامسة أن يصبح الاله الرسمى للدولة ، إلا أنه كان هناك اله آخر عريق هو ( فتاح ) المنفى ، الذى عاد نجمه للسطوع حتى كاد ينتزع ( رع ) عن عرشه فى الأسرة السادسة ، بعد أن أعاد له مجده الملك ( تيتى Titi ) أول ملوكها .

وتحرك ( رع ) للدفاع عن مكانته ، فحدث الصدام المباشر بينه وبين ( فتاح ) ذلك الصدام الذى استمر حتى أضعف كلا الالهين ، ضعفاً كان كافياً لاعطاء الضوء الأخضر للاله الشعبى ( أوزير ) ليتطاول ، فيفتح على سيده ( رع ) جبهة جديدة من الصراع . ولم تدم هذه المعمعة العقائدية طويلا ، فقد توارى ( فتاح ) المنفى مهزوما أمام ( رع ) الأونى ، لكن بعد أن خرج من الصراع منهكا ضعيفاً وكان هذا الضعف عاملاً حاسماً فى انتهاء الصراع لصالح الاله ( أوزير ) الذى استطاع أن يحقق انتصاره الكامل مع نهاية الأسرة السادسة .

وبذلك تضافرت أحداث الصراع الداخلى الثلاثة ، لتعجل بنهاية الأسرة السادسة التى عجل بها ( العامو حريوشع ) أو بدو الرمال ، الذين بدأوا يتوافدون من بوادى الشام على الشمال الشرقى للبلاد ، ليثيروا فيه الاضطراب والفزع[٢٨] وكانت النتيجة أن سقطت الأسرة السادسة ، وجرت معها الدولة القديمة بكل امجادها .

## رابعـاً : العصر المتوسط الأول :

أو عصر الانهيار الأول ، أو كما يسميه بعض الباحثين عصر الإقطاع الأول أو عصر الفترة الأولى ، وقد أعقب نهاية الأسرة السادسة مباشرة فى زعمهم ، ويشير ( بترى Petrie ) إلى أن مصر تعرضت فى بدايته لغزوات متفرقة من بدو الشرق الذين وصلوا إلى مصر الوسطى ، ويشير ( نجيب ميخائيل ) إلى غزوة أخرى جاءتها من الجنوب النوبى[٢٩] ، فى الوقت الذى يشير فيه أخرون إلى غزو غربى أتاها من الصحراء الليبية[٣٠] ، فأصبحت البلاد كالأسد الجريح الذى تحول إلى فريسة منهكة ، يتناوب نهشها جياع الصحارى وضواريها .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الصراع الاجتماعى المشار إليه آنفا قد تصاعد حتى وصل إلى ذروته فى هذا العصر ، مما حدا ببعضهم إلى

وصفه بأنه كان « **ثورة طبقية بمعنى الكلمة ، وانفجار لمراجل الغضب الشعبى تحت الظلم الإجتماعي والامتيازات الطبقية ، التى جثمت على الصدور قروناً طويلة قبل الثورة** »[٣١] ، ولكنهم يشيرون فى الوقت ذاته إلى أن الثورة « .. لم تستطع التحول إلى نظام جديد ، بل اقتصرت على هدم النظام القديم مما أدى بها ـــ بتعبير ( نجيب ميخائيل ) إلى « .. أكل نفسها بعد أن قضت على كل شيىء ، ولم يبقى أمامها ما تأكله »[٣٢] .

واستمر الحال على منواله هذا زهاء خمسين عاماً أخرى ، حكمت البلاد خلالها ـــ حكماً صورياً ـــ أسرتان من بقايا الدولة القديمة ، هما ، السابعة والثامنة ، حتى تمكن نبلاء ( نن ـــ نسويت Nen Neswet )[٣٣] من تجميع شتات الأقاليم المحيطة بهم ، والاتجاه شمالا نحو العاصمة ليقضوا تماماً على بقايا التفريخات الملكية القديمة ، ويضموا إليهم الدلتا ، بل استطاع ( أخيتوى Akhitoy ) أحد قوادهم أن يحقق قدرا من الاستقرار والأمن ، وان يخفف من الفوضى والجرائم وأن ينصب نفسه ملكاً ، مسجلاً فى التاريخ قيام الأسرة التاسعة الحاكمة .

وقد اهتمت هذه الأسرة ببيث الروح الحربية فى البلاد ، واعتنت بتجنديها من الشباب ، إلا أنه بات جليا ان فتوحات ( أخيتوى ) قد توقفت عند اسيوط حيث كان حكام ( واست Wast )[٣٤] ، قداستطاعوا بدورهم تجميع شعب الجنوب وتكوين جيش قوى ، وعادت الحروب بين الشمال والجنوب ، واستطاع الشمال بقيادة ( اخيتوى ) الثالث وربما الرابع أن ينتصر على ( منتوحتب الأول Menthoho tep I ) زعيم الجنوب الواستى وأن يتوغل جنوبا ليستولى على المدينة المقدسة ( أبيدوس ABYDOS ) وهى العرابة المدفونة حالياً بعد أن الحق بها الكثير من الضرر والأذى ، الذى ربما كان سبباً مباشراً فى تذمر الشعب ، لأن ابيدوس كانت مقر إله الجماهير ( اوزير ) .

وقد شجعت هذه الإنتصارت ( نن نسويت ) لتوسيع نشاطها الحربى ، فاتجه جنودها نحو شرقى الدلتا ، ونجحوا فى تطهيرها من العامو حريوشع ) إلى حد بعيد ، فأبعدوا الغالبية وكسروا شوكة البقية .

ولكن الأمد لم يطل بالعهد النسويتى ، فأخذت الأسرة العاشرة تفقد استقرارها فى عهد ( أخيتوى ) الخامس [٣٥] بعد ان خسر جولته أمامه صلابة ( واست ) الصعيدية ، لينتهى الأمر كما انتهى فى غابر الأزمان فسجلت الأيام انتصار ( منتوحبت نبه حبه رع ) أو ( منتوحبت الأول )[٣٦] بعد أن دحر الشمال حوالى عام ٢١٣٤ ق م ، منهيا بذلك العصر المتوسط الأول بعد أن استمر نحو قرن ونصف من الزمان ، ومقيما الأسرة الحادية عشر ، أولى أسرات الدولة الوسطى .

## خامساً : عصر الدولة الوسطى :

ويبدأ تاريخها بقيام الأسرة الحادية عشر ، التى أسسها ( منتوحبت ) عام ٢١٣٤ ق م ، على وجه التقريب ، لينتهى عام ١٥٨٠ ق م بنهاية الأسرة الثانية عشر ، تلك الأسرة التى أسسها ( أمنمحات الأول Amem Mahati I ) عام ١٩٩١ ق م ، وبذلك تكون قد استمرت فى سدة الحكم حوالى مئتين وخمسين عاماً .

وتقول المصادر أن حكام الأسرة الحادية عشر ، قد أخذوا بسياسة مرسومة استفادوا فيها من أحداث الماضى ، فحددوا سلطان نبلاء الأقاليم ، وركزوا سلطان الحكم فى عاصمتهم ( واست )[٣٧] ، إلا أنهم على ما يبدو لم يتمكنوا تماماً من تحقيق المركزية المطلوبة ــ فيما يرى إريك بيت[٣٨] ــ لكنهم استطاعوا تطهير البلاد من بقايا أعدائها الأجانب ، خاصة بعد الحملة التى جردها ( منتوحتب نب تاوى رع ) أو ( منتوحتب الرابع ) أخر مملوك الاسرة الحادية عشر ، لطرد بقايا

الغزاة ، **وعقد لواء جنودها العشرة آلاف لوزير حربيته ( أمنمحات )** لردع المتسللين إلى البلاد والقضاء عليهم .

ويشير أكثر من مؤرخ إلى إحتمال أن يكون الوزير أمنمحات هو نفسه ( أمنمحات سحتب أب رع ) المعروف بأسم ( أمنمحات الأول ) مؤسس الأسرة الثانية عشر ، بعد أن أستغل رياسته للجند ، للاطاحة بمليكه ، والقضاء على شأفة أسرته والاستيلاء على عرشه ، ويعلن ( برستد ) رأيه فى ذلك صراحة فيقول : أن امنمحات « .. **قد أغتصب الملك قهراً** »[٣٩] ويذهب معه باحثون أخرون يؤكدون : أن : « .. أمنمحات هذا كان وزيرا قويا فى عهد منتوحتب الرابع أخر ملوك الأسرة الحادية عشر ، واستطاع أثناء وزارته أن يركز بيديه سلطات كبيرة ، ويشرف على شئون الدولة إشرافاً فعلياً ، ولم يلبث أن انتهز وفاة منتوحتب الرابع ، وأعلن نفسه فرعونا على البلاد تحت اسم أمنمحات الأول »[٤٠] كذلك نجد ( نجيب ميخائيل ) من المؤيدين لهذا الاتجاه بقوة .

ومما يدعم هذا الرأى ، تلك النبوءة التى شاعت ابان حكم ( امنمحات الاول ) المسماة ( نبوءة الكاهن نفرتى ) وتقول :

سيأتى ملك من الجنوب
يدعى أمينى
ابن امرأة من توسى
طفل خن نخن
سوف يتسلم التاج الأبيض
ويلبس التاج الأحمر
والناس فى زمنه
سيكونون سعداء
ان ابن أحدهم

سيخلد أسمه
إلى أبد الابدين[٤٢] .

وقد كانت هذه النبؤة ، مدعاة لأن يرى « .. انصار ظهور **المخلص** الإجتماعى أن حلمهم قد تحقق فيما يختص بظهور الملك العادل »[٤٣] ، بعد عصر الأقطاع الطويل المظلم ، بينما يرى المؤرخون أن هذه النبؤة من صنع أتباع ( امنمحات ) ليظهروا فرعونهم الجديد أمام شعبه ، فى هيئة المخلص الموعود ، والمنقذالمنتظر ، وكى يلقوا فى روع الشعب أنه مختار العناية الالهية من الأزل ، قاموا بارجاع الوثيقة إلى عهد ( سنفرو Senefru ) فى أوائل الدولة القديمة لتكون بشيرا بالزعيم المنقذ قبل مولده بقرون طويلة[٤٤] . وان هذا الأسلوب ما كان ليتبع من قبل مع الفراعنة السالفين ، إلا نادراً ولأسباب أهمها أن يكون الملك الجديد من سلالة غير ملكية الأصل ، مما يجعل الاقتناع به أمراً مشكوكا فيه ، خاصة من كهان الآلهة ، الذين قعّدوا ألوهية الملك عبر نسله السالف إلى إله من الآلهة ، ولا يزون فى حكم الأشخاص العاديين سوى علامات لنهاية الدنيا ، وزندقة وكفراً ويوضح ( جاردنر ) هذا المعنى يقوله : « .. ان النسب غير الملكى لأمنمحات وضح بما فيه الكفاية ، لأن عبارة ( ابن أحدهم ) كانت طريقة معتادة للاشارة إلى رجل طيب المنبت ، لكنه غير نبيل المولد »[٤٥] .

## سادساً العصر المتوسط الثانى

أو عصر الفترة الثانية ، أو عصر الانتقال الثانى ، ويمتد زمانيا من الأسرة الثالثة عشر حوالى عام ١٨٠٠ ق م ، وحتى نهاية الأسرة السابعة عشر حوالى ١٥٨٠ ق.م .

وقد بدأ باضطرابات داخلية شديدة ، وتميز بقصر فترات حكم الملوك التى تراوحت ما بين سنة وثلاث سنوات ، وقصرت احياناً حتى

بلغت يومين أو ثلاثة[٤٦] ، حتى أنه مرت على البلاد ست سنوات كاملة ، دون ملك يمكن أن يرضى عنه الجميع[٤٧] .

وانتقلت مقاليد الحكم إلى ملوك وثبوا إلى العرش واحداً تلو الآخر لم تلعب الوراثة أو صلات القربة بينهم دوراً واضحاً ، ولم يستطيعوا ـــ إلا قليلاً ـــ اعادة الاستقرار إلى البلاد ، فاستمرت فى انهيارها ، وفسدت الإدارة واضطرب الأمن ، حتى استطاع أحدهم ، وهو عند ( ميخائيل ) « .. مغتصب للعرش .. من عامة الشعب »[٤٨] ، أو هو ـــ بتحفظ ـــ عند ( عبد العزيز صالح ) « رجل من خاصة الشعب »[٤٩] ؛ يدعى ( نفر حوتب Nefer Hotep ) أن يصل إلى امساك زمام البلاد ، والسيطرة على الاضطرابات واستعادة وحدتها ، واخضاع أعالى النوبة ، حتى بلغ نفوذه أعلى الشلال الثالث[٥٠] .

وعلى عادة الحكام من غير ذوى الدم الملكى الموروث ، تعمد ( نفرحوتب ) أن يظهر تقواه الدينية وعلمه وحكمته أمام أفراد شعبه ، ليؤكد أنه لا يقل عن ورثة البيوت المالكة القديمة محافظة على الدين والتراث ، فسجل بأسمه نصا طريفاً تحدث فيه عن رحلته الشاقة إلى مدينتى ( أون ) و ( أبيدوس ) المقدستين ، **من أجل تمجيد اله الشعب ( اوزير )**[٥١] .إلا أنه بموت ( نفرحوتب ) عادت الاضطرابات من جديد ، ولحقه عدد من الملوك منكورى الأصل[٥٢] ، وبدت على البلادعلامات الانهيار ، عندما ظهر الخطر الأكبر على الحدود الشمالية الشرقية واستفحل شره ، حتى انتهى إلى نتيجة صورها المؤرخ المصرى ( مانيتون ) ، ونقلها عنه المؤرخ اليهودى ( يوسيفوس josophus ) بقوله : أنه فى عهد ملك يسمى ( توتيماس Totimaios )

فى عهده

لا أدرى

لا أدرى كيف نزل بنا غضب الرب
وجاءنا من الشرق غزاة لا يعرف أصلهم
إلى أرضنا
دونما انذار سابق آملين فى النصر
فهاجموها بقوة
وتملكوها ببساطة
وهزموا حكامها
وأشعلوا النار فى مدننا بكل بربرية
وجعلوا معابد الآلهة بسواء الأرض
وعاملوا الناس بقسوة ووحشية
وذبحوا منهم
وأخذوا نساء بعضهم سبايا
مع اطفالهم(٥٣) .

وهؤلاء هم من يسمون ( الهكسوس ) ، ولم يجزم المؤرخون بوقت دقيق لدخولهم مصر على وجه يقينى بعد ، فبينما أرجعه ( برستد ) إلى عام ١٦٧٥ ق م (٥٤) ، فإن ( ميخائيل ) يرجعه إلى عام ١٧١٠ ق م فى عهد ( آى ) ، استقروا بعدها فى البلاد على مدى قرن ونصف من الزمان وربما قرنين ، استغرقا ما يسمى الأسرتين الخامسة عشر والسادسة عشر كما يروى ( روبـــــنسون Theodore .H. Robinson )(٥٥) ، أو مئة عام وثمانية فى تاريخ مانيتون(٥٦) . متخذين من ( أوراس ) عاصمة لهم .

وقد ترجم ( مانيتون ) الإسم ( هكسوس ) إلى ملوك الرعاة ، وفصلّه برستد بأن الجزء الأول من الكلمة ( هيك ) بمعنى ملك ، أما ( سوس ) فلفظ دارج يعنى ( الراعى )(٥٧) ، بينما يؤكد ( عبد العزيز صالح ) أن المصريين أطلقوا عليهم اسم ( حقا وخا سوت ) أى حكام

البرارى[٥٨] ، ثم حوره الأغريق إلى ( هيكسوس ) ، هذا علماً أن ( يوسيفوس ) قد ترجمها إلى ( الأسرى الرعاة ) مستفيداً من ( مانيتون ) فى ترجمة ( سوس ) بينما اعتبرها ( جاردنر ) مشتقة من التعبير ( حيق خاسة ) أى رئيس عشرة من دولة أجنبية [٥٩] ، ويرى أنها استعملت فى الدولة الوسطى وما بعدها للدلالة على شيوخ البدو ، ويستنتج ( برستد ) منَ رواية ( مانيتون ) عن صفاتهم واخلاقهم انهم إما عرب أو فينيقيين[٦٠] .

واضطر المصريون لدفع الجزية للملك الهكسوسى طوال فترة الإحتلال القاسى ، مع محاولات ثورية متكررة هنا وهناك ، أجهضها الهكسوس أولا بأول عدا تلك التى قامت فى الجنوب ، والتى قام على رأسها **قادة ملوك بالانتخاب الحر**[٦١] ، استطاعوا أن يحافظوا على إستقلالهم بعيداً عن متناول الغزاة ثم بدأوا بشن غارات متقطعة مستمرة على الهكسوس ـــ كراً وفراً ـــ حتى إذا تمكنوا من بنياتهم جيداً ، انطلقت عزماتهم تحريراً ، وانتظم حول الملك ( كامس ) كل نبلاء الصعيد[٦٢] ، « **وصدق ظنه فى سواد شعبه فهرع اليه أهل الشرق والغرب ـــ كما قال ـــ وأمدوا جيشه اينما حل أو ارتحل بالمؤن والزاد ..** » [٦٣] .

واستطاع **جيش الصعيد الشعبى** أن يحرر البلاد بأسرها فى عهد ( أحمس بن سقنزع ) ثالث ملوك التحرير ، الذى انطلق برجاله ليقضى على فلول الغزاة نهائياً ، ويؤسس الأسرة الثامنة عشر المصرية أول أسر الدولة الحديثة وأعظم امبراطوريات ذلك الزمان ، بعد أن واصلت جيوش مصر زحفها لتطوى سوريا ـــ فى ثنايا طيها الأرض وراء الهكسوس[٦٤] .

## سابعاً : عصر الدولة الحديثة ، والانحلال .

---

وهو عصر الامبراطورية المصرية ، وتبدأ الدولة الحديثة بالأسرة الثامنة عشر عام ١٥٧٥ ق م ، حتى نهاية الأسرة الحادية والعشرين عام ٩٤٥ ق م على وجه التقريب ، فعمرت ما يزيد على ستة قرون متواصلة ، حافظت خلالها على استقلال البلاد دون شائبة ، واستطاعت ـــ خلال اربعة قرون منها ـــ أن تكون السيدة المطلقة لدول الشرق القديم دون منازع .

وقد بدأ تأسيس هذه **الإمبراطورية** بعد انتصارات ( أحمس ) الرائعة التى أوصلته إلى ( زاهى ) ، مما أدى بعد ذلك إلى استيلاء العسكرتاريا المصرية على العرش ، وكان ابرز هؤلاء العسكر الملك ( آمنحوتب الثالث ) الذى عرفه التاريخ بالقسوة والعنف والشدة مع أعداء البلاد وباللين والحب والتسامح مع بنى جلدته المصريين[٦٥] ، و( تحوتمس الثالث ) الذى استولى على الحكم عام ١٤٦٨ ق م ، ليخرج بعد أشهر قليلة على رأس جيوشه ليحتل ( قادش ) كبرى مدن شرقى المتوسط ، ويواصل فتوحاته حتى يتوجها بعبور الفرات[٦٦] .

ويترجم ( برستد ) من رسائل أمراء هذه البلاد إلى ( امنحوتب الثالث ) ما يوضح مدى سيادة هذه الإمبراطورية ، فهذا ( أكيزى Akizzi ) أمير ( قطنا Katna ) ـ حمص الحالية ـــ يقول فى رسالته : « سيدى أنا خادمك هنا ، أتبع سنة سيدى ولا أحيد عنها أبداً ، لقد صارت هذه الأرض ملكك منذ آبائى الذين خدموك ، فمدينة قطنا مدينتك ، وأنا عبدك ، سيدى حالما يصل جنودك وعجلاتك الحربية ، سرعان ما يقدم لها الغذاء والشراب والبهائم والأغنام والعسل والزيت ، هكذا نقابل جنود جلالتك وعجلاتك أيها الملك » ، وهذا أمير آخر يقول : « سيدى ومليكى ومعبودى وشمسى ، أنا خادمك أبيمالك

Abimilki . أتشرف بأن أسجد بين يدى سيدى سبع مرات ، وسبع مرات أخرى ، فأنا **الأديم تحت خفى سيدى الملك** ، سيدى أنت الشمس الساطعة على الأرض كل يوم » وجاء فى خطاب آخر : « **أنا الأرض تطؤها قدماك** ، والمقعد الذى تجلس عليه ، والمسند الذى تضع عليه قدميك » ، وغلا آخر فى إخلاصه فكتب إلى جلالته يقول : « **أنا كلبك** » ، بينما كان بعضهم يسبغ على نفسه شرفاً عظيماً بتلقيب نفسه أمام أقرانه بأنه « **سائس جلالة الملك** »(٦٧) .

على أن السياسة الداخلية لحكام الأسرة الثامنة عشر لم تستمر على نهجها الجديد ، فعادت حمى الوراثة الملكية للظهور من جديد وعادت المركزية وحق الحكم الالهى ، والوراثة المقدسة بالتناسل الالهى .(٦٨)

وحتى يتمكن هؤلاء الملوك ـــ شعبيو الاصل ـــ من تدعيم سلطانهم وتوريثه ، ونظراً لأنهم فى حالات كثيرة لم يكونوا من سلالات ملكية الدم وإنما قيادات شعبية أو عسكرية انقلابية ، فقد لجأوا إلى المنطق الأكثر فعالية مع الجماهير ، أقصد الدين ، فسارع كل منهم إلى تأكيد بنوته المباشرة للإله ، بترويج رجال الدين لوحى يؤكد تجسد الاله كروح فى جسد الملك الأب ، أو مضاجعة الرب بذاته أم الملك ، لإنجاب الذات الملكية القدسية ، واشهر ثمرات هذه المضاجعات الالهية « .. حتشبسوت ، وتحوتمس الثالث ، وتحتموس الرابع ، وأمنحوتب الثالث (٦٩) » .

كما بات ظاهراً أن سيادة كبار الموظفين ورؤسائهم الكهنة والوزراء قد أخذت تستعيد سيطرتها ، كما بدأ النبلاء يستعيدون شأنهم مرة أخرى بعد المنح الكبرى التى كانت توزع على العسكر المخلصين للتاج والذين كثيراً ما ساهموا فى وصول قوادهم للعرش(٧٠) ، وانتهى الأمر إلى ما كان عليه فى الدولة القديمة ، مما أدى مرة أخرى إلى سوء العلاقة بين الشعب والمؤسسة السياسية وأجهزتها الرسمية .

وتصور هذه الحال نصوص كثيرة نمثل لها بالنص التالى:

ألا تذكرون حالة الفلاح الذى واجه مسألة تسجيل
ضريبة الغلة ؟ بعد أن كانت الأفعى قد ذهبت
بنصف الحبوب ، والتهمت فرس النهر الباقى !
إن الفئران وفيرة فى الحقول
والجراد يهجم
والأبقار تلتهم
وعصافير الدورى تحمل النكبات
والذى يبقى فى الحقل يقع فى أيدى اللصوص !
والثور .. مات وهو يدرس ويحرث
والآن !
يحط الكاتب على ضفة النهر ليسجل ضريبة الغلة ؟
ومعه حراس يحملون الهراوات
ورجال شرطة نوبيون
يحملون قضبان النخيل ، ويقولون له :
سلم لنا الحبوب
رغم أنه ليس هناك أية حبوب ؟ !
ويضرب الفلاح ، ويوثق ،
ثم
يرمى فى بئر ، رأسه إلى أسفل
بينما تكون زوجته وأولاده قد قيدوا بالأغلال
أمام عينيه
وأولاده يكبلون بالأصفاد
ويتخلى عنه جيرانه ، ويلوذون بالفرار[٧١] .

وهكذا أصبحت الحال ناضجة لحدوث صراع جديد ، وبدأ

الاضطراب فى أواخر عهد ( امنحوتب الثالث ) ، وزاد ولده ( امنحوتب الرابع ) والمعروف بأسم ( أخناتون ) من تردى الأوضاع ، بعد أن أهمل شئون الدولة وتفرغ لدعوته الدينية الجديدة ، حتى جاء وقت عز فيه وجود وريث شرعى قوى الشكيمة ، مما أدى إلى إستيلاء أحد العسكر الوطنيين على البلاد هو ( حور محب ) ، واستهل حكمه بوضع قوانين « .. أكد فى مقدمتها .. أنه ابتغى أن يمحو بها أعمال النهب والعنف ، وأنه أملى تشريعاته بنفسه على أهل بلاطه ، وأنه اختار قضاته الاداريين من الجنود لتطبيقها ممن يحسنون القول ويتميزون بالخلق الطيب ، ويدركون خفايا الأمور ، وتبين مراسيمه هذه ، أن الضريبة .. أصبحت نهباً مشاعاً لعدد كبير من الموظفين كانوا يعتدون على سفن الغلال .. وان أصحاب المراكب كانوا يحرمون من أجورهم إذا أدوا خدمات للدولة .. ففرض على المعتدين والمرتشين عقوبات رادعة تتمثل فى الجلد بالسياط وجدع الأنف والنفى .. ، ثم وضع أوامر تقضى بالمسارعة .. بمعاقبة المخالفين .. والعمل على استرداد المسروقات **وإعفاء صاحب الماشية من الضرائب المستحقة عليه إذا سرقت ماشيته أو نفقت .. وكان حازماً مع رجال جيشه على الرغم من أنه كان منهم** فعمل على المساواة بينهم وبين غيرهم فى الردع والعقاب[٧٢] .

**بل وأصر ( حور محب ) على رفض فكرة التوريث الملكى** ، فعهد بالحكم من بعده إلى قائده ووزيره ( با رع مسو ) الذى كان الرجل الثانى فى الحكومة ، والذى عرفه التاريخ بأسم ( رمسيس الأول ) ، وبأنه الذى عاد بالحكم مرة أخرى إلى الشكل الوراثى ، وحكم ولده ( ستى ) من بعده وأسس الأسرة التاسعة عشر ، وحافظت هذه الأسرة على قوة البلاد الخارجية ، خاصة فى عهد ( مرنبتاح ١٤٢٤ ق م ) الذى أعاد عهد الفتوحات وذكرت نصوصه : انه **أخضع القبائل الإسرائيلية ، وبلاد كاش ، والحدود الليبية**[٧٣]

ورغم أن التاريخ يعتبر رمسيس الثالث آخر الملوك العظام ، فان الحالة داخل البلاد كانت متردية ، **حيث أضرب العمال فى عهده مرتين**[٧٤] ، وتتابعت الأحداث حتى سقطت الدولة الحديثة ، وبدأ عصر الإنحلال ، وتعرضت البلاد لغزوات متتالية ، بدأها الآشوريون ، ثم الفرس حوالى عام ٥٢٥ ق م ، وتبعهم الإسكندريون الإغريق عام ٣٣٢ ق م ، لينتهى الأمر بمصر العظيمة إلى الخضوع لغزو بدو الجزيرة ، ليسدل التاريخ أستاره على أعظم قصص الحضارة قاطبة فى عالم الإنسان .

# هوامش

١ – جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ، ص . ٣٢ .
٢ – هنرى فرانكفورت : فجر الحضارة فى الشرق الأدنى ، ترجمة نجيب خورى ، مكتبة دار الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص . ١٤٦ .
٣ – اتيين دريتون وجاك فانديه : مصر ، ترجمة عباس بيومى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د . ت ، ص . ٥١ .
٤ – د . إريك : حياة المصريين وثقافتهم .. سبق ذكره ، ص . ٢٤٥ .
٥ – د . عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الهيئة العامة للمطابع الأميرية ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص . ٥٨ ، ٥٩ .
٦ – وتنطق أيضاً( أيونو ) و ( آيجو ) مع تعطيش الجيم ، وتعنى البرج ، وهى عين شمس الحالية .
٧ – د . عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٥٨ ، ٥٩ .
٨ – د .نجيب ميخائيل إبراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، دار المعارف ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٥ ، ١٩١ ، أنظر أيضاً : دريتون وفانديه : مصر ( سبق ذكره ، ص . ٨٧

. 9 - A.H. Gardiner: Egyept of the Faraohs, Oxford Universty Press, London, P. 194.

١٠ – جيمس هنرى برستد : كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسى ، ترجمة د . حسن كمال ، وزارة المعارفالمصرية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ص ٨٩ .
١١ – نفسه : ص ٨٥ ، أنظر أيضاً د . عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ( سبق ذكره ) ص . ٢٦ ، ونجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ١ ، ط ٤ ، ١٩٦٣ ، ص . ١٩٢ .

12 - Garðiner, op. cit, pp 91 - 92.

١٣ – د . إريك بيت : الحياة فى مصر فى الدولة الوسطى ، ترجمة محمد بدران ، سلسلة مجلدات تاريخ العالم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، د . ت ، ص . ٥٢٦ .

١٤ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، .

١٥ – د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

١٦ – الموضع نفسه

17 - G ardiner, op. cit, p 109.

١٨ – د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ١ ، ص . ٢٥٥ ، ٢٥٦

19 - Abd-El-Hamid zayed, ABYDOS, General Organisa tion for Governnent printing offices, Cairo, 1963, p.18.

٢٠ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ، ١٤٢

٢١ – دريتون وفاندييه : سبق ذكره ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، وأنظر أيضاً : د . عبد الحميد زايد : التسجيلات المصرية القديمة لجيمس هنرى برستيد ، مجلة كلية الآداب والتربية ، جامعة الكويت ، العدد ٣ ، يونيو ١٩٧٣ ، ص . ١١٣ .

22 - Zayed, op. cit, p 18.

٢٣ – اليزابيث رايفشتال : سبق ذكره ، ص . ٢٠٣ .

٢٤ – أندرية إيمار وجانين إبوايه : الشرق واليونان القديم ، تاريخ الحضارات العام ، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان ، المجلد الأول ، دار عويدات ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص . ٥٢ .

٢٥ – د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ، ص . ٢٥٥ .

. 26 - Gardiner, op. cit, P.109.

٢٧ – دريتون وفاندييه : سبق ذكره ، ص . ٢٤٠ .

٢٨ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ج ١ ، ص . ٢٦٠ ، ٢٦١ .

٢٩ – د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١

٣٠ – محمد العزب موسى : أول ثورة على الإقطاع ، دار الهلال القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٩١ .

٣١ – نفسه : ص ١٥ .

٣٢ – د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .

٣٣ – ( نن سويت ) هى ( إهناسيا ) الحالية ، وتقع غربى بنى سويف ، أطلق عليها اليونان اسم ( هيرا كليوبوليس Hevacleopolis) ونظن ( نن سويت ) هى الأصل فى تسمية (بنى سويف ) الحالية .

٣٤ – ( واست ) هى (طيبه Thebes) الحالية ، أسماها العرب الأقصر لكثرة المعابد ذات الأبهاء بها

٣٥ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٥٣

٣٦ – هذا فى رأى جاردنر ( سبق ذكره G ardiner,p38) لكنه ( منتوحتب الثانى ) عند عبد الحميد زايد : مصر الخالده ، ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، و ( منتوحتب ) تعنى ( منتو المنعم ) ، نسبة إلى ( منتو ) إله ( أرمنت ) ، ونظنها كانت (آر – منتو ) ، مسقط رأس الأسرة الواستية الحاكمة .

٣٧ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٥٦ .

٣٨ – د . اريك بيت : الحياة فى مصر فى الدولة .. (سبق ذكره ) ص ٥٧١ .

٣٩ – برستد : كتاب تاريخ مصر ، سبق ذكره ، ص ٩ .

٤٠ – محمد العزب : سبق ذكره ، ص ٩٩

٤١ ــ نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٢١

. 42- Gavdiner,op. Cit,P. 120

٤٣ ــ برستد : فجر الضمير ، سبق ذكره ، ص ٢٧٧ .

٤٤ ــ د . عبد- العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٦٦

45- Gardinev, Op. Cit120.

٤٦ ــ برستد : كتاب تاريخ مصر ، سبق ذكره ص ١٣٨

٤٧ ــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٨٤

٤٨ ــ د . د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٨٥

٤٩ ــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٨٤

٥٠ ــ برستد : كتاب تاريخ مصر ، سبق ذكره ، ص ٩

٥١ ــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٨٥

٥٢ ــ درتيون وفاتديه : سبق ذكره ، ص ٣١٧ : ٣٢١

٥٣ ــ برستد : كتاب تاريخ مصر ، سبق ذكره ، ص ١٤ ، د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٨٧

٥٤ ــ برستد : كتاب تاريخ مصر ، ص ٣٩

٥٥ ــ تيودور هـ روبنسون : إسرائيل فى ضوء التاريخ ، ترجمة عبد الرحمن صدق ودرينى خشبه ، سلسلة مجلدات تاريخ العالم ، مكتبه النهضه المصرية ، ج ٢ ، القاهرة ، د .ت ، ص ١١٧ .

٥٦د . عبد الحميد زايد : التسجيلات المصرية .. ، سبق ذكره ، ص ١٥٢

٥٧ ــ برستد : كتاب تاريخ مصر .. ، سبق ذكره ، ص ١٤١

٥٨ ــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ١٨٨

59- Gardiner, Op. Cit,D150

٦٠ ــ برستد : كتاب تاريخ مصر .. سبق ذكره ، ص ١٤٢

٦١ ــ درتيون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٣٥٧

٦٢ ــ نفسه : ص ٣٢٨

٦٣ ــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٩٣

٦٤ ــ للمزيد حول حرب التحرير إرجع تفصيلا إلى Gardiner, The Defeat of HyKsos by .
Kmose, The Carnarvon Tablet, No 1, (j.E.A), 111, 1916
Gardinev and Gunn, New Rerdving of Egyption tex (j.E.A), V, 1918.

٦٥ ــ اليزايث برايفشتال : سبق ذكره ، ص ٨١ ، ٨٢

٦٦ ــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٢٠٩ : ٢١٣

٦٧ ــ برستد : كتاب تاريخ مصر .. سبق ذكره ، ص ٢٢٢

٦٨ ــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٩٨ .

٦٩ ــ نفسه : ص ١٩٩ ، أنظر أيضا : دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٩٢ ، وبرستد : كتاب تاريخ مصر .. سبق ذكره ، ص ٥٣٥ ، واليزابيث رايفشتال : سبق ذكره ، ص ، ٨٥ .

٧٠ ــ إيمار وإيوابه : سبق ذكره : ص ٦٤

٧١ ـــ اقتبسته رايفشتال عن آلن جاردز
٧٢ ـــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٢٠٣

73- Breasted: Ancient Records, V.3

٧٤ ـــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٢٤٢ : ٢٤٤

# الفصل الثانى
# استقراء تاريخ مصر

ان الفكر ليقف ملياً ، أمام بعض أحداث التاريخ المصرى القديم يتسائل دهشا يبحث عن اجابات ، وعادة مالا يتوقف الفكر متأنياً الا ازاء مايثير استغرابه ودهشته ، أو أمام ماقد يراه متناقضا أو مختلفاً عليه ، أو أمام ماقد لايكون منطقياً أو مقنعاً .

ولعل أهم مايثير التسائل فى هذا التاريخ ، هو أحداث — مايسمى بالصراع الاجتماعى فى نهاية الدولة القديمة ( وتكراره فى نهاية كل من الدولتين الوسطى والحديثة ) تلك الإثارة التى نتجت عن عدم استقرار أو اتفاق آراء المؤرخين حول :

● تكييف هذا الصراع : هل كان مجرد اضطرابات واختلال أمنى ناتج عن ضياع نفوذ الملكية بضياع المركزية ؟ — كما تذهب الأكثرية — أم كان ثورة جماهيرية طبقية حقيقية ؟ — كما تذهب القلة — وأى الرأيين أقرب الى الصحة والسلامة المنطقية ؟

● توقيت هذا الصراع : هل حدث كما ذهبت الجمهرة الغالبة بعد نهاية الاسرة السادسة ، أم قبل هذه النهاية ؟

وإن تكييف الصراع سيتوقف على توقيته ، بمعنى يأنه إذا كان قد حدث بعد سقوط الأسرة السادسة ، فسيكون ناتجا عن ضياع نفوذ الملكية والسلطة المركزية ، ويصبح مجرد فوضى واضطرابات ترتبت على

عدم وجود حكومة قوية تمسك بزمام الأمن ، ولو كان قد حدث قبل سقوط الأسرة السادسة وإبان وجودها فى سدة الحكم ، فيسصبح هذا الصراع هو السبب المباشر لسقوط الدولة القديمة برمتها ، ولن يصبح الصراع مجرد اضطرابات أمنية وفوضى عامة ، وإنما ثورة حقيقة غيرت التاريخ وربما العقائد أيضا .

ومن هنا سنكون مضطرين إلى العودة لعصر الصراع الاجتماعى نستنطق أحداثه ، فنجد ( إريك بيت ) يقول : « .. وكانت هوة واسعة تفصل بين هذه الطبقة ـــ النبلاء ـــ عن طبقة الفلاحين ، الذين كانوا كالأرقاء فى مزارع الملك ، و .. فيما يتعلق باحوال العيش فى عهد الدولة القديمة فأنا أميل إلى القول بان النبلاء وكبار الموظفين كانوا سعداء جدا وأن الأجراء كانوا على جانب عظيم من الشقاء . ذلك أن هؤلاء لم يكونوا فيما يلوح أكثر من عبيد ملحقين بالضياع الكبيرة ، ينتقلون من سيد إلى سيد مع الارض ، كأنهم جزء منها لا يتجزأ ، وكانوا يجلدون بلا شفقة ولا رحمة لأقل هفوة »(١) .

ويلوح لنا أن هذه الصورة لحالة مصر الاجتماعية ، لم تقتصر على تلك الفترة ( الأسرتين الخامسة والسادسة ) ، إنما كان هذا هو الحال منذ أمد طويل قبل ذلك ، ومنذ السيادة المركزية المطلقة فى الاسرة الرابعة وهو مايعلق عليه ( فرانكفورت Frankfort ) بقوله : « كان العامة مقيدين بالارض التى يحرثونها .. وكان عليهم ان يقدموا نسبة كبيرة من منتوجهم كضريبة ، وكانو معرضين لأعمال السخرة ، وكان قسم من الشباب فى كل القرى والمزارع يجندون للجيش .. واذا طرأت حاجات اضافية لتنفيد واجبات خاصة . فأنه كان ممكنا تجنيد السكان جميعا »(٢) .

وكما سلفت الإشارة ، كانت الأرض ملكا للفرعون وحده ، أما خدام الأرض من حراثين وحصادين وغيرهم ، فكانوا طائفة من الخدم

أو العبيد التى شملت الجزء الاكبر من الرعية ، وكانت أقوال الملك أوامر حتمية لا يسع الشعب أمامها الا التسليم والخضوع مهما بدت قاسية أو بغيضة لا تطاق[٤] .

وكثيراً ماظهرت فى نقوش الأسرتين الخامسة والسادسة ، صورة الملك ممسكا بالعصا ليؤدب الفلاحين ، وجباة الضرائب يسحبونهم على وجوههم إلى قصر السيد ، ليلقوا جزاء تقصيرهم فى دفع ماعليهم من أموال ، ولم يكن هناك جهة يمكن أن يلجأ اليها الفلاح ليحصل على حقوقه فالقضاة هم النبلاء ، فكانو الخصم والحكم ، المشرع والمنفذ فى آن واحد[٥] .

ونتكهن أن أبشع هذه الصور عبودية ، كان خلال الأسرة الرابعة بوجه خاص ، فكثير من الباحثين أشاروا إلى عمق الهوة التى كانت تفصل الملك عن شعبه إبانها ، ولاريب أن هذه العبودية قد بلغت ذروتها حول الأهرام الكبرى أثناء بنائها ، ولعل فى كلام ( هير ودت ) مايؤكد هذا المعنى بقوله عن الملك ( خوفو ) صاحب الهرم الأكبر أنه « .. انتهج سياسة العنف ، وأغلق المعابد والأسواق ، حتى يجبر المصرين على العمل فى بناء هرم له »[٦] ، أو ماجاء عند ( ميخائيل ) أن المصريين كانوا يكرهون خوفو ، بل كانوا يمقتون حتى مجرد ذكر اسمه[٧] .

وان هذه الحال ، التى استغرقت ثلاث أسر من الدولة القديمة تؤدى بنا إلى ترجيح كفة القلة التى كيفت هذا الصراع على أنه كان ثورة طبقية ، وكفة القلة التى وقتته قبل سقوط الأسرة السادسة ، وأن كان ترجيحاً لم يزل بحاجة لمزيد من الدعم .

وسعياً نحو محاولة التيقين ، سنقف مع ماتركه هذا العصر من تراث أدبى ، يمكن أن يكون قد ظهرت فيه صور لما دار فيه من أحداث فكان محتماً أن يصاحب صراعاً من هذا اللون حركة فكرية ، نطقت بها قطع

أدبية رائعة نسبها التاريخ لحكماء هذا العصر الشعبيين ، وهى ترسم صورة حزينة قاتمة لما ساد البلاد من فوضى ودمار ، ومن خلالها يمكن الحكم على طبيعة أحداث العصر .

ومن أهم هذه القطع الأدبية ، نصائح ( أبى ـ أور ) أو الحكيم العجوز أو الشيخ الحكيم ـ وتحذيراته ، الذى عاش فى أواخر الأسرة السادسة ، وكان له دور كبير فى هذه الأحداث ، ممادفع بعض المؤرخين لاعتباره « .. نبياً » ومصلحاً ومبشراً ونذيرا ، كما احتوى شعره على توصيات إيجابية للخروج بالوطن من أزمته ، والتنبؤ بعصر ذهبى آت يحمل الاصلاح المنشود[8] .

وبادىء ذى بدء يمكنا أن نلمح فى اشعار ( أبى أور ) روحاً ثورية واضحة تتغشى مطالبة بالعدل الاجتماعى وإزالة الفوارق الطبقية ، مع تأكيده على أن هذا الصراع كان نتيجة حتمية لتحالف الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية معاً[9] . فهو يصف لنا كيف بدأت هذه الأحداث عملياً وفعلياً باشارته من طرف خفى إلى هجران الناس للآلهة ، بقوله :

صار الرحل الأحمق يقول : إذا عرفت أين
يوجد الإله قدمت له القرابين ؟ !

وأن « القصابين يذبحون الأوز ، ويقدمونها للالهة
على أنها ثيران ؟ !
وفى الحق ، أصبح التقوى أسماً فقط .[10]

ثم يبدأ بتصوير الأحداث بقوله :

قالت كل مدينة : دعونا نقصى العتاة من بيننا[11]

ثم :

قال حراس الابواب : لننطلق وننهب ..

وأبى الغسالون أن يحملوا أحمالهم .
وتسلح صيادو الطيور بأسلحتهم
وتترس أهل الدلتا بالتروس[١٢]

أما القضاء الظالم ، فقد نال نصيبه ، بأن

ألقيت قوانين دار القضاء
فى العـــراء .
ووطئت بالأقـــدام
فى الشـــوارع .
ومزقها الغوغـــاء
فى الأزقـــة
وأخذ العوام يروحون ويجيئون فى دور القضاء
الكبيرة .[١٣]

ولم يكن مصير دواوين الضرائب ــ التى طالما عانى منها الشعب ــ بأفضل فقـــد :

« فتحت الدواوين
وسلبت كشوف الاحصاء
واتلفت سجلات كتبة المحاصيل »[١٤]

ونفهم من كلامه ، أنه بعد انتهاء الجماهير من الدواوين الرسمية اتجهت إلى النهل من كل ماحرمت منه قبلا ، فهو جمت مخازن الغلال وفر أصحاب الأصل الرفيع ، وامتدت يد البطش إلى كل من وقف فى وجه الجماهير ، واقتنى المعدمون أموال الأثرياء وممتلكاتهم حتى لو كانت بلا فائدة لهم ، كأن يستولى الأصلع على قوارير العطور الذكية أو يحصل من يجهل الموسيقى على قيثار بديع[١٥] .

واستطاع العجوز الحكيم أن يصل إلى الملك ، فى محاولة أخيرة لإيقاف الأحداث المدمرة ، وليسمعه صوت الشعب ، صارخاً فيه :

الكل آيل الى الدمار ..
إن مايروى لك هو الباطل
فالبلاد تشتعـــل
والناس قد هلكــوا ..
لديك وحى وبصيرة
وأسباب العدالـــة
**لكنك بعثت الفوضى فى البلاد**
**مع الفتـــن**
**وليتك تذوقت بعض هذه المصائب**
اذن لقصصت خبرها بنفسك(١٦)

ويبدو أن صاحب الجلالة لم يلق بالا إلى ناصحه ، فعاد هذا خائباً إلى جماهيره ، وكانت النتيجة ما جاء بعد ذلك فى شعره قائلا :

.. الدم فى كل مكـان
أصبح مجرى النهر قبراً
وغداً مكان التطهير فيه
بلون الـــدم
وإذا قصده الناس ليرتووا منه
عافوا جثث البشر
وظلوا على ظمئهم الى الماء
.. وغصت التماسيح بما أصبحت تقتنصه
بعد أن ذهب إليها الناس من تلقاء أنفسهم
وأصبح الحزن يملأ قلوب أصحاب الأصل الرفيع
أما الفقـــراء
فقد امتلأوا ســـرورا(١٨)

وكانت النتيجة التى صورها المؤرخ ( نجيب ميخائيل ) بقوله : ان البلاد قد تحولت إلى حالة متردية من التمزق والتفتت ، حتى انتهك الغوغاء مقابر أعاظم الملوك ، بل ومعابد الآلهة فنهبت السوقة الأوقاف ، وهشمت النقوش والمعابد وموائد القرابين ، ولم يستثن من الانتقام الرهيب ، لا الجماد ، ولا البشر ، ولا القيم .[١٩]

ولم يبق أمام حكماء القوم ، سوى ترقب الخلاص وتعليق الآمال على رجل قوى صالح ، يمكنه أن يصل إلى الحكم ويمسك بزمام الأمور ممنين النفوس بعد له وعطفه ورعايته ، فيصف ( إيبو العجوز ) رجل الشعب المنتظر بقوله :

أنه يطفىء لهيب الحريق الاجتماعى
يقال عنه : راعى كل الناس
لايحمل فى قلبه شراً
وحينما تكون قطعانه قليلة العدد
فانه يصرف يومه فى جمع بعضها إلى بعض
وقلوبها محمومة[٢٠]

ولم يكن الحكيم العجوز ( أبى أور ) هو المفكر الوحيد الذى صور لنا شعره أحداث الصراع ، فهناك أيضا الحكيم ( نفرر حو )[٢١] ، الذى ينسب شعره زمانيا إلى ايام الدولة الوسطى ، وإن كان به ما يدل فى ظننا — ظننا له مايبرره ، وسنبرره — أن نسبته للدولة الوسطى أمر مشكوك فيه ، ونعتقد أنها قيلت أول مرة ابان احداث الصراع الاجتماعى ، وإذا كان تسجيلها قد تم فى عصر الدولة الوسطى ، فليس هناك مايمنع من كونها كانت معروفة إبان عصر الصراع الاجتماعى ، خاصة وأن كثيراً من قطع الادب المصرى القديم ، لم تسجل كتابة إلا بعد عهدها بزمان وهى حالة معروفة لدى الباحثين فى المصريات القديمة ،

يقول نفرر خو :

فــؤادى
لطالما تألمــت
من أجل هذه الارض
التى نشأت فيهـــا
**وقد أصبح الصمت**
**نقيصــة :**

فثمة أمور يتحدث القوم عنها ..
وقد ولى زمان الرجل الكفء
.. فمن أين تبدأ ؟
.. لاتراع فؤادى فالأمر واضح أمامك
**وعليك أن تقاومه ..**
**لقد أصبح المسؤلون عن البلاد**
**يأتون أموراً ما كان ينبغى أن تحدث**
وخربــت الارض
وليس من يأسى عليها
.. يتحدث الجميع عن الحب
.. لكــن
الخير ( بمعنى الخبز ) اختفى ..
تناقصـــت الارض
لكــن
الموظفين ( يعنى رجال الدولة ) تزايدوا
وجفت الأرض
لكــن
الضرائب تضخمــت
وقلت المحاصيــل

لكــن
المكيال اتسع ..
ظهر الأعداء فى الشرق
**واقتحم القبليون أرض مصر**
لكــن
مامن مدافع ليسمع أو يجيب ..
تباعد الإله رع عن الناس
**لقد أصبح**
**الكليل صاحب سلاح**
**وأصبـــح**
**القوم يبجلون من كان يبجلهم**(٢٢)

أما تبريرنا لنسبة هذه الأبيات إلى عصر الصراع الاجتماعى فى أواخر الأسرة السادسة ، فهو مجموعة من الشواهد أهمها :

— أن الأحداث التى يصورها ( نفرر حو ) لايمكن — بأى حال — أن تتفق مع الزمن المنسوبة اليه ، فهى تنسب إلى عهد ( أمنمحات الأول ) فى الأسرة الثانية عشر ، وزمن ( أمنمحات ) بالذات كان من أزهى أيام هذا العصر ، وأكثرها استقراراً وسلاما فكيف يتفق ذلك مع نداء ( نفرر حو ) بأن الصمت قد أصبح نقيصة ؟ وأنه يجب مقاومة الظلم ؟

ثم كيف يؤكد أن المسؤولين يأتون أموراً منكرة ؟ فى الوقت الذى تأتى فيه نهاية أبياته داعية لأمنمحات ، منبئة بأنه الحاكم العادل المنتظر ، تلك النهاية التى تقول :

— لكــن
سوف يظهر ملك من أهل الجنوب
يدعى أمينـــى

- ابن سيدة من تاسى
طفل خن نخن
سوف يتسلم التاج الابيض
ويلبس التاج الاحمر
والناس فى زمنه
سيكونون سعداء
ان ابن احدهم
سيخلد اسمه
الى أبد الابدين ؟ !

وكما سلف ، فان هذا الجزء بالذات من أشعار ( نفرر حو ) هو الذى حدا إلى نسبة الأبيات بكاملها إلى عهد ( أمنمحات الاول ) ، ثم كيف تصح هذه النسبة ، بينما الحكيم يشير إلى تعرض البلاد لغزو بدو الشرق الذين عرفناهم باسم ( العامو حر يوشع ) وهو الغزو الذى بدأ فى نهاية الأسرة السادسة وتم القضاء عليه فى عهد المملكتين النسوتية والواستية قبل عهد ( امنمحات ) بحوالى تسعين عاماً ؟

وقد يستقيم الأمر — منطقياً — إذا نسبنا هذه القطعة الأدبية لعهد الصراع الاجتماعى ، دون الجزء الأخير منها ، والخاص بالدعاية لأمنمحات ، ونرجح أن هذا الجزء قد أضيف للقطعة أيام حكم ( أمنمحات الاول ) إضافة متعمدة ، لإضفاء مظهر التنبوء عليها ، وحتى يكون هو المخلص الموعود ، خاصة إذا كان الجزء الاول من القطعة معروفاً للجماهير ابان الصراع الذى سبق عهد أمنمحات بحوالى قرنين من الزمان على الأقل .

وتأسيساً على ماأوردناه ، يمكن القول بإيجاز : إن أحداث الصراع الاجتماعى فى نهاية الدولة القديمة ، لم تكن مجرد فوضى وارتباك أمنى

وسلب ونهب ، إنما كانت أحداث **ثورة طبقية حقيقية واعية لأهدافها** وجهت كل همها ضد الظلم وممثليه من حكام ونبلاء وأغنياء .

**ويخطر لنا هنا أن نذهب مذهباً بعيداً ، جديداً ، وهو أن الثورة لم تتوجه فقط ضد حكام الاقاليم النبلاء ، أنما توجهت أيضاً بل بدأت ضد النظام الحاكم وضد الدين الرسمي معاً** ، والا كيف يمكنا أن نفهم خطاب إيبو العجوز للملك :

لكنك بعثت الفوضى فى البلاد
مع الفتـــن
وليتك تذوقت بعض هذه المصائب
إذن لقصصت خبرها بنفسك ؟ !

ثم كيف تأتى للعامة أن ينتهكوا مقابر الملوك ويدمروها ؟ وهم من كانوا يمثلون الآلهة المقدسة ! تلك الآلهة التى غدت محل سخرية الثوريين فذبحوا لها الأوز على أنه ثيران ! ودمروا معابدها ، أو ما بدا واضحاً فى تساؤل ( الرجل الاحمق ) أو ( **الرجل الثائر** ) : « إذا عرفت أين الإله ، قدمت له القرابين » ؟ !

حقيقة لا يمكن فهم هذا كله إلا إذا اعتبرناه ثورة واعية ، رفضت الآلهة القديمة ، وتوجهت ضد تسلط النبلاء ، وضد نظام الحكم ، وضد الدين الرسمى . مما يعنى أنها بلغت اكتمالها ونضجها فى هذا العصر ، بعد عهود ظلام وصبر طويلين ، ولم تكن وليدة ظروف تسلط النبلاء فى الأسرتين الخامسة والسادسة ، إنما هى تمتد بجذورها إلى أيام الاستعباد فى الأسرة الرابعة ، وما تركه هذا الاستبعاد ، محمولا فى النفوس ، ليتأجج فى الأسرة الخامسة ، ثم يتفجر فى الأسرة السادسة .

**بل ويمكنا افتراض أن بداية تمرد النبلاء فى أواسط الاسرة الخامسة لم يكن فى حقيقته سوى مقدمات ونذر هذه الثورة بمعنى أن تكون**

الثورة قد بدأت بالتحالف مع حكام الأقاليم النبلاء كقيادة لها ، فى الأسرة الخامسة ونفترض ذلك استناداً إلى بعض المدونات التى توحى بأن « ... حكام الأقاليم قد أولعوا بالاستقلال ، لكن يبدوا أنهم كانوا فى الغالب يحبون مقاطعاتهم حباً خالصاً ، وظهروا بمظهر المحسنين نحو رعاياهم »(٢٣) .

ويشير واحد من النبلاء فى متنه الجنائزى ، إلى فخره بمحاولة حل مشكلات ثلاث ، كانت هم الجماهير الكبير ، وهى مشكلة اضطراب الأمن ، ومشكلة تطهير الترع القديمة وحفر ترع جديدة وإصلاح الأرض البور ومشكلات المجاعة والفقر(٢٤) . وما كان ممكنا أن يهتم نبيل بحل مثل هذه المشكلات ، ولا حتى يذكر ذلك — ناهيك عن كونه يفخر به — أو حتى أن نتمكن من فهم هذا الكلام ، إن لم نضع بحسباننا وجود نوع من التحالف بين القوى الثورية والنبلاء فى بداية الثورة .

ومما يدعم ذلك أن هؤلاء النبلاء قد تمادوا « ... فى عصيانهم فكتب أحدهم نقوشا ، افتخر فيها بأنه نجى بلده من ظلم واضطهاد البيت المالك »(٢٥) ، وما كان لنبيل — مهما بلغت منزلته — أن يصرح بمثل هذا الكلام ، أو يجروء على التلميح به ، لو لم يكن معضدا من ثورة حقيقية ، وبسند قوى من رجاله ، حتى وصل الأمر بهذا التحالف إلى حد قطع الموارد عن العاصمة ، إلى أن عجزت عن فرض أوامرها وممارسة سلطاتها(٢٦) .

وعليه يمكن القول : إنه إذا كان عصيان النبلاء قد بدأ فى الأسرة الخامسة ، وأخذ مظهره السافر فى الأسرة السادسة ، أمكننا **تحديد وقت الثورة فتصبح بدايتها النظرية فى منتصف الأسرة الرابعة تقريبا ، ثم بدايتها العملية بقيادة النبلاء خلال الأسرة الخامسة ، ثم تفجرها الشعبى الكامل فى نهاية الأسرة السادسة** ، بعد أن اتضح للجماهير ،

أن النبلاء لم يظلوا على حالهم من عدالة الحكم ورعاية شئون الجماهير ، فبعد تهاوى الهيبة الملكية تحولت أسر النبلاء للاستئثار بخيرات الأقاليم ، دون غالبية المحرومين من المواطنين ، **مما يدعونا إلى افتراض ان هذا الوقت كان بداية الطلاق بين النبلاء والجماهير** التى انطلقت تدمير بلا تمييز ، لتنال من النبلاء والملكية على حد سواء .

وبذلك نصل إلى استنتاج :

- أن الصراع الاجتماعى كان ثورة حقيقة .
- أن هذه الثورة قامت ضد كل أنواع السلطة .
  الملك ، حكام الاقاليم النبلاء ، الدين .
- انها بدأت عمليا وشعبياً قبل سقوط الأسرة السادسة ، وكانت العامل الحاسم فى هذا السقوط ، وسقوط الدولة القديمة كلها ، وأغلب الظن أن نذرها العملية قد بدت فى تقرير ( مانيتون ) **أن الملك ( تيتى** Titi ) قد قتل بيد حراسه[٢٧] .

وهنا نورد نصين غاية فى الخطورة والدلالة ، أحدهما يوضح لنا الرؤية الشعبية لنظام الحكم المرجو ، والآخر يصور لنا الإنسان الثورى ومبادئه ويزعم البعض أنهما قد ظهرا بعد نهاية الثورة وإبان حكم الدولة النسوتية بالذات ، وان كنا نشك فى هذا التوقيت شكاً كبيراً .

ولنبدأ بالنص الأول المعنون ب ( نصائح إلى مرى كارع )[٢٨] ، ويرجح ( عبد الحميد زايد ) أن يكون اخيتوى الثالث ( واح كارع ) هو المؤلف**المزعوم له** ، وجهه كخلاصة تجارب وخبرات إلى ولده ووريثه الملك ( مرى كارع )[٢٩] .

ويلاحظ المطالع لهذه النصائح روحاً ديمقراطية تشيع فيها ، تظهر الفرعون فى صورة انسانية رحيمة ، لاصورة إلهية متسلطة قاهرة ، فهو يتحدث عن ضعفه وندمه كما يتحدث كل الناس ، وزغم أن ( برستد )

يذهب إلى أنها قد كتبت — بالتأكيد — فى العصر المنسوبة اليه[٣٠] . فإن ( جاردنر ) يؤكد أنها لم تكتب قط قبل نهاية الأسرة الثامنة عشر فى الدولة الحديثة بعد توقيت ( برستد ) التأكيدى بحوالى ثمانية قرون[٣١] .

**وازاء التأكيدين المتضاربين نجتهد فنضع احتمالا بأنها قد وضعت فى الوقت الذى ظهرت فيه أشعار ( أبى أور ) و ( نفرر حو ) ، أى فى عصر الثورة** ، كنصيحة وتوجيه غير مباشر للملك ، نحو الطريق السليمة لاكتساب رضى شعبه ومحبته ، وأنها نسبت هذه النسبة **المزعومة** لأخيتوى الثالث — بتعبير عبد الحميد زايد — ذلك التعبير الذى يحمل نفس روح تشككنا فى صحة نسبها للعهد النتسوقى ، اذا مانظر الى ما يسرى فيها من روح ديمقراطية حقيقة ، يستغرب أن تصدر عن ملك مثل ( أخيتوى الثالث ) ومرجع الغرابة ماجاء عنه فى المدونات التى وصفته بالجبروت والبطش وانعدام الرحمة ، حتى وصفة ( مانيتون ) و ( أراستو ستينيس ) بأنه كان « .. أبعث للرعب من كل من تقدموه ، وأنه كان يفعل الشر فى مصر كلها » ، وأنه « سام الشعب العذاب حتى أصابهم فى عهده مالم يصبهم من قبل فى عهد غيره »[٣٢] ، حتى أشاع عنه شعبه ، أنه قد « .. أصابه الجنون أواخر أيامه ، وافترسه تمساح فى النيل »[٣٣] ولو لم يحدث ذلك ، فهو تعبير عما تمناه الناس لفرعونهم .

ولو كان ( أخيتوى ) الثالث هو حقاً صاحب هذا النص الأدبى لكان منطقياً أن تكون حياته وسلوكه نموذجا واقعيا لها — ولو إلى حد ما — ولما ثارت مدينة الإله الشعبى المقدسة ( أبيد وس ) التى كانت محل الصراع بينه وبين ( واست ) الصعيدية ، تلك الثورة التى أوعزت إلى ( جاردنر ) بأحتمال كونها إشارة لملوك الجنوب بالتقدم شمالا ، ودحر أخيتوى ، والاستيلاء على المدينة وماتلى ذلك من هزيمة ( نن نسوت )[٣٤] .

وعلى أية حال ، فليس هناك مايمنع احتمالنا الاجتهادى ، خاصة أن أغلب هذه المدونات لم تدون فى عصرها مباشرة إنما ظلت تنتقل شفاهة حتى يقيض لها التدوين ، بعد أن يتدخل بالطبع مزاج الرواة والأيام بالحذف والإضافة ، ونظن أن ذلك هو ما دعا ( جاردنر ) إلى التعليق على هذه النصائح بأنها « .. مليئة بالرموز والألغاز والفجوات من كل نوع » . لكن الأمور قد تكون أكثر استقامة واتساقاً اذا وضعنا هذه القطعة على حد سواء مع أدب الثورة .

وفى هذه القطعة ، يقول الملك المزعوم لولده المزعوم :

البشر رعايا الالــه
خلق السماء والارض بما يشتهون
وأجرى المياه دافقة
وأرسل لهم النسمات كى يحيوا بها
هم أشباه لـــه ! !
صدروا عن بدنـــه !
وهو يتجلى فى السمـــاء
ليلبى ما يرغبـــون
ويخلق العشب والأنعـــام
والطير والاسمـــاك
حتى يقتاتون بهـــا

لذلك ، اسمـــع

لاتفرق بين إبن النبيل ، وإبن فقير الأصل
وتخير الفرد بكفاءاته
قل الحق فى قصرك ، يخشاك عظماء الارض(٣٦)

ثم : الزم العدل تخلد على الارض(٣٧)

لأن :

قوة المرء فى لسانه
وان الحديث الطيب
أقوى من الحرب والقتال ..
خذ بيد الحزين والبائس
ولا تظلم أرملة
ولا تقتـــل
القتل لا يفيـــد(٣٨)

أما وسيلتك إلى سلامة عرشك ، فهى أن :

لا تكونن فظـــاً
لأن الشفقة محبوبـــة
وليكن أكبر أثر لك
محبة الناس لك(١٨) .

هذه بايجاز أهم النصائح الى ( مرى كارع ) ، وهى مقتطفات تظهرنا على صورة الملك الذى كانت ترجوه الثورة الأولى ضد النبلاء والملكية وتتمناه منقذا ومخلصا ومحباً لشعبه .

أما النص الثانى فهو ( شكاوى الفلاح الفصيح ) وتقع فى ٣٤٠ سطرا وتتكون من تسع شكاوى ، تشير كلها الى اهمال الموظفين لواجباتهم واضطراب الامن ، وضعف الملكية ، وتفشى الغش والخداع ، وانحراف القضاء وارتشائه . وينسبها المؤرخون إلى أديب من العصر النسوقى او بالتحديد ـــ فيما يرى ( بريتشارد . . james . B Pritchard ) ـــ إبان حكم ( أخيتوى الثالث ) أى نفس الملك المنسوب إليه نصائح ( مرى كارع )(٤٠) .

وهذه الشكاوى قطعة أدبية رائعة ، **تعبر إلى حد كبير عن نضوح الوعى السياسى ، وأوضحت بجلاء وبساطة أهم حقوق الانسان ،**

وربطت بين السلطة والمسؤولية ، بل واشترطت ضمنياً بقاء الحاكم فى كرسيه بمدى تنفيذه لالتزاماته تجاه شعبه ، وباختصار هى لسان ثورى عتيد فى ثوريته .

وتتلخص قصة هذا الفلاح الثائر ( خون أنوب ) ، فى أنه كان فى طريقه من قريته ( حقل الملح ) بالفيوم ، بتجارة متواضعة ، إلى سوق المدينة للمقايضة ، فاحتال عليه النبيل ( تحوتى نخت ) نائب ناظر الخاصة الملكية ( مرو بن رنسى ) وسلبه بضاعته ومتاعه وماشيته ، فما كان من ( خون ) بطل قصتنا إلا أن ذهب ثائرا إلى ناظر الخاصة الملكية ، باسطا شكواه ضد نائبه اللص ( تحوتى ) ليرفعها إلى الملك .

ولعل أبدع مافى شكاوى ( خون ) الثائر ، أنه **لم يجعل شكاواه تعبيرا عن مشكلة خاصة به فقط ، بل جعلها عامة شاملة** ، تتناول حقوق كل الفقراء والمعوزين كما لو كان مؤلفها قد وضعها مرتبة محبوكة على لسان بطل قصته عامدا ، بهدف رفع الجور والعسف ، بل وربما **التحريض** ، ملخصا فيها الآراء الثورية فى النبلاء والموظفين والمعوزين ، بل وفى الحاكم ذاته حتى بلغ من عنفه أن قال على لسان بطله ( خون ) وهو يوجه حديثه لناظر الخاصة الملكية :

إن كبار الموظفين يأتون السيئات
إن الذى ينبغى أن يستأصل الشرور
إنما يرتكب هو نفسه المظالم
**لقد وُليت** لتقضى فيما بين الناس من خصام
ولتعاقب المجرم
ومياأراك تفعل شيئاً
غير أن تناصر اللصوص !!
لقد **أولاك** الناس ثقتهم
فملت فى الحكم كل الميل
**لقد وُليت** أمر الناس

لتكون حصن البائسين

فحذار أن يغرق البائس فى مائك الجارف[41]

إن الذى يجب أن يحكم **تبعاً للقانون**

هو الذى يأمر بالسرقة !

فمن الذى سيعاقب الخسة ؟

إن من يجب عليه إزالة الفساد

هو المــراوغ !

يدعون أن الرجل مستقيم

وهو أعــوج

أما غيره فيرضى بنصيبه السيىء ..

إنك فعلا معداوى

لكنك فقط تعدى **من يدفع لك**[42]

ثم أن مؤلفنا يصور بطله مقداماً لا يهرب ولا يستسلم خوفاً ولا ييأس فرغم أنه لم يسلم من أذى الحجاب وإهانة الحراس ، فإنه لم يتخل عن حقوقه ، واستمر يصرخ بكلماته الرائعة ، مصراً على إسماع الحاكم ما لا يحب ، وأن تصل الحكومة آراءه فى العدالة الاجتماعية والسياسية وهى بالطبع تصور المفكرين الثوريين للنموذج الأمثل آنذاك ، ومن ثم يرفع صوته بعد أن ضربه الحراس بالسياط بناء على أوامر الحاكم ، رادا له الصاع صاعين ، يناديه :

يابن رنســى

هكذا ضل بن رنسى

وصار وجهه أعمى لا يرى

وأصم لا يسمع

لأن ضميــرة

قد ضل طريقــه

إسمــع

إنك بلدة بلا عمـــدة
شركة بلا رئيـــس
مركب بلا قيطان ..
إنك تريد رشـــوة
ومن يأتى بعـــدك
سيفعل مثلـــك
لا
لا تنهب الفقراء فهم ضعاف
لتسمـــع
لقد وُليت لتسمع
وتحكم بين المتخاصمين
لتعاقب اللص
وليس لتصبح سنداً لـه
قد يتوسم المرء فيك الثقة لكنك مجرم !!
لقد عُينت لتكون سندا للمعوزين
وحارساً لهم كيلا يغرقوا
لكن لو دققنا النظر
سنجدك البحيرة التى تبتلعه(٤٣)

وحتى لو لم تؤلف هذه القطعة الرائعة إبان الأتون الثورى ـــ حسبما نظن ـــ وتم تأليفها فعلا فى عهد أخيتوى ـــ وفى هذا شك كبير ـــ فهى تدل بوضوح قاطع على تأثير الثورة على المفاهيم الإجتماعية والسياسية ، وعلى مناهج التفكير التى اصطبغت بصبغة تقدمية تماماً بالنسبة لتلك العصوز النائية قدماً ، ونتصور أن هذا التأثير لم يقف عند هذا الحد ، لأن قصة تولى ( أمنمحات الأول ) عرش مصر ، توحى أن هذه الولاية كانت قمة أغراض العمل الثورى ، استنادا إلى شواهد أهمها :

أن ( امنمحات ) هذا لم يكن من سلالة ملكية ، ولا حتى من سلالة نبيلة إنما كان فرداً من سواد أفراد الشعب ، استطاع أن يثبت صلاحيات عسكرية أوصلته الى تولى وزارة الحربية .

أنه انتمى باسمه ( أمنمحات ) وتفصيله ( أمن أم حية ) أى ( آمون فى الطليعة ) إلى إله كان — حتى ذلك الحين — مغموراً هو ( آمن ) أو ( آمون Amun ) ، مما يعنى انتماءه لعقيدة تخالف العقيدة الرسمية للبلاد ، وهى عقيدة سادته ، الذين كانوا ينتسبون إلى ( منتو ) إله ( ارمنتو ) ، والغريب أن شأن ( آمن ) بدأ فى الارتفاع منذ هذا العهد ، ليصبح سيد الآلهة حتى نهاية العصور الفرعونية ، بل وحتى اليوم لم يزل مذكوراً تختتم به التراتيل القدسية الدينية فى كثير من العقائد ( آمين ) . ولعل ارتفاع شأنه يعود — فى ظننا — إلى أن رجال كهنوته ، كانوا على درجة من الرجاحة ، التى دفعتهم إلى الميل مع التيار الأقوى ، فجعلوا من إلههم ( آمن ) « .. الروح لاوزيريس »(٤٤) إله الجماهير الشعبى .

إن ( أمنمحات ) اعتبر فى نظر رجال الفكر هو المخلص المنتظر للبلاد من عثرتها ، وللشعب من النبلاء .

انه هو الذى استطاع — فى نظر بعض الباحثين « .. أن يكسر نهائيا شوكة الحكام الاقطاعيين »(٤٥) — وان كان لنا على ذلك تحفظ كبير .

وتأسيساً على ذلك يمكن التكهن بأنه كان رجل الشعب المنتظر ولربما كانت القيادات الشعبية ، وراء الترويج له ، كما فى نبؤة ( نفرر حو ) وتمهيد السبيل له بكل الوسائل المتاحة للوصل الى الحكم . وقد استطاع ( أمنمحات ) بالفعل أن يجعل سنى حكمه من أزهى عصور الدولة الوسطى ، لتشمخ مصر برأسها مرة أخرى .

لكن ( أندريه ايمار ) و ( جانين إبواية ) يؤكدان أن اصلاحات أمنمحات كانت عرجاء[٤٦] ، ولعل مرجع التأكيد يعود إلى أن إخضاع النبلاء بشكل نهائى كان مسألة عسيرة ، ومن ثم كان الحل الذى بدا أن ( أمنمحات ) قد ارتضاه ، هو السماح للنبلاء بقسط من الاستقلال مقابل طاعته ، لهذا رأى ( إيمار ) و ( إبواية ) ان العرج كان واضحاً فى إصلاحه .

وهنا نعثر على وثائق تقول أن مؤامرة قد دبرت فى الخفاء لاغتيال حياة ( امنمحات ) ، وأنها بلغت حداً بعيداً ، حتى دخل الجناة عليه غرفة نومه ، وهجموا على شخصه الملكى بالسيوف ، مماأضطره أن يدافع عن نفسه بنفسه ، وسمع صليل السيوف فى القصر ، فتنبه الحرس من نومهم وهرعوا لإنقاذ مليكهم من الخطر الذى أحدق به .

وبناء على تصورنا الذى طرحناه منذ بداية هذا الفصل سنفترض أن القيادات الثورية التى كانت وراء ( امنمحات ) لم تعد ترضى عن سياسته إزاء النبلاء ، واعتبرته خائناً لقضية الثورة فقررت تصفيته جسدياً ويدل حديث ( أمنمحات ) عقب محاولة اغتياله ، على المعنى الذى افترضناه ، فهو يأسف لخيانة حلفائه الذين وثق فيهم ، ويقول « .. لقد أحسنت إلى المساكين ، واطعمت اليتيم ، وتحادثت مع الوضيع كمحادثتى مع الأمير ، ولكن كل من أكل خبزى ، قام ضدى »[٤٧] والمعنى واضح ، فهو كان حليفاً لطبقة محددة يصفها بالمسكنة واليتم والوضاعة ، مؤكداً أن هؤلاء الحلفاء هم الذين حاولوا قتله ، واذا كان ( برستد ) يؤكد أن افراد هذه المؤامرة ، كانوا من رجال حاشيته[٤٨] ، فان ذلك لايهدم افتراضنا بل يدعمه ، لأنه من الطبيعى أن تكون حاشيته ممن مهدوا له السبيل إلى العرش .

ومن هنا أيضاً نفهم لماذا قام ( امنمحات ) بتصفيتهم جميعا بعد ذلك .

# هوامش

١ ــ د . إريك بيت : حياة المصريين وثقافتهم .. سبق ذكره ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨
٢ ــ هنرى فرانكفورت : سبق ذكره ، ص ١٢٢ ، ١٢٣
٣ ــ محمد العزب : سبق ذكره ، ص ٥٨ ، ٥٩
٤ ــ إيمار وإبوايه : سبق ذكره ، ص ٥٢
٥ ــ محمد العزب : سبق ذكره ، ص ٥٩
٦ ــ فاروق فريد : التاريخ الجامع لهيرودت ، سلسلة تراث الإنسانية ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، المجلد الخامس ، القاهرة ، د . ت ، ص ٤٥٩
٧ ــ نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٦٧
٨ ــ برستد : فجر الضمير ، سبق ذكره ، ص ٢٠٧ ، وتحفظ برديه ( آبى أور ) حاليا فى متحف ليدن بهولندا ، وتعرف اصطلاحا بوقه لدين ، اكتشفها الأثارى ( لانجه ) ، ثم درسها ( جاردنر ) دراسة شاملة فى The Admenition of An Egyption Sage انظر بخاصة : ( 344 r ) 1 ، انظر ايضا لجاردنر Ancient Egypt , p 1914, p.p 55 - 58

انظر ايضا عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، بدءاً من ص ١٤٢
٩ ــ د. عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٣٥٩
١٠ــ محمد العزب : سبق ذكره ، ص ٧٩
١١ــ عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٤٢
١٢ــ نفســه : ص ٦٣٠
١٣ــ الموضع نفســه
١٤ــ الموضع نفســه
١٥ــ محمد العزب : ص ٤١
١٦ــ عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٤٣

١٧ـ الموضع نفســه

١٨ـ محمد العزب : سبق ذكره ، ص ٧٤

١٩ـ د. نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩

٢٠ـ اكتشف برديته الآثارى ( جولنشيف Golenischeff ) وهى محفوظة الآن فى متحف لننجراد بالاتحاد السوفيتى ، وقد ترجمها كل من جاردنر وارمان ، أنظر Gardiner, Ancient Egypt, p.p. 55 - 58

٢٢ـ عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٣٦٥

٢٣ـ دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٢٣٩

٢٤ـ د. عبدالعزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٤٥

٢٥ـ برستد : كتاب تاريخ مصر .. ٩٧

27- Gardiner, Egypt of the Faraohs, p 112

٢٨ـ دون هذا النص فى ثلاث برديات ، واحدة فى لننجراد والأخرى فى موسكو والثالثة فى كوبنهاجن ، أنظر Sharff, Der Histotrische Abshnitt der lehre Fuer Meri Ka Re, Mundern, 1936, p. 81.

٢٩ـ د. عبد الحميد زايد : التسجيلات .. سبق ذكره ، ص ١١٢

٣٠ـ برستد : فجر... سبق ذكره ، ص ١٦٦

31- Gardiner, Egypt of the Faraohs, p. 115

٣١ـ د. نجيب ميخائيل : ج سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٨٨

٣٣ـ محمد العزب : سبق ذكره ، ص ٩٥

34- Gardiner, op. cit, p.120

٣٥ـ د. عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٥٠

٣٦ـ نفســه : ص ١٤٩

٣٧ـ نفســه : ص ١٥٠

٣٨ـ د. عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، سبق ذكره ، ص ٣٠٧

٣٩ـ برستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ١٦٩

40- J.B. pritchard, Ancient Near Esterntextes, princeton University press, New jersuy, Third Edition, 1969, p.p. 407-410

٤١ـ د. عبد الحميد زايد : التسجيلات .. سبق ذكره ، ص ١١٣

42- Pritchard, O P.cit, p. 4093.

43- Ioc. cit

٤٤ـ ادولف ارمان : ديانه مصر .. سبق ذكره ، ص ١٠٩

٤٥ـ محمد العزب : سبق ذكره ، ص ٩٩

٤٦ـ إيمارو إبوايه : سبق ذكره ، ص ٦٣

٤٧ـ برستد : كتاب تاريخ مصر .. سبق ذكره ، ص ١٦٦

٤٨ـ نفســه : ص ١١٥

# الفصل الثالث
# سفر التكوين الفرعونى

سعياً وراء البحث عن أصول الديانة الفرعونية ، وأسسها وفلسفتها نجد المرحوم ( عباس العقاد ) يؤكد فى دراسته لمفهوم الألو هية ، فى هذه الديانة ، أنه قد « .. وصل المصريون إلى التوحيد »[1] ، وهو برأيه هذا ليس فريدا فيبدو أنه بذلك انما يسير على درب بعض المتخصصين فى المصريات القديمة ، لأن ( جيمس هنرى برستد ) قد أشار — من قبل — إلى « .. وقوع بعض الناس فى الخطأ ، فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ، ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن فى أصل دياناتهم »[2] ، بل ويؤكد لنا ( رودلف آنتس ) أنه قد « .. عرفت فكرة وجود الخالق الأزلى للكون ، منذ بدء التاريخ المصرى »[3] ، أما ( أحمد بدوى )الآثارى المصرى فيذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إن المصريين قد « .. عرفوا ان الله واحدلا شريك له» ، حتى أنهم نزهوا الخالق عن طبيعة الأشياء »[4] ، ودعمه فى ذلك ( عبد الحميد زايد ) بقوله : « .. ان المصرى القديم ، منذ الدولة القديمة ، أو أبعد من ذلك ، أراد أن يجعل فكرة الميلاد ، من إله واحد ليس له كفوا أحد »[5] .

ولكــــن

الى أى حد يمكن الاطمئنان إلى هذه الأراء ؟ وكيف نوفق بينها وبين

مانعلمه عن تعدد الآلهة المصرية ، المطبوعة بأشكالها الحيوانية ؟ وعلى أية أسس بنى هؤلاء آراءهم ؟

ليس من شك فى أن الديانة ، كانت لها فى مصر القديمة أهمية كبرى ولايزعم زاعم أن هناك قوة أثرت فى حياة الانسان القديم ، مثل قوة الدين ولقد اعتقد المصريون أن بلادهم قد حكمتها الآلهة ، فى عصورها الأولى لذلك كان ملوك مصر ورثة لعروشهم عن هذه الآلهة وبذلك كانوا آلهة ، أو أبناء آلهة ، لذا كانت الحكومات ذات طابع دينى واضح تماماً ، حتى عرف عن المصريين — فيما روى هيرودت — أنهم أكثر الأمم تدينا(٦)

وكما سلفت الاشارة ، كانت هذه المعبودات هى آلهة المدن ، التى تميزت بأسمائها وأشكالها وأعيادها ، وكان إله المدينة يعد فى عرف سكانها ، أعظم من أى إله آخر ، ونتيجة للأحداث الإجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التى أدت إلى توحيد المدن فى أقاليم ، وسيادة معبود الاقليم الأعظم على سائر آلهة المدن ، كان بعض آلة المدن يغلب على أمره فيفقد أهميته ، بينما كان بعضها الآخر يحاول سدنته التقريب بينه وبين إله العاصمة ، لينال من حظه نصيب .

وباندماج الأقاليم وتكون الحكومات الكبيرة زاد إدماج الالهة ، حتى انتهى الأمر فى عصر فجر التاريخ ، إلى عبادة إلهين عظيمين — إلى جوار عدد غير قليل من آلهة المدن المحلية — وهمـا :

● الاله ( حور ) : إله إقليم الشمال ( الدلتا ) ، وكان فى الاصل إله ( بحدت ) وهى ( دمن حور ) أو ( دمنهور )(٧) ، ولا يمكن الجدال فى أصله الطوطمى الواضح فى رسومه ، لأنه « منذ عصور ماقبل التاريخ ، حتى آخر عصور التاريخ المصرى القديم ، نجد الصقر أهم رمز لحور .. »(٨) ، وقد صورته النقوش فى أحد هيئتين : هيئة الصقر كاملة وهيئة إنسان برأس صقر ، ويمكننا افتراض أن صورة الصقر أو العقاب

كاملة كانت الأقدم ، ثم بعد مراحل من التطور أخذ هيئة الانسان وإن ظل محتفظاً برأس الصقر ، ويظن أن أتباعه هم أول من ربط الملكية بالألوهية ، فاعتبروا الملك ولدا له يحكم باسمه على الارض[٩] .

● الاله ( ست ) : إله الاقليم الجنوبى ، وهو أيضاً من أصل طوطمى يتضح فى رسومه البدائية الأكثر عتاقة من غيرها ، حتى حار المؤرخون فى تفسير شكله مابين « .. الكلب السلوقى .. أو الخنزير البرى أو حمار مرسوم رسماً تخطيطاً »[١٠] وكان في الأصل إلها لإقليم نبت ( أومبو Ombos ) إلاأنه أختفى تقريباً بعد الوحدة الأولى وسيادة ( حور ) .

وفى عهد التوحيد الثانى ظهر ( آتوم ) إلها لإقليم الشمال ، وفى عهد التوحيد الثالث عقد بينه وبين حور وحدة اندماجية ، وكان ذلك كما سبق وأشرنا ، أول تفاعل واضح بين العمل السياسى والفكر الدينى ، ومن ثم « أضيف لقب ابن رع ، إلى لائحة ألقاب الفرعون الرسمية »[١١] .

ومن المعلوم أن آتوم رع هو أول إله يظهر فى صورة بشرية خالصة من شوائب الطوطمية ، بل يغالى ( أدولف إرمان Erman ) فيقول : إنه لم يعثر له على أية صورة من أى شكل حتى فى معبده الاكبر ، فى مدينته المقدسة ( أون ) ، مما يعنى أنه كان إلها حديثا بالنسبة للمجموعة الإلهية التى سبقته .

و ( آتوم ) المندمج مع ( رع ) المندمج مع ( حور ) شكل ثالوثا قدسيا ( أتوم رع حور ) الذى هو فى الوقت نفسه إلها واحدا ، ونظن أنه أقدم الثواليت الكبرى .

المهم أنه قد توارت آلهة المدن المحلية وانزوت فى معابد صغيرة متناثرة بطول الوادى ، بعد أن أصبحت غير كافية لتفسير الكون والوجود على

صورة يقبلها الجميع فى الدولة الكبرى ، وإن ظلت تقوم بدورها فى حماية المدن الصغيرة ، وكملجأ قريب المنال لحل المشاكل الشخصية ، أى قامت بالدور الذى يقوم به الأولياء حاليا فى كافة قرى مصر ، أولئك الأولياء الذين نظنهم امتداد واضح للإله الشخصى وإله المدينة الحامى والأقرب إلى الناس من الإله الكونى البعيد . كما أن هذه الآلهة المحلية ظلت طوال العهود الفرعونية متحفزة لاقتناص أى فرصة ضعف تبدو على الآلهة الكبار ، لتخرج من حيزها الضيق إلى المساحة الرسمية الأرحب .

لذا لم يكن غريبا أن يبتدع المفكرون المحيطون بالاله الكبرى ، فلسفة تلائم مسؤوليات هذه الآلهة وحجمها ، تبحث عن سر التكوين والخلق ، لتفسير الوجود وأصله ، وجعلوا عناصرها من الآلهة السائدة ، بعد أن تحولت إلى آلهة كونية ، ولاعجب فى ذلك فقد علقت قلوب المصريين وأخيلتهم بطبيعة بلادهم ، فرأوا فى الشمس والأرض والسماء والهواء آلهة أساسية ، فتركوا لنا عدة تصورات للتركيب الكونى ، كان أشيعها تصور السماء على هيئة إمرأة منحنية على الأرض ، أو بقرة ذات جلد تغشاه النجوم ، أسموها ( حت حور ) ، وكانت ( حت حور ) بطلة لأسطورة قديمة تقول ان الإله ( رع ) أطلقها على البشر العصاة ، ففتكت بهم فتكا ذريعا ، لكنه عاد فندم على ما فعل وأوقف المذبحة »[١٢]

وكان لكهنة ( أون ) السبق فى عملية التفسير الكونى ، بعد أن عقدوا الصلة بين إلههم ( آتوم ) وبين الشمس ( رع ) ، فأضفوا عليه صفة كونية ليصبح ( آتوم رع ) ، ورغم أن ( منف ) وإلهها ( فتاح ) قد سبقت ( أون ) إلى التفوق السياسى ، فأصبحت عاصمة البلاد ابان حكم الأسرة الأولى فى الدولة القديمة ، فإن ( أون ) تعد عند الباحثين المدينة المقدسة الأولى ، ذات الشهرة الفكرية التى لاتضارع[١٣] ، ويؤكد ( عبد الحميد زايد ) أنه « مامن شك أن أصحاب رع كانوا

يبشرون بدينهم منذ مطلع التاريخ المصرى » حتى استطاعوا فى الاسرة الخامسة « .. أن يصلوا الى العرش وأصبح مذهبهم ديناً رسمياً للدولة ، فرض على الشعب فرضاً »(١٤) ، لذلك كان أثر ( أون ) أكبر من أثر ( منف ) فأصبحت قلب مصر الروحى ، وساد إلهها ، واجتذب آلهة منف إلى بوتقته ومداره(١٥) ، « .. وظل رع يعتبر إلها يحكم ويسود كإله للدولة فى مختلف العصور ، إلا إذا استثنينا فترات قصيرة »(١٦)

وينسب ( عبد العزيز صالح ) لمدينة ( أون ) المقدسة ، فلاسفة مبرزين كانوا أصحاب أقدم مذهب فلسفى دينى ، أو أصحاب **أقدم سفر للتكوين** ، يفسر الوجود ونشأته ، حتى أصبحت أقوى المدن الفكرية فى العالم القديم(١٧) وكعبة لطالبى العلم من جميع أنحاء العالم ، وبالذات فلاسفة اليونان(١٨) كما أصبح هؤلاء المفكرون أصحاب الفضل فيما عرفناه عن مصر القديمة بعد تطويرهم أساليب الكتابة ، وتسجيلهم معارفهم وعلومهم داخل الأهرام العتيدة .

وان أهم مايمكن اعتباره لهؤلاء المفكرين ، هو نظريتهم فى الوجود ، والتى يمكن صياغتها — مع قليل من الترتيب والتنظيم — فى التلخيص التالى :

**سفر التكوين الأونــى**

فى البدء كان ( نون Noun )
وجوداً وحيدا فى الكون
وكان ( نون ) محيطاً أزليا مظلما
ومنه خرج إله الشمس
( رع آتوم ) أو
( الكامل المتكامل )(١٦)
بقدرته الذاتية دون معين
لأنه كان « .. هو كل شيىء فى الوجود »(٢٠)

وأختار مدينة ( اون )
فجعلها مركزاً للخليفة كلها !
وعلى تل فى أون
أوجد العالم من نفسه وذاته[٢١]
فتكلم بأسماء أعضاء جسده

فتشكلت منها الآلهة :
شو Chou إله الهواء
وتفنوت إلهة الندى والرطوبة
وبأمر آتوم التقى شو وتفنوت
فأنجبا geheb جب إله الارض
ثم قام ( شو ) بعمل عظيم
ففتق الأرض قسمين عظيمين
بعد أن كانت رتقاً[٢٢]
ورفع القسم الأعلى سماء
أصبحت هى الإلهة نوت
ثم تزاوج نوت وجب
لينجبا أربعة من الأبناء
اثنان ذكور هما ( أوزير ) و ( ست )
واثنتان من الاناث هما ( إيزى ) و ( نفتيس ) .
رعيلا أول يجمع بين الالوهية والبشرية
كانت مهمتهم الكبرى التى قدرها لهم أبوهم رع آتوم
هى تعمير الأرض بالبشرية[٢٣]

والوسيلـــة :
أن يتزوج أوزير من أخته إيزى
وأن يتزوج ست من أخته نفتيس
لينجبوا كل الخلق

الذين هم أشباه له
صدورا عن بدنه(٢٤)

ولو حاولنا صياغة هذه النظرية على الأسلوب الفلسفى اليونانى ، وخلصناها من أسماء الآلهة ، مع قراءة مقاصد أصحابها ، يمكن أن تصبح على الشكل التالى :

فى البدء كان هناك موجود واحد هو الماء ، ولم يكن ماء عاديا بل محيطا عظيما قديما أزليا ، بلا بداية ، وبلا حدود فى الزمان ، فهو أصل الوجود والحياة ، وهو مادة التكوين الأولى ، ومن هذا الماء خرج الإله للوجود بذاته وبقدرته وحده ، فلا موجد له إلا ذاته ، ولما كان هذا الإله مع الماء أصلا بشكل ما ، فى الأزل ، فمن البديهى أن يكون بدوره أزليا أزلية هذا الماء ولما لم يكن فى الوجود موجودا ظاهر القوة كالشمس ، إذن لاريب أن الشمس هى ذات عين هذا الاله ، وبذا أصبح العالم الأول عنصرين أساسيين : عنصر أول هو الماء ، وعنصر ثان خرج منه وهو النار ، وإن هذا انما يعنى ائتلاف النقائض فى كينونة الوجود الأولى ، ائتلافاً لاتستطيعه إلا قدرة قادرة على جمع النقائض ، لأنها تضم فى ذاتها هذه النقائض : الماء والنار ، لذلك حمل الوجود المتشكل منهما هذه الصفة ، فجاء جامعاً الليل مع النهار ، والسلام مع الدمار ، والخير مع الشر .

ومن هذه الذات الإلهية جاء فيضاً وصدوراً عنصران جديدان هما : الهواء والندى ، وكلاهما لازم لوجود الكون وحياة الكائنات ، فهو تدبير لغاية ، غايتها توفير سبل الحياة ، وامكانات استمرار الموجودات . وبإرادة هذه الذات الأولى « التقى الهواء والبخار ، ليتكاثفا وليكونا معاً عنصرا رابعا هو التراب ، وحتى يكتمل الوجود بصورة سوية فقد تسلل الهواء بين طبقات التراب ، فأحاله طبقتين منفصلتين حمل أحدهما إلى الأعالى وكونها العماد الخامس من أعمدة الوجود المنظورة ، هو السماء .

والى هنا تنتهى قصة التكوين الكونى فى سفر التكوين الأونى ، لتبدا فى إطارها قصة التكوين الكائنية ، ممثلة بعدد آخر من الالهة ، ليسوا بالالهة الكونية ، إنما هم آلهة بشرية ، تصورهم مفكروا ( أون ) أربعة من الإلهة البشر ، هم : أوزير وإيزى ، وست ونفتيس ، نشاوا نتيجة طبيعية خالصة للتفاعل بين عناصر الكون ، السماء بمطرها ورياحها وحرارتها وظواهرها المختلفة ، والأرض وترابها ومياهها وإمكانات الحياة فيها ، وأصبحت مهمة هؤلاء إنجاب الذرية البشرية لتعمير الارض بالإنسانية . وحتى تكتمل فلسفة ( أون ) لم يفتها وضع تفسير لوجود الكائنات الأخرى غير الانسانية ، فجعلت ( أوزير ) أحد الاخوة الاربعة رمزا للنيل ، ولما كان المصريون يرون فى النيل سر الحياة لكل الموجودات ، نباتاً أو حيواناً أو انساناً ، فقد أصبح ( أوزير ) تفسيرا سهلا لوجود هذه الموجودات .

وبذلك الفت هذه المجموعة الالهية ، الكونية والكائنية ، تسعا من العناصر ، أطلق عليه الكهان ( تاسوع أون ) ، أو ما نضع له اصطلاحا ( المجمع القدسى ) . ذلك المجمع الذى زعم الكهان أن أعضاءه كانوا حكاماً لمصر فى أزمتها الأولى ، وأن ( رع ) كان زعيمه الأول ، باعتباره كان الأب لكل اعضائه ، وأن ( أوزير ) كان أهم هؤلاء الأعضاء ، فقد اختص باشهر وأقوى أسطورة مصرية ، كان لها فى الديانة تأثيرات كبرى وخطيرة ، أخطرها أنه أصبح إله الحساب فى العالم الآخر كما سنرى ، ولا يوجد مصدر أو مرجع تناول اى جانب من جوانب الحضارة المصرية القديمة إلا ولأوزير فيه مكان ومكانة ، فقد ظلت أسطورته تسيطر على الأفهام طوال العصور الفرعونية ” .. حتى عبرت البحر فوصلت إلى بلاد اليونان “(٢٥) لتصبح محل ايمان ” .. فى أوربا بما يزيد على الفى عام “(٢٦) .

لذلك يحسن بنا الوقوف مع هذه الأسطورة ، فنلاحظ أنها لم تتكون دفعة واحدة ، إنما ” .. استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ،

ما يوائم تصورات عهده ، وما يزيد من تأثيرها فى أذهان محبيها ''(٢٧) ، لذلك '' .. فإن الفكرة التى تكونت عن أوزيريس فى مصر ، قد تباينت وفاقا للزمان ، ووفاقا للمكان احيانا ''(٢٨) ، ويؤكد الآثاريون أنها '' .. لم تكن فى أى مكان موضوع عرض مستفيض فى نقوش المعابد والمقابر ، لكنها كانت مقصد تلميحات عديدة فيها ، يمكن منها استخلاص الأسطورة بأجمعها ، ويمكن عمل مؤلفة من هذه التلميحات ، بفضل العرض المتصل الذى تركه بلوتارخوس ( بلوتارك ) :. وهذه الإشارات يحويها على الأخص كتاب الاهرام .. ''(٢٩) . وعلى سنة هؤلاء الآثاريين سنسير ، فنصطفى أهم أحداث الأسطورة المتناثرة بين المصادر والمراجع المختلفة ، ثم نعيد تركيبها فى مجمل يلخصها كالتالى :

أن '' .. أوزير .. الإبن البكر لإله الأرض جب ، وإلهة السماء نوت '' هو رمز الخير فى الأسطورة ، عندما '' تزوج ايزيس ، وأصبحا زوجا مقدساً يحكمون مصر .. لم تك مصر دولة متحضرة .. وكان الأهالى صيادين رحل ، لا يعرفون شيئاً عن القراءة والكتابة ، وليس لهم حكومات مستقرة ، علمهم أوزيريس فنون الزراعة والكتابة ، وساعدهم ليحيوا حياة منظمة متحضرة ، وشاركته زوجته إيزيس فى أعماله ''(٣١) .

ويروى ( بلوتارك ) : أن أخاه ( ست ) — ويرمز للشر — حقد عليه وحسده على حب الشعب له ، فقرر قتله ، وأخذ سراً قياس جسم ( أوزير ) ، وصنع طبقاً له صندوقاً جميلا ، فاخر الزينة والزخرف وأحضره إلى مأدبة أقامها لتنفيذ خطته الشريرة ، وعندما أعجب الجميع بحسن صنعة الصندوق ، وعد ست — مازحاً — أن يهديه لمن يملاه بجسمه فأخذ الجميع يحاولون ، ولما جاء دور ( أوزير ) أسرع ست وعصابته بإغلاق الصندوق عليه بالمسامير ، والرصاص المصهور والقوه فى النيل ، فمات ( أوزير ) بينما نادى ( ست ) بنفسه حاكما على مصر .

وحزنت حبيبته ( إيزى ) أو ( إيزيس ) ، وصارت تضرب فى الأرض بحثاً عنه ، بصحبة ( أنوبيس ) الإبن غير الشرعى لأوزير من أخته الثانية ( نفتيس ) ، حتى عثرت عليه بعد أن القى البحر به على شاطىء ( بيبلوس ) الكنعانية ، وعادت به إلى مصر نائحة حزينة ، وأخفته ريثما تعد طقوس الدفن ، فعثر عليه ( ست ) مرة أخرى ، فجن جنونه ، ومزقه إربا ونثر أشلائه فى أرض مصر كلها ، كأن رمى بفقرياته فى ( أبى صير ) بالدلتا ورأسه فى ( أبيدوس ) ، وعضوه التناسلى فى النيل ، حيث ابتلعته سمكة ( القنومة Oxythnque )(٣٢) .

وعادت الحبيبة المخلصة ـــ مرة أخرى ـــ تجمع اللحم والعظم الممزق ثم جلست تبكى على جسده الطاهر ، وتستعطف الآلهة ، فحزنت الآلهة ورقت لحالها ، فقامت أمه ( نوت ) بإحياء رميم عظامه ، فقام من بين الأموات ، وساعتها حملت منه ـــ وهى بعد عذراء ـــ بوحيدها ( حور ) ، ثم رفعت الآلهة ( أوزير ) من بين الموتى إلى السماء جسدا حياً ، ليصبح إلها لمملكة الغرب ـــ مملكة الموتى ـــ تعويضاً له عما لحقه فى الدنيا من أذى .

ولما كبر ( حور ) قرر الثأر لأبيه ، واسترداد عرشه المغتصب ، لكن ( ست ) تنكر فى هيئة خنزير أسود ، وهاجم حور واقتلع إحدى عينيه فقدمها لأبيه تضحية وعرفا بالوالدية ، نظراً لأن ( ست ) كان قد طعن فى شرف العذراء ، وشكك فى شرعية بنوه ( حور ) لأوزير أمام المحكمة الإلهية التى انعقدت لهذا الغرض ، وتكونت من الآلهة الكونية الخمسة ، وهناك دفعت إيزى ادعاء ( ست ) وتشكيكه فى عذريتها يقولها : " أنا إيزى ، ربة الشهرة والقداسة ، وأن من هو فى أحشائى ، هو غرس أوزير حقاً "(٣٤) ، وأيدها الكامل ( آتوم رع ) بإعلانه : " لقد حملت وهى فتاة ، وهو غرس أوزير فعلا "(٣٥) ، وبعد مداولات ، أعلنت الالهه قرارها قائلة : " إعهدوا بمنصب أوزيريس لابنه حوريس ، ولا ترتكبوا ظلماً كبيرا ، وإلا فإنى سأغضب ، وتسقط السماء على الارض "(٣٦) .

وبموجب حكم المحكمة الإلهية ، أصبح أوزير يعرف بأنه " .. رب أصحاب اليمين "(٣٧) ، بينما أصبحت العذراء الطاهرة ( إيزى ) تعرف باسم « الأم المقدسة »(٣٨) ، بعد أن تأكد أن حملها بولدها كان من الروح القدس « .. روح أبيه »(٣٩) الإله ، بطريقة إعجازية ليكوّن ذلك ثالوثاً مقدساً ، يشكل أضلاعه : **أب وابن وروح قدس** ، ومن ثم خضع ( ست ) لقضاء الآلهه الاونية ، بل واعترف بحور حاكماً على البلاد ، ووضع على رأسه التاج المقدس ، واعتلى عرش مصر من نسب شريف ، يعود شرفه إلى بنوته لسيد الشهداء ( أوزير ) ، وعليه فقد أصبحت سلالة نسله من ملوك مصر ، سلالة من الآلهة المقدسة(٤٠) .

ومع بداية العصر المتوسط الأول ـــ عصر الثورة الأولى ـــ أصبحت مأساة ( أوزير ) وآلامه ، تمثل كل عام ، على مسارح العبادة فى مدينتة المقدسة ( أبيدوس ) ، حيث دفن رأسه ، تمثل استشهاده وموته وقيامته من بين الأموات ، **فى عيد للقيامة مجيد** ، وأصبحت ( أبيدوس ) لعبيده مكاناً طهوراً مقدساً ، وقبله يحج إليها الناس تبركا بالشهيد ، حتى اطلق عليها لسان العصر " .. أبا تون أى الحرم "(٤١) .

وأصبح الجميع يتمنى أن يدفن عند موته إلى جوار قبر " .. الحبيب الشهيد "(٤٢) ، حيث أقيمت للسيدة العذراء تماثيل عدة ، وهى تحمل وليدها الإلهى لتعطيه ثديها(٤٣) ، وبلغت قدسية ( أبيدوس ) حدا حرم معه تحريما باتا على أى إنسان " .. أن يقرع الطبول ، أو يغنى على صوت الجنك ، أو الناى "(٤٤) ولانها الحرم ، فقد حرم بها " .. صيد الطيور والأسماك "(٤٥) ، ويوم الاحتفال بالقيامة المجيدة ، كان « لا يجوز لأحد أن يجاهر فيه بصوته »(٤٦) .

هذه بايجاز أهم ابداعات المدرسة الأونية ، والتى تعد أقدم أسفار التكوين ، لكنها لم تكن الفلسفة الوحيدة للوجود آنها ، فكانت هناك مدرسة الاله ( فتاح ) ، التى بلغت شأوا عظيما ، قبل أن يسقط إلهها

فى صراعه مع ( رع ) فى نهاية الاسرة الرابعة ، وللفتاح فكر وفلسفة لها أهميتها وثقلها ، وأثرها الذى لا يصح أن يتغاضاه البحث النزيه ، وكانت صاحبة دور لا يمكن إغفاله فى تعميق الرؤية الفلسفية للوجود وتطويرها ، تطويراً كان له مداه البعيد وأثره فى فلسفات الأمم المجاورة ، و ( بتاح او ( فتّاح ) ، يحمل فى رأى الثقات معنى « الفتح »(٤٧) و « الصانع أو الفتّاح او الخلاق »(٤٨) وذات الكلمة تحمل نفس النطق بنفس المعنى فى اللغات السامية ، وبالطبع فى اللغة العربية .

وكان دخول الفتاح إلى مجال التفلسف ، يعود الى رغبة أتباعه فى كفالة زعامة الفكر والدين لمدينتهم ( منف ) ، تدعيماً لزعامتها السياسية ويقول ( عبد العزيز صالح ) : « .. فأدلوا بسهمهم فى تفسير وتعديل المذهب القديم ، الذى نادت به عين شمس ( أون ) المجاورة لمدينتهم .. ثم خرجوا على الناس بمذهب جديد ، يصطبغ بالمعنوية أكثر مما يصطبغ بالمادية ردوا فيه خلق الوجود وما احتواه ، إلى قدرة عاقلة مدبرة أمرة ، وتمثلوا هذه القدرة فى معبود هم ( بتاح ) نفسه ، وأكدوا أنه أوجد نفسه بنفسه ، وأنه أبدع الكون ومعبوداته وناسه وحيوانه وديدانه ، عن قصد منه ورغبة "(٤٩) وذلك بفكرة « فكر فيها القلب ، ونطق بها اللسان »(٥٠) ، فكان سبيله إلى الخلق هو الفكر والكلمة ، أو بتعبير ( صالح ) بـ « .. فكرة تدبرها قلبه أو عقله وأصدرها لسانه ، فكان من أمر الخلق ما كان »(٥١) ويعطينا ( ستانلى كوك ) أساس ذلك ، باعتبار « .. أن كل الاشياء كانت فى علم الخلق بتاح ، قبل أن يخلقها »(٥٢) ، وبعد أن خلق الكون وكائناته ، من عناء عمله ، على عرشه « .. استراح »(٥٣) .

بهذه النظرية ، التى طرحتها تصورات المدرسة المنفية فى نصوص — أغلبها — فى رأى الباحثين " .. مصطلحات فلسفية "(٥٩) ، استطاع الفتاح أن يثرى الفكر المصرى ، من حيث تأكيده ، على سبق الفكر للوجود ، أو الماهية للوجود ، رغم أن الأيام مالت عن الفتاح

مبكرا ، بينما ظل ( رع ) قويا حتى قيام الدولة الوسطى ، ويزغ إله محلى هو ( آمن ) الذى دعم مركزه بالاندماج فى ( رع ) القوى ، ليصبح ( آمن رع ) إله الدولة الرسمى حتى نهاية العصور الفرعونية .

ويقول ( لولين جريفث ) إن ( آمن ) كان " إله محلى .. مغمور الشأن ، خامل الذكر ، فى طيبة ، فى عهد الدولة القديمة ، ثم علا شأنه وكبرت مكانته مع قيام الأسرة الثانية عشر ، فإذا به يصبح من فوره ( آمون رع ) ويصبح له معبد عظيم ، فلما كان عهد الأمبراطورية ، دان القوم لأمون رع رب الحاضرة الملكية ، واعتبروه ، نصير الجيوش الفرعونية ، وواهب الظفر والغلبة .. حتى غطى .. على سائر الارباب فى مصر "(٥٥) ، ويضيف ( محمد أنور شكرى ) أنه قد " .. أسبغ عليه كهنتة ، ما كان يتصل بالإله رع من عقائد وتصورات "(٥٦) ويقول ( ارمان ) أنه قد أصبح ما " كان .. يحكى عن اله الشمس من أساطير ، ينسب كذلك إلى آمون فهو قام بمحاكمة حوريس وست .. بوصفه رئيس التاسوع الاكبر "(٥٧) وبهذا المعنى ظل ( رع ) هو صاحب السيادة الرسمية حتى نهاية العصور الفرعونية ، لكن باسم ( آمن رع ) .

وتشرح لنا ( اليزابيث رايفشتال ) و ( رودلف آنتس ) معنى الإسم ( آمن ) بأنه " .. الواحد الخفى "(٥٨) ، الذى لا تدركه الأبصار متنزه عن الكثرة والتحديد بالإحاطة ، وإن كان فى عصور مصر المتأخرة ، قد أخذوا بتصويره فى الأشكال والنقوش .

" وثمة ترنيمة بديعة تستوقف النظر ، فى التسبيح بحمد آمون رع .. على أنه فى جوهرة الشمس .. وحورس الأكبر ، وخنومو بارىء الخلق ، وبتاح إله منف الصانع المتقن ، منها ..

أيها الموجد
— الذى لا موجد له

أيها الواحد
الأحد .
الذى يطوى الأبد
أنت الأم البارة
بالآلهة والبشر
الصانع الدؤوب الخالد ..
والراعى ذو القوة والبأس ..
سبحانك ياباریء البرايا كافة
أنت واحد
سبحانك
لكن أياديك كثيرة
يا من لا تأخذه سنة
طوال الليل ، والناس رقود
البار برعيته
يتحرى لهم الخير(٥٩) .

وفى لوحة تذكارية ، كتب ( نب رع ) رسام ( آمن ) ، لأجل ( نخت آمن ) الذى رقد مريضاً مشرفاً على الموت بسبب خطيته :

رغم أن العبد اعتاد ارتكاب الخطيئة
فان الرب من شأنه الرحمة
لان رب طيبة لا يصرف كل يومه غاضبا
فاذا غضب
فان ذلك الغضب لا يدوم طويلا
بل يلتفت الينا فى شفقة(٦٠)

وهنا لا يفوتنا أن نقف ـــ وقفة قصيرة ـــ مع إله آخر ، ظهر إبان صولة ( آمون رع ) وسلطانه ، هو ( آتون ) ، لما يوليه الباحثون من

اهتمام بالغ وهو إله الفرعون ( اخناتون ) ، وقد كان قصير الأجل ، ظهر لينطفىء سريعاً وعد أهل مصر فترة سيادته ، فترة زندقة ومروق ، وقد بدأ بالظهور الرسمى مع هجرة ( إخناتون ) من مدينة أجداده ( واست ) ، إلى عاصمة جديدة شيدها خصيصاً لآتون هى ( اخيتاتون ) . ورغم ما أثير من ضجيج حول هذا الإله ، فإنه بمنظار البحث المتأنى ، لم يضف جديدا إلى فلسفة ( رع ) أو ( آمون رع ) ، سوى أنه كان فى نظر أتباعه إلها وحيدا دون أتباع فى مجمع قدسى ، منزها عن الشريك والضد ، أو بتعبير برستد : منفردا بوحدانية مطلقة(٦١) ، مع صبغة عالمية ، نتجت تلقائيا عن تحول مصر إلى إمبراطورية كبرى شملت مصر وغيرها ، بعد أن جذبت الامبراطورية إلى فلكها أركان المعمورة المعروفة أنها ، فأصبح ( آتون ) إلها للامبراطورية كلها .

لكن ما لا يجب أن بفوت الفكر هنا ، هو أن ( آتون ) لم يكن فى حقيقته سوى إله الشمس ( رع ) الأولى ، وكل ما فى الأمر أن ( إخناتون ) جرده من الآلهة المتلبسة به ، واستبدل بالإسم ( رع ) الإسم ( آتون ) . وعلى أية حال فإن ( إخناتون ) لم يجن من توحيده المطلق ، وتصوفه الذى اشتهر بسببه ، سوى الخراب والدمار له ولدولته وأمته ، التى اخذت فى الانهيار ، لتضيع منها إمبرطوريتها ، وينفصل أتباعها عنها ، بل ويتطاولون على حدودها .

ومن الجدير بالذكر أن كل الآلهة التى تبعت ( رع ) سيد المجمع القدسى قد أخذت عنه فكرة التثليث والتتسيع ، عدا ( اتون ) ، فقد " .. انتشرت فكرة التثليث بين المعبودات على توالى الزمن ، وأصبح لكل مكان بالقطر تثليث ثانوى مقدس ركب منه بعد ذلك تتسيع على الطريقة المعروفة انفا "(٦٢)فأصبح للإله بتاح زوجة هى ( سخمت ) ، وابن هو ( نفرتم ) ، ولآمون زوجة هى ، ( موت ) وابن هو ( ختسو ) ، بينما شكل ( خنوم ) **صانع البشر من صلصال**

**كالفخار** ، عدة تواليث اهمها " .. فى إسنا مع ست ونيث Neith ، وفى الفنتين مع إلهتى الشلال عنقت Aneukis وست(٦٣)

وتأسيسا على كل ما أوردنا ، يتضح أن فكرة التوحيد المطلق لم تكن سوى حالة عارضة واستثنائية فى تاريخ مصر القديمة ، إلا اذا اعتبرنا سيادة ( رع ) وامتزاجه بالآلهة المتسيدة بعده مثل ( آمن ) والتى حملت اسمه وصفاته ، هو نوع ابتدائى من التوحيد ، وهو تفسير نجد له صدى عند العقاد بقوله : " .. وبقيت أسماء الإله الواحد متعددة ، على حسب التعدد فى مظاهر التجلى المتعددة لذلك الإله "(٦٤) ، ثم يعدد أسماء الآلهة التى اندمجت فى رع ، لكنه لا يعتبر ذلك تعدداً مدمج إنما هو فى زعمه من « مظاهر التجلى المتعددة للإله الواحد " ، وهو رأى فيه مفارقة واضحة مع الواقع التاريخى ، فأصبحت المسألة عنده تشبه ما عليه عقائد الناس اليوم ، حيث تؤمن كل جماعة بإله تزعمه إلها لكل الجماعات الأخرى ، فهو نفس الاله .

ولذا فأننا نميل إلى آراء أكثر قربا من منطق الأمور وواقعها ، مثل رأى كل من ( إيمار ) و ( إبوابه ) ، حيث يقولان : أنه قد .. حدث ولاسيما لاسباب سياسية ، أن قاربوا التوحيد ، وإن لم يتوصلوا إليه بالفعل أحيانا وقد حصل ذلك فى حالة حصوله مكراً وخداعا ، باخضاع آلهة أخرين لإله محلى ، جعل لهذه الغاية أعلى منهم شأناً وسلطاناً ، .. فمن الجلى أن تعدد الآلهة كان أمراً اساسياً ، ولم ترض عنه غالبية المؤمنين بديلا(٦٥) لذلك يحذر كل من ( دريتون ) و ( فانديبه ) من " .. أنه لا يجب أن نعتقد بأن عبادة الأسرة الخامسة للشمس كانت شاملة مانعة .. ففى معابد رع ذاتها ما يشهد بعبادة حور .. وحت حور .. إذ أنه لا التوحيد Yonothaisme ولا رئاسة إله على آخر Heretheisme قد استطاعا البقاء فى مصر قط ، كدين للدولة .."(٦٦)

وان كان هذا لا يعنى أبدا التقليل من شأن ما تركه فكر مصر الدينى فهناك على الأقل أقدم أسفار التكوين لتفسير الوجود ، فى المدرستين الأونية والمنفية ، اللتان تمتعتا بشهرة واسعة طغت على قصص أخرى لم تصمد أمام المدرستين المدعومتين بالقوة السياسية .

وقد كانت شهرة هذه الفلسفات المصرية مدعاة للباحثين من أجل معرفة دورها فى تطوير الفكر فى حوض المتوسط ، وهل كان لها دور فاعل ومؤثر فى فلسفة وعقائد الأمم المجاورة ، فقد راود هذا الاحتمال فكر كثير من المفكرين ، بل وحدث ذلك منذ وقت مبكر ، حيث أكد المؤرخ ( ديوجين لاريتو Digenes Laertu ق ٢ م ) أن الشرقيين وبخاصة المصريين هم أول من تفلسف(٦٧) ، وهو رأى ( فليون ) ، وكذلك ( كليمنت Clement ) السكندرى(٦٨) .

ورغم أن الحذر العلمى يستوجب القول : أن تأثير المصريين فى الفلسفة اليونانية لم يزل أمراً حائراً بين النفى والإثبات ، فان هذا الحذر ذاته يستوجب التأكيد على " .. أن الكلام عن معجزة يونانية ليس من العلم فى شيىء ، فالقول أن اليونانيين قد أبدعوا فجأة ، ودون سوابق أو مؤثرات خارجية ، حضارة عبقرية فى مختلف الميادين ، هو قول يتناقى مع المبادىء العلمية ، التى تؤكد اتصال الحضارات وتأثيرها بعض ببعض ، على حين أن لفظ المعجزة يبدو فى ظاهره تفسيراً لظاهرة الانبثاق المفاجىء للحضارة اليونانية ، فانه فى واقع الامر ليس تفسيراً لأى شيىء ، بل انه تعبير غير مباشر عن العجز عن التفسير "

ويؤكد ( فؤاد زكريا ) ، " ان عوامل الاتصال بين اليونانيين والشرقيين القدماء ، كانت أقوى مما كنا نتصور ، وكل كشف تاريخى جديد يؤكد بشكل متزايد ، أن اليونانيين كانوا مدينين بكثير للسابقين عليهم من الشرقيين ، لاسيما وأن الاتصالات بين هاتين المنطقتين لم تنقطع لحظة واحدة "

إلا أن " المشكلة الكبرى فى هذا الصدد ، هى أن الادلة المباشرة على الاتصال العلمى ، فقدت "(٦٩) .

ومن هنا سنحاول باللمس الخفيف ، التدليل على سبق المصريين فى الوصول إلى أهم المبادىء التى أعتبر اليونان بسببها أول المتفلسفين ، فعلى الصعيد الفلسفي انتهت محاولات الفيلسوف اليونانى ( طاليس ) فى بحثه عن المادة الأولى للعالم إلى اعتبار الماء هو هذه المادة الأولى ، وقد اعتبره ( ارسطو طاليس ) أول المتفلسفين لهذا السبب بالذات ، وهو ما وصل إليه المصريون قبل ذلك بقرون طويلة ، عندما أكدوا أنه " فى البدء لم يكن فى الوجود سوى نون ، وكان نون محيطاً أزلياً مظلماً " ، وكان غريباً على الباحثين ألا يلاحظوا ، أن الشخص الذى أعترفوا به كأول من أدخل الهندسة لليونان منقولة عن المصريين هو ذات الشخص الذى تفلسف بأعتباره الماء مبدأ أول للاشياء حتى أن ( أرسطو ) اقترح أن يكون ( طاليس ) قد تأثر فى ذلك بالأساطير المصرية عن التكوين ، وكان ينصح تلاميذه دائماً : " .. انه من الخير ان نستأنس برأى الذين تقحموا البحث فى الوجود وفلسفوه قبلنا " ، بل ويعترف أن المصريين قد وصلوا إلى البحث النظرى المجرد ، وهو مقياس التفلسف عنده(٧٠)

ومن هنا أكد ( حسام الألوس ) إنه " ... من تحليل طبيعة الميتافيزيقيا اليونانية — وهى جوهر الفلسفة عند اليونان — يمكن القول إنها لم تكن إلا صياغة جديدة ، بألفاظ ومصطلحات ظاهرة العقلانية والعلمية ، للموضوعات الميثولوجية نفسها ، التي كانت سابقة على ظهور الميثافيزيقيا اليونانية " ، ثم يذكر لنا عدداً من الباحثين الثقاة الذين ذهبوا إلى تأثر اليونان بالفكر الشرقى وخاصة مصر القديمة امثال ( رى ، وأ . ب . الكسندر ، وديورانت ، وميلهود وسارتون "(٧١) . بينما يلخص لنا ( جاردنر ) هذا الاتجاه بعبارة حاسمة واضحة تقول : « **إن فلاسفة اليونان الأوائل مثل طاليس ، قد قبعوا كتلاميذ عند أقدام الكهنة المصريين** »(٧٢) . كما يذهب اخرون

إلى التاكيد صراحة أن ( سولون ) و ( أفلاطون ) بوجه خاص ، قد تتلمذوا فعلا وبشكل مباشر على جامعة عين شمس ( أون ) ، وإنهم من طلائع طلابها(٧٣) .

وقد اعترف ( أفلاطون ) ''.. بفضل الحضارة الفرعونية على العلم والفكر اليونانى ، **وأكد ان اليونانيين انما هم اطفال بالقياس الى تلك الحضارة القديمة** العظيمة '' هذا عدا كثير من الروايات التاريخية التى ''.. تحكى عن اتصال كبار فلاسفة اليونانيين وعلمائهم بالمصريين القدماء ، وسفرهم إلى مصر وإقامتهم فيها طويلا لتلقى العلم ''(٧٤) .

وغنى عن الإيضاح أن تصورات ( أفلاطون ) عما أسماه ( عالم المثل ) لا تخرج عن التصورات المصرية القديمة لعالمها الآخر وهو ما سنفصل فيه القول فى الفصول القادمة ، كذلك لم يكن كلام ( هراقيطس ) ـــ عن قيام جوهر التكوين على تناقض التركيب ـــ كلاما جديدا فى تاريخ الإنسانية فهو الكلام ذاته الذى اكدته المدرسة الأونية ، عندما اعتبرت أصل الوجود من أزليين هما الماء ( نون ) والنار ( رع ) . وإذا كان الرواقيون اليونانيون قد أخدوا ( اللوجوس Logos ) الهيراقليطى ، واعتبروه كلمة خالقة سرت فى الكون كنفحة قدسية منحته الوجود ، فقد كانت المدرسة الفرعونية المنفية صاحبة هذا الاتجاه قبلهم ، بل ويمكن اعتبار الآلهة التسع فى المجمع القدسى ، إضافة إلى ( حور ) بن ( أوزير ) ، أصلا مباشرا لتلك الفكرة التى نادت بها مدرسة ( إفلوطين ) الأسيوطى الصعيدى(٧٥) صاحب مدرسة الإسكندرية المنسوبة لليونان رغم مصريتها المكانية والفكرية والتى تقول بصدور العالم فيضا عن ذات الله العقل الأول ، على شكل عشرة عقول ، يشرف كل منها على فلك كونى ، بينما يشرف آخرها أو العقل الفعال على فلكنا الأرضى(٧٦) ، والذى كان فى فلسفة ( أون ) ، هو ( حور ) الملك الذى يشرف على المملكة المصرية ، وكانت مصر هى

كل الدنيا — إبان ذاك — فى التصور القديم ، بينما وجد العالم كله عند ( أون ) فيضا وصدورا على شكل تسع من الالهة .

هذه بأيجاز أوجه واضحة لسبق المصريين إلى ما نعت بعد ذلك أنه فلسفة راقية لدى اليونانيين ، قصدنا بها الإشارة لا البحث المفصل فهو ما يخرج عن نطاق عملنا هذا ، ونتركه لمن يستطع المتابعة من الباحثين ، وكان الهدف هو تقييم فلسفة الفراعنة ، من حيث أصالتها بالقياس لمشابهاتها ، ورداً سريعاً على اتهام المصريين القدماء بالسذاجة والسطحية ، فاذا كانوا سذجاً سطحيين ، فمن الأولى أن يكون اليونان كذلك ؟ أو يكون العكس صحيحاً .

# هوامش

١ – عباس محمود العقاد : الله ، دار المعارف ، طـ ٢ ، ص ٢٦
٢ – برستد : انتصار الحضارة ، ترجمة أحمد فخرى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د .ت ، ص ٥٩ .
٣ – رودلف أنتس : الأساطير فى مصر القديمة ، مجموعة أساطير العالم القديم بإشراف صموئيل نوح كريمر ، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢٩ .
٤ – د . أحمد بدوى : فى موكب الشمس ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، طـ ٢ ، ١٩٥٥ ، ج ١ ، ص ١٢٤
٥ – د . عبد الحميد زايد : من أساطير الشرق الأدنى القديم ، عالم الفكر ، الكويت ، مج ٦ ، ص ٨١٣
٦ – فاروق فريد : سبق ذكره ، ص ٤٥٨
٧ – دريتون وفاندية : سبق ذكره ، ص ٧١
٨ – د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ، طـ ٢ ، ١٩٦٦ ، ص ١٩١ .
٩ – أيمار وإبواية : سبق ذكره ، ص ٩٩ ، ود . عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، سبق ذكره ، ص ٢٤٤ ، وبرستد : كتاب تاريخ مصر .. سبق ذكره ، ص ٧٩ .
١٠ – دريتون وفاندين : سبق ذكره ص ٧٢
١١ – إيمار وإبوايه : سبق ذكره ، ص ٩٤
١٢ – برستد : كتاب تاريخ مصر ، ص ٣٦
١٣ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ص ٦٠ ، وادولف إرمان : ديانة مصر . سبق ذكره ، ص ٣١
١٤ – د . عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، سبق ذكره ، ص ٢٢٤
١٥ – اليزابيث رايفشتال : سبق ذكره ، ص ٢١٢

١٦ – د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٢٠٨
١٧ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٦٠
١٨ – اليزابيث رايفشتال : سبق ذكره ، ص ٧٢
١٩ – الكلمة ( آتوم ) تعنى ماهو تام وكامل كالا كليا مطلقا ، إنظر فى ذلك د . عبد الحميد زايد : الأساطير ، سبق ذكره ، ص ٨١٣
٢٠ – د . عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، سبق ذكره ، ص ٢٢٣
٢١ – هناك رواية أخرى تقول أن الخلق جاء نتيجة عطسه وتفاله أنظر د . زايد : الأساطير .. سبق ذكره ص ٨١٣
٢٢ – د . محمد أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ٩٠
٢٣ – هناك رواية أخرى تقول أن الإله ( خنوم Chonophis ) قد برأ الخلق من صلصال كالفخار
٢٤ – لا يوجد مصدر تناول مصر الفرعونية يخلو من ذكر قصة التكوين الأونية ، ونظرا لتعدد هذه المصادر ، واختلاف طرق عرض القصة تقديما وتأخيرا ، فقد فضلنا من جانبنا صياغتها إعتمادا على أوثق مالدينا من مصادر ، إرجع كمثال إلى برستد : كتاب تاريخ مصر ص ٣٦ ، وإلى د . محمد اسماعيل الندوى : الأساطير الهندية ، تراث الانسانية ، مج ٦ ، القاهرة ، د . ت وإلى د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٦٠ ، وإلى د . محمد أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ٥٠ ، وإلى د . عبد الحميد زايد : من أساطير سبق ذكره ، ص ٨٠٦ : ٨١٥ .
٢٥ – د . عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، سبق ذكره ، ص ٢٤١
٢٦ – رودلف آنتس : سبق ذكره ، ص ٥٤
٢٧ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٣٢٦
٢٨ – إيمار وإيوايه : سبق ذكره ، ص ٩١
٢٩ – دريتون وفانديين : سبق ذكره ، ص ٧٧
٣٠ – نفسه : ص ٧٨
٣١ – Zayed, Abydos, p 39
٣٢ – لايزال مسيحيو مصر حتى اليوم ، يحنطون سمكة القنومة ويعلقونها فى مداخل دورهم ، لطرد الأرواح الشريرة ، وطلبا للخصب والانجاب ، وعلاجا للعقم وخسارة الأولاد
٣٣ – فاروق فريد : سبق ذكره ، ص ٤٥٨
٣٤ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٣٢٩
٣٥ – الموضع نفسه
٣٦ – ادولف إرمان : ديانة مصر .. سبق ذكره ، ص ٩٠
٣٧ – د . أحمد بدوى : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٧٣
٣٨ – الوضع نفسه
٣٩ – نفسه : ص ٧٤
٤٠ – عن التفاصيل الكاملة لأسطورة ( أوزير ) ، مع أجتهادات متعددة ومختلفة فى تفسيرها وعلائقها ، إرجع إلى

lieblein, le mythe d'Osiris dns le Revue de L'Histoire des Religins, ix (1884) pp. 330-349

Moret, Lo possion d'osiris, dns Rois et Dieux d'Egypte, paris, 2926,pp. 77-116

Zoyed, Abydos, pp, 35-36.

أنظر أيضا د . أحمد كمال : بغية الطالبين فى علم وصنائع وعوائد وأقوال قدماء المصريين ، مدرسة الفنون والصنائع الخديوية ، القاهرة ، ١٣٠٩ ، ج ١ ، ص ١٧٧ : ١٨٥ ، ود . عبد الحميد زايد : من أساطير سبق ذكره ، ص ٨١٨ : ٨٣١ . وعن تفاصيل الصراع بين ( حور ) و ( ست ) مع مزيد من التخريجات ، إرجع إلى Gaidiner, The Chester Beatty papyrus, No 1, london, 1931 وإلى دريتون وفانديه ، سبق ذكره ، ص ٤٢٠

٤١ - إرمان : ديانة مصر .. سبق ذكره ، ص ٤٢٠

٤٢ - إرمان : ديانة مصر .. سبق ذكره ، ص ٤٢٢

٤٥ - الموضع نفسه

٤٦ - الموضوع نفسه

٤٧ - د . نجيب مخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٢١١

٤٨ - د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٣٠٤

٤٩ - نفسخ : ص ٨٣

٥٠ - د . محمد أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ٩٢

٥١ - د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٨٥

٥٢ - ستانلى كوك : سبق ذكره ، ص ٦٧٦

٥٣ - د . عبد الحميد زايد : منى أساطير .. سبق ذكره ، ص ٨١٥

٥٤ - نفسه : ص ٨١٤

٥٥ - ف لولين جريفث : الإنقلاب الدينى فى مصر ، ترجمة عبد الحمن صدق ودرينى خشبة ، سلسلة تاريخ العالم ، مكتبة النهضة المصرية ، االقاهرة ، د .ت ، مج ٢ ، ص ٣٣ .

انظر ايضا دريتون وقانديه : سبق ذكره ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، وإيمار وإيوايه : سبق ذكره ، ص ٩٥ ، وردلف آنتس : سبق ذكره ، ص ٣٧ ، ود . محمد أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ٢٠٥

٥٦ - د . محمد أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ٢٠٥

٥٧ - إدوالف إرمان : ديانة مصر .. سبق ذكره ، ص ١٢٢

٥٨ - اليزابيت رايغشتال : سبق ذكره ، ص ٢٢٢، انظر ايضا رودلف آنتس ، سبق ذكره ، ص ٣٧

٥٩ - لولين جريفث : سبق ذكره ، ص ٣٣

٦٠ - برسند : فجر . سبق ذكره ، ص ٣٤٠

٦١ - نفسه : ص ٣١٠

٦٢ - برستد : كتاب تاريخ مصر .. سبق ذكره ، ص ٣٦

٦٣ - دريتون وفانديه : سبق ذكره ، صفحات : ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٢ ، والمقصود هنا ليس الإله ( ست seth ) إنما الإله ( ساتيس satis )

٦٤ــ العقاد : سبق ذكره ، ص ٢٦

٦٥ــ إيمار وإيوايه : سبق ذكره ، ص ٣٤

٦٦ــ دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ١٩٥

٦٧ــ د . عبد الرحمن بدوى : ربيع الفكر اليونانى ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٠

٦٨ــ كريم متى : الفلسفة اليونانية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٧١ ، المقدمة .

٦٩ــ د . فؤاد زكريا : التفكير العلمى ، عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ١٢٨ : ١٣٠

٧٠ــ د . حسام محيي الدين الألوسي : بواكير الفلسفة قبل طاليس ، المطبعة العصرية ، الكويت ، د . ت ، ص ٥ ، ٦ .

٧١ــ نفسه : صفحات ٥ ، ١١ ، ١٢ .

72- Gardiner, Egypt of the Faraohs, p.g.

٧٣ــ د . محمد السيد سلطان و د . صادق جعفر : مسار الفكر التربوى عبر العصور ، دار القلم ، الكويت ، د . ت ، ص ٢٧

٧٤ــ د . فؤاد زكريا : سبق ذكره ، ص ١٢٩

٧٥ــ د . أحمد فؤاد الأهوانى : المدارس الفلسفية ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٩٧

٧٦ــ سيد القمنى : الموجز الفلسفى ، دار السياسة ، الكويت ، د .ت ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

# الفصل الرابع
# الخلود الملكى

رغم كل ماقدمته مدرستا ( أون ) و ( منف ) لتفسير الوجود كوناً وكائنات ، فقد ظل هذا الوجود عالماً محسوساً زائفاً لايمكن الاطمئنان اليه ، بعد أن وجد هؤلاء أن الفناء يضرب أطنابه فى حية وجماده ، مهما كانت مدة بقائها ، مما جعل هذه التفاسير أحد وجهى الديانة المصرية القديمة ، بعد أن رأت الحكمة المصرية ، أن الوجود لايمكن أن يكون هو فقط هذا الفانى المتغير ، إنما الوجود وجودان أو عالمان ، عالمنا المادى المحسوس ، وهو زائل فان لابقاء له ، وعالم آخر تشكل مواصفاته ، والإيمان به ، وبوجوده ، الوجه الآخر الأكثر قوة فى هذه الديانة .

ولما كان الوجود قد تشكل أصلا من النقائض ، فمن البدهى أن يكون هناك عالم أخر ، يناقض بوجوده عالمنا المحسوس ، فيتصف بالخلود مقابل عالمنا الزائل ، وإلى هذا العالم الخالد ، لابد سيرحل الناس بعد موتهم ، مما جعل الاعتقاد فى الخلود أُس الديانة المصرية ولبها ، وجوهرها ، فيؤكد ( ول ديورانت ) على أن أهم ماميز الدين فى مصر القديمة ، هو « .. توكيده لفكرة الخلود »[1] ، بل لم نجد باحثا واحدا على الإطلاق ممن طالعنا ، لايأخذ هذا الأمر كمسلمة . ويؤكدون أنه « لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم ، احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت ، المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب

المصرى »[٢] . فقد رأى المصرى القديم فى ظاهرة الموت أمرا مفزعا ومخيفا ، يجب اجتنابه بأى صورة أو شكل مما حدا به إلى وضع تصوراته لحياة أخرى بعد الموت .

وقد رأى الباحثون أن المصرى لم يترك لنا تصوراً شاملا واحداً أبداً حول عالمه الأخر ، إنما تصورات مختلفة متضاربة متناقضة ، فقد « .. تعددت تخيلات المتفقهين فى تعيين عالم المخلدين ، فتخيله بعضهم فى جوف الأرض حيث يدفن الناس فعلا . وتوهمه بعض آخر فى الغرب على وجه الإطلاق ، .. ثم رجاه بعض ثالث فى السماء حيث الرفيق الأعلى .. »[٣] . أو كان يمكن للميت « .. أن يصبح رع المتهادى فى مركبه متجولا عبر السموات ، وفى الوقت ذاته يمكن أن يصبح المرء أوزيريس أو واحداً من رعاياه ، وقد يكون ممكنا كذلك أن يلتحق بمجرة سماوية كنجمة فى السماء ، ولكن كان من الممكن جداً بعد كل هذا ، أن يستمر الإنسان فى العيش داخل قبره ، متمتعاً بأطايب هذه الدنيا ، التى زود بها هناك ، وأن يخرج من قبره بشكل أو بأخر من الأشكال ، ليستنشق الهواء ، ويمتع النظر بأرض مصر الجميلة ، وكان معظم المصريين يميلون إلى الأخذ بهذه النظرية الأخيرة ، نظرية الوجود المستمر داخل الأضرحة »[٤] .

وحاول بعض الباحثين تفسير هذا التضارب ، أو التخفيف من حدته على الأقل ، فيقول ( أحمد كمال ) أنهم « .. قسموا آراء المصريين فيما سيحصل للإنسان فى الحياة الاخرى إلى مذهبين ، فأهل المذهب الأول اعتقدوا أن الباقى فى الانسان هو الجسم اللطيف المسمى ( كا ) وأنه لابد له من الموت مرة ثانية فى جوف الأرض ، ولذا تطلبوا أن يفعل لهم بعد الموت مايجلب لهم الفرح والغناء ، قائلين : إنه متى ترك الجسم كا وحيداً ، اعتراه الجوع والظمأ ، وتبعته حيوانات فظيعة تتهدده بموت آخر يؤدى إلى فنائه ، فمتى تليت عليه الدعوات ، وأقيمت عليه الصلوات باتقان وانتظام ، نال بواسطتها الغرف والمأكولات والخدم

والحرس ، فيحفظونه من تلك الحيوانات الفظيعة المهددة له بالفناء وأهل المذهب الثانى .. يعتقدون أن انتقال الروح إلى الدار الاخرة .. هناك حياة نعيشها تختلف سعادتها وشقاوتها ، بالعمل الذى جناه الإنسان فى دار الدنيا ، أو أن الروح قبل أن تستقر على حال ، لابد وأن تعرض أولا على الحساب »[٥] .

ولكن بمزيد من الإمعان فى رؤية الباحثين لاختلاف التصورات المصرية على أنها خليط غير منظم ولامفهوم ، سنجد هؤلاء قد تناولوا الموضوع جملة واحدة ، دون تفاصيل محددة ، فكأنهم بدأوا بالنهاية ، فاختلط الأول بالآخر ، ودون اعتبار للمراحل التطورية التى يمكن أن يكون هذا الاعقاد قد مر بها ، ودون حساب للعوامل والظروف الموضوعية التى كان محتملا وجودها وراء كل خطوة انتقالية .

وسعياً وراء وضع تصور شامل مفهوم للاعتقاد المصرى فى الخلود علينا إعادة النظر فى التراكمات التى تركها المصرى عن عالمه الاخر واخضاعها للمنطق التطورى ، مع ربطها بالأحداث التى يتحمل تأثيرها فى ذلك التطور ، والسير مع خطواتها فى عقل المصرى القديم ، دون تعرض لكل التصورات المختلطة المتنافرة دفعة واحدة ، منعاً للالتباس والإجهاد لدى القارىء ، إنما سنبدأ تصاعدياً ، متحملين وحدنا صعوبة إعادة ترتيب المسألة دون القارىء .

وبداية ، نبدأ بما بدأ به ( سيد عويس ) ، حيث أخذ الاعتقاد الأخروى فى نشأته صورة تدريجية ، بدأت « .. اعتقاداً ساذجاً بوجود عالم سفلى للأموات مآل كل الناس إليه حتماً »[٦] ، وإن كان ( أدولف ارمان ) يؤكد انه « .. لايعرف متى بدأت العقيدة تنتشر بهذا الشكل بين الشعب المصرى ، على أنه مهما يكن من أمر ، فانها ترجع إلى زمن بعيد »[٧] ، إضافة الى مايحذرنا منه كل من ( دريتون ) و ( فانديه ) أنه لا « .. تسمح الشواهد الاثرية فى حد ذاتها بتكوين فكرة إيجابية عن

ديانة المصريين ، فى الحقبة الأنيوليتية ( فجر التاريخ ) ، .. وأقصى مافى الامر ، ما أكتشف فى البرارى من جبانات الحيوانات ، حيث وضعت باحترام بنات آوى ، وثيران وكباش وغزلان بين الحصر » وأنه « .. تدل الترتيبات المعدة فى المقابر على اعتقاد فى البعث ، اذ يمكن الاستنتاج من وضعهم التغذية بالقرب من الجثث ، وكذلك من وضع لوازم الزينة والأدوات أحياناً ، أنهم كانو يحسبون الموتى يعيشون فى قبورهم ويتغذون فيها ، ويحتاجون إلى العناية الجسمانية ويباشرون اعمالهم المختلفة » .(٨)

ومن هنا نظن ان الفكرة فى مبتداها قد اقتصرت على تصور الميت حياً بشكل ما فى قبره ، ثم تطورت الفكرة إلى تصور عالم مظلم تحت الأرض يذهب إليه من خلال مدخل ما فى الجبال الغربية حيث رأوا الشمس تغرب أو تموت فيه كل يوم ، فأصبح الغرب رمزا على الموت ، وإن كانت فكرة الخلود فى القبر قد ظلت مسيطرة إلى حد ما إلى جوار العالم السفلى ، إستنتاجا من قول ( اليزابيث رايفسشتال ) : « .. لقد شيد ملوك مصر المتحدة القدماء ، أضرحة فخمة لإقامتهم الخاصة بعد الموت ، فى حين أنهم لم يقيموا للآلهة سوى أماكن متواضعة » . ( ٩ )

وقد رأى ( رودلف آنتس ) أنه قد « .. نتج عن التطور المرموق للقبور والشعائر الجنازية فى مصر ، خلال الألف الثالث ق . م . نمو واسع النطاق لفكرتين أساسيتين : كانت الأولى عقيدة أن الأموات يواصلون بعض أشكال الوجود الطيفى ، يمكن ان يكونوا به مصدر خطر أو خير لأخلافهم الأحياء ، كما كانوا أنفسهم فيه عرضة لمختلف الأخطار وكانت الفكرة الثانية ، ما أظنه الدافع البشرى لإمداد المتوفى بما يخصه ويحتاج اليه ، وما كان يحبه على الأرض ، حتى يتمتع به ويستخدمه طالما وكيف استطاع . ولقد نشا تطور هاتين الفكرتين الأساسيتين فى المقر الملكى ، **وليس فى أى منهما أن الروح او النفس البشرية خالدة** » ( ١٠ ) مما يعنى أن الفكرة فى بدايتها لم تكن قد

وصلت بعد إلى معنى الخلود وإنما كانت المسألة فقط « .. أن الموتى يقيمون فى مقابرهم » ( ١١ ) ويبقون فيها ، أو على شكل أطياف فى عالم تحت الارض ، والأهم أن هذا النوع البدائى من الخلود كان قاصراً على الملوك فقط ، ولم يكن لأى فرد غيرهم هذا الحق .

وأن هذا النوع البدئى من الخلود كان مسألة شائعة فى عقائد حوض المتوسط عموماً ، فشعوب الرافدين عامة « كانوا يتصورون أن الموتى يعيشون فى مكان مقبض تحت الأرض ، ملىء بالظلام والتراب ، يذهب إليه الناس جميعاً ، لا فرق بين صالح ومجرم » ( ١٢ ) ، وأطلقوا على هذا المكان « .. البيت الذى لا يعود داخله » ( ١٣ ) ، ورسموه فى خيالهم « .. تحيط به أسوار سبع ، لكل سور منها باب واحد » ( ١٤ ) ومعروف « .. أن هذا اللون من التفكير قد ساد العالم القديم .. فالتوراة لم تشر إلى الجنة والنار أى الحساب والثواب والعقاب إلا متأخراً .. حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، أما قبل ذلك فهناك شيول أو أرض الظلام » ( ١٥ ) ، كما اعتقدت المسيحية أن الروح « .. ستذهب حالا بعد الموت إلى المكان الذى دعاه يسوع الهاوية ، لتنتظر دينونة الله » ( ١٦ ) .

المهم أن ( ديورانت ) يرجع هذه البداية لفكرة الخلود الفرعونية إلى أسباب أهمها طبيعة الأرض المصرية ذاتها ، فيقول معضداً من ( برستد ) واجماع الآثاريين : أن الفلاح المصرى كثيراً ما كان يرى « .. الحبة التى يذرها ، قد نبتت واخضرت وأتت ثمارها ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى ، فتكررت معجزة الحياة ، ففكر فى تلك الحياة المتجددة التى لا يمكن أن تموت موتاً نهائياً » ، لأنه « ..إذا أمكن أن يحيا أوزير ــ النيل ــ ويحيا النبات كله بعد موتهما فأنه فى مقدور الإنسان أيضاً أن يعود إلى الحياة بعد موته ، وكان بقاء أجسام الموتى سليمة بصورة تسترعى النظر فى أرض مصر الجافة مما ساعد على تثبيت هذه العقيدة ، التى ظلت مسيطرة ، الى أن انتقلت منهم الى الدين المسيحى » ( ١٧ ) .

أما سبب الموت فى نظر المصرى القديم ، فهو أن هناك قوة خاصة كانت تلازم الإنسان فى حياته ، قد فارقته ، وكانت هى سر حياته ، وهى قوة يمنحها له رع عند ميلاده ( ١٨ ) ، اسماها ( كا K A ) ، وهى صورة طبق الأصل من صاحبها ، إلا أن ( أدولف ارمان ) و ( هرمان رانكة ) الآثاريين الألمانيين يؤكدان أنه « .. ليس من الواضح لنا ، وربما لم يكن واضحاً بالنسبة للمصريين القدماء أنفسهم ، كيف كانت حالة الكا أثناء الحياة ، ولا الدور الذى كانت تلعبه » ( ١٩ ) .

وهنا يكمن السر فى مسألة تقديم الطعام والقرابين إلى الموتى فى القبور ، لأن ال ( كا ) كان يجب أن تظل حية بعد موت صاحبها ، لذلك اتخذ المصريون وسائل عدة لتسهيل هذه المهمة ، فقاموا بتحنيط الأجساد حتى تحل الكا فى الجسد عندما تريد ، مع تمثال للميت يشبهه تمام الشبه ، يوضع فى مكان أمين ، حتى يمكن للكا أن تجد فيه القسمات الشخصية ، التى قد تفقدها الجثة بمرور الزمان ، بل فيما يختص بجماهير الشعب ، فلسنا نملك أى دليل على الاعتقاد الخاص بحياتهم بعد الموت « بتأكيد الآثارى والمؤرخ ( جون ولسن ) ( ٢٣ )

ويعاضد ( ولسن ) فى ذلك ، الآثارى والمؤرخ المصرى ( سليم حسن ) بقوله : « .. من الحقائق الغريبة فى بابها ، والتى يجب معرفتها عن معتقدات الشعب فى عهد الدولة القديمة .. أنه لم يرد فى المتون الجنازية عامة إشارة إلى روح الفرد العادى ـــ با ـــ أو قرينته ـــ كا ـــ مدى حياته كما أنه لا توجد صور لأيهما فى النقوش والرسوم حتى بعد الموت ، وهذا بخلاف ما نعلمه عن الملوك ، إذ ان روح الفرعون ـــ با ـــ وقرينته ـــ كا ـــ ، مرسومة على الآثار فى حياته وبعد مماته .. » ( ٢٤ ) . ونفهم من ذلك أن التصورات حول الخلود قد أخذت خطوة تطورية ، فبدأ الشعب يدخل المرحلة الجنازية ، لكن دون أن يكون له حق الحياة بعد الموت لأنه بدون ( كا ) ، ولا يملك إل ( با ) وهى بوجه خاص سر الخلود كما سنرى فيما بعد .

وقبل الانتقال إلى هذه المراحل الجديدة فى تطور فكرة الخلود ، لا يفوتنا أن نشير إلى مجموعة من آلهة الموتى ، التى اعتقد فيها المصرى القديم ، وكان أهمها ( **أنوبيس** ) وهو « إله مدينة كاسا فى مصر الوسطى .. وكان يمثل فى هيئة رجل له رأس ابن أوى .. وفى المؤلفة الشمسية ( الأونية ) كان يعد .. ابناً لرع » ( ٢٥ ) . ويبدو لنا أنه كان الصورة التطورية للإلهين الجنازيين ( وب وات Ophis ) إلها موتى أسيوط وكانا يمثلان فى هيئة الذئب كاملة ( ٢٦ ) ، و ( **خنتى آمنتى** Khent Amentiu ) اله مدينة ( أبيدوس ) ، وكان فى هيئة ابن آوى الكاملة ، ومع هؤلاء كان ( سكر Sokaris ) إله جبانة منف الذى اشتق من اسمه سقارة الحالية ( ٢٧ ) .

ويمكنا ــ استنتاجاً ــ القول : إن الآلهة الجنزية الأقدم ، وكانت ( وب وات ) و ( خنتى آمنتى ) ، إذا أخذنا بالحسبان أشكالهم الطوطمية الحيوانية الكاملة ، بالنسبة لكل من ( أنوبيس ) و ( سكر ) اللذين أصبحا ذوى أجسام آدمية ، واحتفظا من الطوطمية بالرأس الحيوانى ، كما أن ( وب وات ) و ( خنتى آمنتى ) كانا من آلهة الملكيات القديمة ، وظهرا فى عواصم هذه الملكيات ، صاحبه المصلحة فى الارتباط بآلهة جنازية ، بينما يمكن اعتبار ( أنوبيس ) و ( سكر ) آلهة أحدث عهدا ، بعد أن انتقلت العواصم الملكية من الجنوب الى الشمال ، فأرتبط ( سكر ) بالإله ( فتاح ) المنفى ، وانتهى بالاندماج فيه . وفى المراحل التالية ، بعد الصراع بين ( رع ) و ( فتاح ) ، والذى اختفى فيه ( فتاح ) ، انتهى بالطبع ( سكر ) ، فيما بقى ( اتوبيس ) مع ( رع ) المنتصر ، لكنه بدوره بدأ يتخلف درجات عن ( رع ) ، الذى اصبح فى الأسرة الخامسة هو السيد المطلق للدنيا والآخرة ، بعد أن ظل ( آنوبيس ) مرتبطاً به ، كراع للمقابر فقط .

وأصبح واضحاً أن فكرتى : عالم تحت الارض المظلم ، والبقاء فى القبر والخروج منه أحياناً فى هيئة الكا ، قد سارتا جنباً الى جنب حتى

عصر التأسيس وقيام الأسرة الاولى ، وبعد ذلك بدأ الاصرار على الاستمرار فى الوجود بعد الموت ، فى منطق يقاوم البلى المادى فاتجهت الأذهان إلى بناء المنشآت التى لا تبلى ، فكان أن تركوا لنا أهراماتهم الكبرى ، مع فن التحنيط الرفيع ، للمحافظة على الجثة أطول مدة ممكنة .

ويلوح لنا أن التطور الجديد لفكرة الخلود ، قد بدا مع مدرسة ( أون ) فما كان يرضى هؤلاء بمصير لملوكهم يقتصر على تواجد فى القبر بعد الموت ، خاصة أنهم قد أصبحوا فى الأسرة الخامسة هم هؤلاء الملوك أنفسهم ، فبدأوا يبحثون عن مصير أفضل مما قادهم إلى وضع نظرية ، قصرت الخلود على الملوك ، ويمكننا أن نفهم كيف سار منطقهم هذا ، بتصورنا لحسبتهم المنطقية التى يمكن أن تكون قد تمت على الشكل الاتى :

إذا كانت الآلهة آلهة لأنها خالدة
وإذا كان سر خلودها هو طبيعتها الإلهية
وحيث أن الملوك هم « .. أولاد رع » ( ٢٨ )
فهم قد جمعوا إلى جانب الطبيعة الإنسانية الطبيعية الإلهية .
**وبأعتبار هذه الطبيعة الإلهية طبيعة خالدة**
إذن يكون منطقياً استنتاج أن الملوك بدورهم خالدين

ويكون منطقياً اذن اقتصار الخلود بمعناه الحقيقى على « .. فرعون وحده » ( ٢٩ ) ، لأنه ابن الشمس الخالدة التى لا تموت ، و « .. كما تذهب الشمس لتستريح كل ليلة ، وتعاد ولادتها .. كل صباح » ( ٣٠ ) ، فان الملك بدوره إذا ترك هذه الدنيا ، فلا شك ـــ ازاء هذا المنطق ـــ أن « .. تعاد ولادته لسعادة أبدية .. » ( ٣١ ) ، أما « .. عامة الشعب .. مأواهم الأرض » ( ٣٢ ) ، لأنهم لا يملكون الطبيعة الالهية الخالدة .

وهنا أعلنت متون الأهرام بيقين لا يهتز :

إن الملك « .. لا يموت على الأرض بين الناس »

لأن « .. الناس يفنون وأسماءهم تمحى » ( ٣٣ )

بعكس الملك الذى « .. يصعد الى السماوات » ( ٣٤ )

ومن هنا وضح إصرار هذه المتون الهرمية على تأكيد هذا المعنى بالتفرقة بين مصير الملك ، مالك الطبيعة الالهية ، وبين بقية البشر الاعتياديين ، فتقول :

« إن ماء ( أى نسل ) الملك تيتى
فى السماء
وشعب تيتى
فى الأرض »

أو تخاطب الملك قائلة :

« إن ماءك مأواه السماء
أما الالاف
فمأواهم الأرض .. »

ولا شك

« أنك تدخل أبواب السماء
التى حرمت على المواطنين »

لأنه

« قد فتح لك مصراعا باب السماء
وانفرجت لك ابواب السماء
وهى التى تصد الناس بعيداً عنها »

لذلك

« .. يفتح للملك .. المزلاج
الى باب السماء
المحرمة على الناس » ( ٣٥ )

وهنا يمكن الزعم ان هذه الطبيعة الالهية بالذات ، هى ذاك الشيىء الغامض المسمى ( با ) أو الروح، ويدعم ذلك ما سبق فى قول : ان البا شيىء يخص الملوك فقط ، دون سائر الناس .

وأن الاعتقاد بأن الخلود مسألة خاصة بالآلهة فقط ، لم يكن قاصراً على الفكر المصرى ، فان هذا التصور ظل طوال عصور الحضارة الرافدية حتى منتهاها ، وقد نصت ملحمة ( جلجامش Gilgamesh ) الرافدية على أنه « .. عندما خلقت الآلهة الإنسان ، قدرت عليه الموت ، بينما احتفظت لنفسها بالخلود » ( ٣٦ ) . وهذا الاعتقاد وضع المصريين امام خيار وحيد فكى يكون الإنسان خالدا ، فلابد أن يكون إلها ، وهو الخيار نفسه الذى لم تخرج الحضارة الرافدية عن تصوره ، فزعموا أن إنسانا واحدا نال الخلود هو ( يوتنا بشتم Utaonapishtim ) بطل أسطورة الطوفان ، ولم يخلد إلا بعد أن قررت الآلهة رفعة إلى رتبة الألوهية إثابة له ( ٣٧ ) .

ولم يكن هذا المنطق غريبا ، حتى على بعض الديانات الكبرى ، وقد كان الأساس الفلسفى الذى تصورناه لمنطق الخلود الفرعونى ، وهو ذات الجوهر والأساس الذى قام عليه تصور الديانة المسيحي ، بل جوهرها برمته ، فتصور لنا الأناجيل انه قبل مجيىء المسيح لم يكن هناك خلود وإنما كان جميع الناس ــ صالحهم وطالحهم ــ يذهبون إلى هاوية العالم السفلى المظلم ، وبمجيىء المسيح واستشهاده وموته ثم عودته للحياة ، وذهابه خالدا إلى عالم السماء ، لوجود الطبيعة الإلهية فيه الى جانب الطبيعة الإنسانية ، أو بتأكيدهم أن لاهوته لم يفارق ناسوته ولا لحظة واحدة فانه قد كتب الخلود لكل من يؤمن به ، حيث سيصبح المؤمنون به بمثابة أبناء له يخلدون مثله عبر هذه البنوة ، لذلك يؤكد هؤلاء على ترديد ندائهم :أبانا الذى فى السماوات » ( ٣٨ ) .

أما تكييف هذه الخلود الملكى المصرى ؟ فهذا مايجيب عليه المصرولوجيون ، فيرون أنه كان « .. خليطاً من الأفكار والخيالات ، فكان يعتقد أن الميت فى قبره يأكل ويشرب .. وأنه بين حاشية الشمس فى نفس الوقت »[٣٩] ، « وأنه لم يكن لدى المصرى فكرة واضحة عن عالم الخلود ، فظن البعض أنه يعيش بين نجوم السماء ، واعتقد آخرون أنه يجلس على الاشجار بين الطيور ، على حين أعتقد البعض أنه يظل فوق الأرض حيث تستقر عظامه »[٤٠] .

ويلخص لنا ( برستد ) مجمل مايراه هؤلاء لتصورات المصريين عن عالم الخلود بقوله : انه قد « .. نسج خيالهم نسيجا معقداً ، ضم من الألوان ألف لون ، بحيث صار غير قابل للاندماج فى وحدة متماسكة متجانسة ، فنرى الملك ( فى النقوش ) مرة معتلياً عرشه ومرة أخرى نجده يهيم فى حقول البردى طلباً للقوت ، ثم يظهر فى بعض الجهات فى مقدمة سفينة الشمس ، وفى مرة أخرى يظهر كأنه أحد النجوم الثوابت ، قائما فى خدمة الشمس »[٤١] ، وهذه الصورة الاخيرة ، كانت مما دعا ( برستد ) الى القول بآخرة نجمية[٤٢] ، تشكل مذهبا الى جوار مذهب الآخرة الشمسية الأونية وتلخيصاً لكل هذه الآراء يمكن القول :

إن المصرى القديم قد تصور الملك بعد الموت :

— يجلس على مقدمة سفينة الشمس .
— يحيا بين نجوم السماء كأحد نجومها الثوابت .
— يجلس على الاشجار بين الطيور .
— يستمر فى قبره حيث تستقر عظامه .
— يعيش فى قبره يأكل ويشرب .
— يعتلى عرشه حتى بعد موته .
— يهيم فى حقول البردى طالبا القوت .

ولفهم هذا الخليط المتنافر ، الذى أصر الباحثون على تضاربه يجب العودة مرة أخرى إلى موضوع الـ ( كا ) و الـ ( با ) .

لقد اعتقد المصرى القديم ، أن الإنسان ينقسم إلى قوى ثلاث مندمجة معاً ، تنفصل عن بعضها البعض بالموت ، وهى :

١ ــ الجسد الانسانى ، أو الشخصية الانسانية ، الواقعية ، السلوكية أو مايمكن الإصطلاح على تسميته ( الأنـا )

٢ ــ الروح ، وظلت بالنسبة للمصرى القديم شيئاً غامضاً ، غير محدد أسماه الـ ( بـا )[٤٣] .

٣ ــ قوة ثالثة عجيبة ، هى كيان يشبه الأنا تماماً ، بل هى صورة طبق الأصل منه ، وإن كانت تخالفه بكونها غير مادية ومهمتها حمايته من المخاطر أثناء حياته ، وصحبته إلى القبر بعد مماته ، وتتردد عادة مابين القبر ، وبين ظاهر الأرض وأطلق عليها أسم ال ( كـا )[٤٤] .

وقد كان لمصرية الباحث ، ومعاشه بين بقايا هذه المعتقدات فى ريف مصر ، فضلها إلى حد بعيد ، فى فهم مثل هذه المتضاربات ، ولإيضاح هذا الفهم نقول : إنه حتى اليوم ، لم يزل رجل الشارع فى ريف مصر يعتقدا أعتقاداً جازماً بأن للانسان ثلاث قوى هى :

١ ــ الجسم المادى ، أو الشخصية الانسانية الواقعية السلوكية ، أو ما اصطلحنا على تسميته ( الأنـا ) .

٢ ــ الروح ، وهى من الموضوعات التى لايخوض بالحديث فيها ولو لمجرد الفهم ، كناتج لتأثير العقيدة الإسلامية ، التى اعتبرتها من أمر ربه ، وظلت بذلك كياناً غامضاً ، يطابق ذات الكائن القديم الغامض الذى أسماه الاسلاف ( بـا ) .

٣ ــ القرينة أو الاخت ، وهى قوة تحمى الإنسان من المخاطر أثناء حياته ، كملاك حارس ، فتحميه من الإصابات الخطيرة فى الحوادث ، وتصحبه إلى القبر عند موته ، وقد تتردد مابين القبر والأماكن التى كان يغشاها فى حياته ، خاصاً إذا كان موته عنيفاً ، ففى هذه الحالة تعود بغرض اقلاق راحة أعداء الميت ، وفى هذه الحالة تصبح القرينة ــ ما يسميه العامة ــ عفريتاً ، أو روح الميت ــ مجازا ــ وهو لايعنى بها الروح فعلا ، لأن الروح تذهب الى البرزخ بمجرد الموت ، ولاتعود الى الجسد إلا بالبعث فى الاعتقاد الاسلامى أو « تذهب إلى حضرة المسيح ، وتمكث .. هناك منتظرة القيامة »[٤٥] فى الاعتقاد المسيحى ، أما القرينة فهى لاتخرج عما أسماه الاسلاف ( الكا )[٤٦] ، وأن معنى القرينة يفيد ذات معنى ال ( كا ) ، فكلمتى القرينة أو الاخت وكلمة ( كا ) ، أنما تحمل معنى التشابه والتماثل مع الأنا .

وعليه ، يمكن إعادة ترتيب النصوص القديمة ، فى ضوء فهمنا لأبعاد الشخصية الإنسانية فى التصورات الحالية ، لعل الأمر يصبح أكثر أتساقاً وانضباطاً فى عالم الخلود الاونى .

فإذا كان المعتقد الحالى يرى أن الروح تترك الجسد بمجرد الموت ، حيث تصعد إلى السماء ، ولاتعود إلا بالبعث ، فان متون الاهرام كانت تؤكد أن « .. روح الفرعون كان يسبقه إلى السماء »[٤٧] ، أى أن ( بـا ) الفرعون كانت تسبقه إلى الملكوت السماوى ، وهنا بداية تفسير ماوصف بالتضارب والاضطراب ، فهو يوضح لنا لماذا صورت النقوش الملك الميت جالساً فوق مقدمة سفينة الشمس ، ويكون الجالس هنا هو ( بـا ) الملك أو روحه ، وليس الملك ( الأنا ) ، ويصبح تأكيد النصوص أن روح الملك تستقر فى السماء بين النجوم ، هو تأكيد وإصرار على إيضاح الإعتقاد بصعودها إلى السماء ، وذلك بوضعها بين أوضح ظواهر السماء المحسوسة ، النجوم .

وإذا كان المعتقد الحالى يرى أن القرينة أو الأخت تظل على الأرض تتردد بين القبر وبين الأماكن التى كان يغشاها الميت إبان حياته ، فإن النقوش القديمة صورت الميت فى قبره يأكل ويشرب ، أو يهيم فى حقول البردى طالباً القوت ، أو يعتلى عرشه ، وكان هذا مما حدى بالباحثين إلى رؤية التضارب والتنافر فيها ، لكن الأمور تستقيم عندما تربط القديم بالحالى فتصبح هذه الأفعال أفعال قرينته أو أخته أو كاه التى تشبهه ويكون من الطبيعى أن ترسم على الجدران ، وهى تقوم بهذه الأعمال فى هيئة الملك ، وهذا ما تراه العقيدة الإسلامية الآن ، فيقول السيد سابق إن « الروح بعد مفارقتها للجسد يكون الموت ، وتبقى هى مدركة تسمع من يزورها وتعرفه ، وترد عليه السلام »[٤٨] ، وبما أن الروح تذهب للبرزخ فالشيخ سيد يقصد هنا ـــ بلا شك ـــ القرينة أو الأخت .

وهكذا يصبح الموضوع أكثر أتسقاً وانضباطاً ، فيمسى الميت فى قبره بينما تصعد باه إلى السماء ، وتظل كاه تحوم بين القبر والارض .

وهكذا أنتهى إلى أنه حتى بداية الأسرة الخامسة ، كان الخلود قاصراً على الملوك فقط ، ليس بمعنى الموت والبعث ، إنما تأسيساً على منطق أن هؤلاء الملوك آلهة يملكون الطبيعة الخالدة . وقد جمع هذا الخلود بين عالمين : عالم القبر وما حوله باعتبار الملك الإله لم يمت أصلا إلا موتاً ظاهرياً ، لأن كاه لم تزل حية ، وعالم السماء بصحبة الإله الأعظم للمجمع القدسى ، ( رع ) الأونى ، باعتباره ( با ) .

ولكن الغريب فى بابه ، أن عقيدة الخلود قد أخذت فى هذا العهد خطوات تطورية سريعة وخطيرة ، ظهر فيها الإله ( أوزير ) ظهورا قوياً ، وترافق معه ظهور مايمكن تسميته عالماً آخر للخلود ، وأصبح ( أوزير ) حاكما لهذا العالم الثانى ، فى ذات الوقت الذى بدأت فيه جماهير الشعب تغزو عالم الملوك الاخر ، **لتتوافق هذه التطورات المتلاحقة**

**لعقيدة الخلود ـــ زمانيا ـــ مع توقيتنا لبداية الثورة الشعبية الأولى التى أدت لانهيار الدولة القديمة ، مما يدفعنا إلى افتراض وجود رباط ما بين الثورة الشعبية ، وبين دخول الجماهير إلى عالم آخر خالد ، وبين ظهور ( أوزير ) كاله للعالم الاخر ، وبين تطور مفهوم الخلود تطورا ارتقائيا سريعا .**

وسعيا وراء الكشف المأمول عن الرباط بين هذه العناصر الاربعة ، نظن أن عقدة الرباط المتفرع فى أربع جهات ، تتمركز فى الإله ( أوزير ) ذاته ذلك الإله الذى أصبح منذ هذا العهد وحتى نهاية العصور الفرعونية صاحب العالم الخالد وإلهه الأعظم بلا منازع ، الأمر الذى يدفعنا دفعا إلى الوقوف مع ( أوزير ) ، نبحث ماهيته ، توقيت ظهوره ، أثره وتأثره بأحداث عصره ، ودوره فى تطور عقيدة الخلود الفرعونية .

# هـوامش

١ — ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، الإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، سيستعين فى بحثنا فقط بالمجلد ٢ ، والجزء الأول بالتحديد ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٦٢ .

٢ — د . سيد عويس : سبق ذكره ، ص ٦٠

٣ — د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٣١٦

٤ — اليزابيث رايفتال : ص ٢٣٣

٥ — د . أحمد كمال : سبق ذكره ، ص ٦٦

٦ — د . سيد عويس : سبق ذكره ، ص ٧٧

٧ — إدولف إرمان : ديانة مصر .. سبق ذكره ، ص ٢٤٩ .

٨ — دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٥١ ، ٥٢

٩ — اليزابيث رايفتال : سبق ذكره ، ص ٢١٣

١٠— رودلف آنتس : سبق ذكره ، ص ٤١

١١— ادولف إرمان : ديانة مصر .. سبق ذكره ، ص ٢٣٥

١٢— برستد : انتصار الحضارة ، سبق ذكره ، ص ١٢١

13 - Gardiner, Egypt of the Faraohs, p.92.

١٤— دولابورت : بلادمابين النهرين ، ترجمة مارون خورى ، دار الروائع الجديدة ، بيروت ، د.ت ، ص ١٩٦ .

١٥— د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٦ ، ص ١٧٩

١٦ـ بلى جراهام : سلام مع الله ، مركز المطبوعات المسيحية ، بيروت ، د . ت ، ص ٨٤

١٧ـ ديورانت : سبق ذكره ، ص ٩٢ ، ١٦٢

١٨ـ أدولف إرمان : ديانه مصر .. سبق ذكره ، ص ٢٣٥

١٩ـ إرمان ورانكه : سبق ذكره ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧

٢٠ـ د . أحمد كال : سبق ذكره ، ص ٧٢ ، ٧٣

٢١ـ ادولف أرمان : ديانة مصر .. سبق ذكره ، ص ٢٣٧

٢٢ـ نفسه : ص ٢٣٦

٢٣ـ جون ولسن : سبق ذكره ، ص ١٦٠

٢٤ـ د . سليم حسن : مصر القديمة ، دار الكتب المصرية ، ١٦ جزء ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ج ٣ ، ص ٥٣٢

٢٥ـ دريتون دفاندييه : سبق ذكره ، ص ٦٩

٢٦ـ نفسه : ص ٧٥

٢٧ـ نفسه : ص ٧٣

٢٨ـ د . سيد عويس : سبق ذكره ، ص ٧٠

٢٩ـ بر ستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ٩١

30- Pritchard, O.p cit, p.33

31- LOC . cit.,

٣٢ـ د . سيد عويس : سبق ذكره ، ص ٧٠

٣٣ـ برستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ٩٩

٣٤ـ د . عبد الحميد زايد .. مصر .. سبق ذكره ، ص ٢٧٧

٣٥ـ د . سليم حسن سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٥٢٦

36- N.K. Sanders., The Epic of Gilgqmesh, Benguin Books, p. 102.

37- O p. cit, p. 113.

٣٨ـ لفهم جوهر الخلود المسيحى ، إرجع إلى : د . وديع ميخائيل : أين هم الموتى ، مطبعة كيلوباترا ، القاهرة ، ط ٢ ، د .ت ، ص ٢٨ ومابعدها ، أنظر أيضا : د . عزت زكى : الموت والخلود فى الأديان المختلفة ، مطبعة كيلوباترا ، القاهره ، د .ت ، ص ١٢١ ومابعدها .

٣٩ـ د . محمد أنور شكرى : سبق ذكره ص ٢٠٣

٤٠ـــ ارمان ورانكه : سبق ذكره ، ص ٣٢٥

٤١ـــ برستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ٩٩

٤٢ـــ نفسه : ص ٩٠

٤٣ـــ رأى كل من ماسبيرو ، ورينوف ، أن الكا تحمل البا ، وأن البا هى الروح ، وغشاء يحيط بقبس من الإله ، وقد وافقهما على ذلك Viry, la Religion de l'ancienne Egypte, Paris, 1910, p.p. 102-104 237,

أنظر أيضاً

Naville le Religion des anciens Egyptiens, paris, 1906, p.p. 53-54

أنظر أيضا

Jequier, Historie de la civitlisation Egyptinne, Paris, 1923. p.p 151-152

أنظر أيضا

Wiedemann, Da Salte Aegypten, Heidelberg, 1920, p 72.

وهذا الرأى يؤدى إلى صدق نظريتنا ، حول كون ( البا ) هى ذلك العنصر الإلهى الخالد ؛ الذى يملكه الملوك دون بقية الناس ، والذى تحدد إليهم غبر تسلهم الإلهى .

44- Steirdorff : Die ka und die Grabstatuen, Ae. Z.48 (1910-1911) p.p, 152-159.

وملخص نظرية ( شتيردوف ) فى هذا الكتاب : أن ( الكا ) روح حارس يخلق مع الإنسان ويتبعه كقرين له أثناء حياته ، وبعدها بقليل ، وقد أخذنا برأى ( شتيردوف ) هنا لقربه من المفهوم الحالى لمعنى القرين عند المصريين ، وإن كانت هناك آراء أخرى ، مثل رأى ( جيمس برستد ) الذى يذهب إلى أن الكاروح يخلق مع الأنسان ، لكنه لا يدخل فى خدمته إلا فى العالم الآخر .

وللمزيد حول الكائن ( كا ) بالذات إرجع إلى

Maspero, Etades de Mythologie et el archeologie Egyptionnes, 1, paris, 1881, p.p 77-91

كما أن فهمنا الذى طرحناه يتفق مع ( لوباج رينوف ) ، انظر له بهذ الصـدد :

Lepage Renouf : The true Sense of Important Egyptian words, in the Transacrions of the society of Biblical Archeology, vi, 1978, p.p.4 94-508.

وليلحظ القارىء أن ماذ هبنا إليه حو الكا ، استنادا لمثل هذه الآراء ، مع رؤانا الخاصة ، هو نفسه مدار بحث ، بل وأساس مايسمى بالنظريات الروحية عامة ، حتى الآن .

٤٥ـــ بلى جراهام : سبق ذكره ، ص ٩٥

٤٦ـ د . أحمد بدوى : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٦١ ، ويرى أن الكا هى « .. مايسميه أهل مصر اليوم القرينة أوَ الأخت » .

٤٧ـ د . سليم حسن : سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٥٣٣

٤٨ـ السيد سابق : العقائد : الاسلامية ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٧ .

# الفصل الخامس
# مشكلة الاله أوزير ؟ !

« .. ذهب كثير من العلماء ، إلى أن عبادة أوزير ، تمثل تقدماً هاماً فى الديانة المصرية ، وأنه كان لها أثار خلقية عظيمة»[1]خاصة بعد أن أصبح أوزير إلها لعالم آخر خالد [2] ، ويعتبر ( إرمان ) أن سبب ذلك كا من فى تفاصيل « .. قصته ، وعلاقتة بالحياة والموت »[3] بعد أن قام من بين الأموات جسداً حياً .

لكن ، متى ظهر ( أوزير ) فى أفق الديانة المصرية ؟ ومتى تميز كإله لعالم الخلود ؟ تلك المميزات التى دفعت ( ارمان ) لسؤاله المتشكك ــ دون أن يعطينا إجابة شافية ــ « .. هل كانت تلك المميزات معروفة فى عصوره الأولى ؟ أم أنها ظهرت وتكونت على إثر قصته المشهورة ؟»[4] . ونضيف إلى تساؤله : وهل كان ( أوزير ) إلها قديما « .. قدم الوادى » [5] كما يذهب إجماع المهتمين تقريباً ؟ أم انه كان إلها حديثاً ؟ ومتى تكونت قصتة المشهورة تلك ؟

يبدى اثنان أخران ــ على الأقل ــ من كبار المهتمين ، شكهما فى قدم ( أوزير ) ، وهما ( رودلف أنتس ) ، و( هنرى فرانكفورت ) لكن دون أن يعطيا إجابات حاسمة حول قدمة أو حداثه ، فيكتفى ( فرانكفورت ) بإثارة الشكوك ، حول صحة عضوية ( أوزير ) فى المجمع القدسى من بداية أمره فيقول : « .. يوجد هناك فرق واضح

عميق بين الأرباب الأربعة الاخيرة (أوزير ، وست ، وأيزى ، ونفتيس ) والخمسة السابقين ( رع وآتوم وشو ، وتفنوت ، وجب ، ونوت ) فأتوم وشو وتفنون وجب ونوت ، يمثلون الكون ، وأسماءهم توضح عناصره الأساسية ، لكن الأطفال الأربعة لجب ونوت ( أوزير وأتباعه ) ليسوا متعلقين بأية صفة كونية ، وإنما هم يمثلون الخيط الواصل ما بين الطبيعة والإنسان ، ثم يبرز تشككه أكثر عندما يتساءل : إن أوزير لم يكن مثل بتاح .. وانما كان ذا درجة اقل .. ، وأى منطقة من الطبيعة لم تكن له خالصة ، فهو حال فى الأرض لكنها ذاته ، وهو عضو بالمجمع القدسى لكنه ليس رئيسه ، والنيل له إلهه الخاص ( حابى ) والحبوب لها إلهتها الخاصة ( أرنوتت ) ، وحتى قوة التناسل .. كان يمثلها إله أخر هو ( مين ) » (٦) ، فأين موقعه بين هذه الآلهه » القديمة المعروفة ؟

ويلفت ( أنتس ) نظرنا ــ بدوره ــ دون أن يضع يدنا على أية إجابات شافية أو حتى احتمالية ، إلى أن « .. القصة ( التكوين الأونية ) بأسرها إنما توحى بإن **هناك فجوة وسط الراوية** فالقسم الأول راوية كونية ، خاصة بالكائنات الكونية المصورة فى أشكال إنسانية ، والقسم الثانى منه قصة إنسانية .. بل أنة يعلن شكه فى قدم الآلهة ( جب ، نوت ، أوزير ) دفعة واحدة مؤكداً أن « هذه الأسماء ، لاتبين أى صله **من فجر التاريخ** للالهة سلالته »(٧) ، فأين يقف أوزير وتوابعه ، بتعبير فرانكفورت ؟(٨) هل كانو كأبطال لأسطورة الاوزيرية معروفين إبان عصر فجر التاريخ مع أعضاء المجمع الفسى الكونين ،أم لأنهم ظهروا فى مراحل تالية ثم أضيفوا للمجمع نتيجة لأحداث حتمت ذلك ؟

الحقيقة أننا لم نجد دون هؤلاء المتشككين ، سوى اتجاه واحد بدا مسلما تماماً بقدم ( أوزير ) قدم المجمع القدسى ، بل قدم التاريخ المصرى

ذاته ، مستندا إلى عدد من الشواهد ، يمكن بعد تجميع شتاتها من المصادر ، صياغتها فى النقاط التالية :

١ - يؤكد كل من ( ايمار ) و( إبوايه ) أن أسطورته قديمة قدم التاريخ الفرعونى ، لأنها استندت إلى ذكريات تاريخية ، وخاصة أحداث صراع ولده حور ، مع عمه الشرير ست ، والتى تتجاوب مع أحداث التوحيد الأولى بين الشمال والجنوب .(٩) بينما يؤكد كل من ( دريتون ) و ( فاندييه ) أن من دلائل قدم هذا الإله ، أن ألوهية الملك ــ وهى مسألة قديمة جدا ــ قد استندت إلى ما جاء « .. فى الأساطير ، أن آلهة التاسوعين حكموا الواحد تلو الآخر على الأرض فى مصر ذاتها ، قبل أن يعرجوا إلى السماء .. وقد ترك أوزير .. آخر الآلهة العظام ، الملك لابنه-حور .. ومن هذا الاخير تحدر فى زعمهم كل ملوك مصر ،وبناء على ذلك يكون حق الملك قائما **على طبيعته الإلهية ، التى كانت تنتقل إليه مع الدم** » (١٠) . لهذا يقول ( نجيب ميخائيل ) : إن ..الملوك الذين حكموا الشمال والجنوب فى العصر الهليو بو ليتانى ، أعلنوا أنفسم بوصفهم أتباعاً لحور ..»(١١) وان « .. تاريخ مصر يبدا عادة بملك موحد هو مينا ، ومينا يعتبر حور سلفه البعيد ، فهو من اتباعه ، يحكم باسمه ، ويحق تناسله منه »(١٢) ، ومن هنا يصبح ( أوزير ) وهو أب ( حور ) ، أقدم من هذا الزمان ، باعتبار ما يؤكده ( عبد العزيز صالح ) انه قد « .. انعقدت الهيمنة للإله حور فى بداية الأسرات » (١٣)

٢ ــ يؤكد الآثاريان ( هرمان رانكه ) و (أدولف ارمان ) أن مدينة ( أبيدوس ) ، .. مركز عبادة الإله ( أوزير ) حتى نهاية العصور الفرعونية قد « .. انتقلت اليها فى **زمن قديم جدا عبادة** أوزيريس ، من مكان عبادته الأول فى ددو ( بوزيريس ،أبو صير حالياً ) بالدلتا »(١٤)

٣ ــ ان اهم ابطال الأسطورة الأوزيرية بعد ( أوزير ) مباشرة هى الإلهه ( إيزى ) ، وتعد عند المصرولوجيين **من اقدم إلهات فجر التاريخ** ، ويعطينا ( دريتون وفانديه ) تعريفا بها بقولهما : « .. معنى اسمها الكرسى ، .. كانت فى الأصل إحدى إلهات السماء ، ومنشؤها الدلتا ، وربما فى ( بوتو أو إبطو ) .. كانت تمثل فى هيئة إمرأة تحمل على رأسها كرسيا هو العلامة الهيروغليفية لإسمها ،**أو قرنين يضمان قرص الشمس** »[١٥]

٤ ــ أن بردية ( تورين ) قد أوردت أسماء الآلهة المصرية ، مبتدئة بالاله ( جب ) « .. ثم أوزيريس وست وحوريس وتبع ذلك بعض الآلهة الأقل شانا »[١٦]

٥ ــ إن الأساطير القديمة أكدت « .. إن الآلهة الأوزيرية الخمسة قد ولدت أيام النسىء ، ( انظر مثلا Pyr.١٩١) ، **وفى هذا دليل ملحوظ على قدم اسطورة أوزيريس** ، وعندما ابتدع التقويم عام ٤٢٤١ ق .م ، كانت هذه الآلهة معروفة فى هليوبولس ( أون )[١٧]

وكانت هذه الدلائل من القوة ، بحيث ألقت فى روع مجموعة هائلة من الباحثين ، الظن أن ( اوزير ) ربما كان ملكاً حقيقاًحكم على مملكة مصرية متحدة فى عصر فجر التاريخ[١٨] ، حتى قيل « ..أن أوزير عاش يحكم ٢٨ سنة » [١٩] .

ولكن إذا كان هذا صحيحاً ، فكيف نفسر ما ورد عنه فى مصادر أخرى تقول أنه فى « .. الأسرة الرابعة .. قامت ديانة جديدة انتشرت أخيراً فى جميع أرجاء مصر هى ديانة أوزير .. » [٢٠] ، بعدها أخذ « . اللاهوت الأوزيرى فى الانتشار بصفة واضحة منذ **الاسرة الخامسة** »[٢١] حتى أصبح ( أوزير ) **إلها للعالم الآخر الخالد « .. عندما حدث الصدع العظيم ، بتداعى القوة الملكية عند نهاية الدولة القديمة »**[٢٢] ، **وسقوط الأسرة السادسة إلى أن بلغ تألقه « .. أيام الدولة الوسطى »**[٢٣] .

**ثم كيف نوفق بين القول بقدمه قدم التاريخ المصرى ، والوهيته للعالم الآخر ، وبين ما أورده ( برستد ) عن تأكيد متون الأهرام أن ( رع ) هو « .. رب الاخرة »(٢٤)**

**إلا أن الأخطر والأهم تماماً هو : كيف نوفق بين اجماع الأراء التى تؤكد قدم ( أوزير ) قدم الوادى ، وبين حقيقة مؤكدة وهى « .. أنه ليس هناك مصدر أبعد من الأسرة الخامسة يشير لأوزير »(٢٥) ؟ "**

وأمام هذا التضارب لا يسعنا سوى القول : إنه فى مقابل كل الدلائل على قدم ( أوزير ) ، فقد أمكننا أن نجمع مجموعة أخرى من الحقائق التاريخية الهامة هى على طرف النقيض تماماً ، وبها يمكننا أن نرجع كفة المتشككين فى قدمه **مما يسمح لنا بوضع المسألة كلها قيد البحث من جديد ، فى محاولة لبيان التوقيت الأقرب لليقين ، حول موعد ظهور ( أوزير ) وربوبيته للخلود** . وسيعاً وراء هذا الهدف ، نضع فرضين لا ثالث لهما :

ــ أن يكون ( أوزير ) قديماً فعلا قدم الوادى ، لكنه ظل منكوراً ، حتى ظهر بفعل ظروف جديدة طرأت فى الأسرة الرابعة ، ثم أدت إلى علو شأنه وسطوع ذكره فى الأسرة الخامسة ، حتى استطاع أن يبلغ كمال مجده فى الأسرة السادسة ، ليسود بعد ذلك مع بداية الدولة الوسطى .

ــ أن يكون ( أوزير ) إلها حديثاً ، لم يبدأ وجوده على صفحات التاريخ فعلا إلا مع الأسرة الخامسة وما تلاها .

وبادىء ذى بدء ، لن يك الجزم برأى فى الفرض الأول ممكناً ، على اعتبار أنه ليس لدينا أى مصدر عن ( أوزير ) أبعد من الاسرة الخامسة

وأى بحث وراء ذلك سيكون ضرباً من التخمين والجهد الضائع ، لذا نستبعد هذا الفرض ، ولا يبقى إلا الفرض الثانى ، لنخوض به التجربة النظرية — إن جاز التعبير — لنتثبت من صحته أو بطلانه .

وأول العقبات التى ستصادف اختيار الفرض الثانى ، هى أدلة الباحثين على قدم ( أوزير ) ، لذلك سنقف لإجراء عملية تحليل اختبارية نظرية ، لبحث مدى أصالة هذه الأدلة ، ومدى صمودها أمام التحليل ، بادئين بالدليل الأول .

يستند الدليل الأول على تجاوب أحداث الصراع بين ( حور ) بن ( أوزير ) وبين عمه الشرير ( ست ) فى الأسطورة الأوزيرية ، مع أحداث الصراع القديم بين شطرى مصر ، أيام التوحيد الاول ، والذى رآه عقل العصر صراعاً بين إلهى الإقليمين ( حور ) و ( ست ) ، ولعل هؤلاء الباحثين قد اعتبروا ( أوزير ) قديماً استناداً إلى قدم الإلهين ( حور ) و ( ست ) وهما بطلان وقطبان من أقطاب أسرة ( أوزير ) فى أسطورته التى انتشرت فى أواخر عصر الدولة القديمة .

ونحن اذ نسلم مبدئيا بقدم الإلهين ( ست ) و ( حور ) لأن أمرها لايقبل جدلا ، فإن ما يجب إيضاحه هو أنه ليس من الضرورى أن تكون الأسماء فقط دليلا على أن ( حور ) و ( ست ) إلها التوحيد ، هما ( حور ) و ( ست ) إلها الأسطورة الأوزيرية ، خاصة أن ما وصلنا عن أحداث التوحيد الأولى ، لم يأت مطلقاً بذكر لأوزير ، ولم يظهر له أى دور فى توحيد شطرى مصر .

واذا كان ( ست ) فى الأسطورة الأوزيرية إلها شريراً ، فإن المصادر تؤكد أنه « .. لم يكن يعد فى متون الأهرام .. شريراً » (٢٦) ، مما يدعونا إلى افتراض أن ( ست ) التوحيد ، غير ( ست ) الأسطورة ، أو ربما كان هو ذاته ، لكن صفة الشر لم تلحق به إلا بعد صياغة الأسطورة فى نهايات الدولة القديمة ، وهذا يعنى حداثة ( ست ) الأسطورة بالنسبة إلى ( ست ) التوحيد ، قياساً على ما جاء فى متون الاهرام

كذلك فإن ( حور ) بالذات لم يكن إلها واحداً منذ بداية التاريخ المصري وحتى نهايته ، حتى نتخذه دليلا على قدم ( أوزير ) كأب له ، فقد ظهرت ثلاث صور رئيسية للإله ( حور ) :

( حور ) الاكبر ( حارورِيس )
( حور ) ابن ( أيزى ) ( حورسا ايزه )
( حور بقراط ) ( حور الطفل ) [٢٧]

ويؤكد لنا ( نجيب ميخائيل ) ـــ وهو من الثقات ـــ أنه « .. كان هناك حوالى ١٢ إلها حوريا أخر »[٢٨] ، وأهمهم فيما أورده ( دريتون ) و ( فانديه ) : « .. حر خنتى أرتى .. وحراً أختى .. وحرم أخت .. وحرنج أتف .. وحر سمتاوى »[٢٩] . ويلفت ( ميخائيل ) نظرنا إلى أنه بالنظرة الفاحصة بين كل هذه الحور « .. يمكن التفرقة بين حور الاكبر وحور المولود فى إخبيتى .. »[٣٠] أى بين ( حور ) التوحيد و ( حور ) الأسطورة . فبينما نجد « منذ عصور ما قبل التاريخ .. الصقر أهم رمز لحور »[٣١] ، فإنه كبطل للأسطورة الأوزيرية قد صور « .. فى صورة الانسان كاملة » [٣٢] .

وبمنطق التطور الارتقائى للعقل ، يمكن القول أن الصورة الانسانية ل ( حور ) هى الأحداث بالنسبة لصورته الطوطمية كصقر ، أى يصبح ( حور ) ابن ( أوزير ) هو الأحدث بالنسبة إلى ( حور ) الأكبر إله التوحيد القديم . ويؤكد ( إرمان ) هذا المعنى بقوله : « .. وليس من شك أنه لا علاقة بين حوريس المسمى كنشتاوى معبود إثريبس فى الدلتا ( حور الأكبر ) ، وبين حوريس سبودو ( حور ابن أوزير ) »[٣٣]ويشير ( آنتس ) لنفس الفرق مؤكدا : أن الحورين « .. كانا متميزين إحداهما عن الآخر منذ زمن نصوص الاهرام »[٣٤] ، أما ( عبد الحميد زايد ) فيلقيها واضحة فى قوله إن « حورا بن إيزيس .. غير حور الأكبر »[٣٦] بحيث يمكن القول أنه ليس هناك علاقة ما بين

الحورين إلا فى تشابه الإسمين ، خاصة إذا أخذنا بالحساب ما أوردته ( اليزابيث رايفشتال ) فى قولها : إنه « ( منذ السلالة الخامسة .. يبرز حور **بصفة جديدة** ، على انه ابن اوزيريس « [٣٧] ، بمعنى أنه قبل هذا الوقت لم يكن كذلك .

وبذلك يكون دليل قدم ( أوزير ) المستند إلى قدم ( حور ) ذليلا غير كامل السلامة ولا الصحة ، بعد أن تبين خلطه بين ( حور ) ابن ( أوزير ) وبين ( حور ) الأكبر ، ويستتبع ذلك انهيار سنده الثانى القائم على اعتبار ملوك مصر أبناء ل ( حور ) ، لان ( حور ) هنا سيكون ( حور ) الأكبر وليس ( حور ) ابن ( أوزير ) .

وهنا يجدر بنا التنبيه إلى ملاحظة هامة وخطيرة ، هى أن ( أوزير ) بوصفه إلها للموتى ، ستتضارب مع حقائق تاريخية مؤكدة ، إذا اعتبرناه قديماً وهى أنه فى عصر فجر التاريخ ساد عدد من ألهة الموتى هم :

. ( وب وات ) إله الموتى فى أسيوط ، وكان أحياناً إلهين بنفس الاسم ، ويعد أقدم آلهة الموتى المصرية طرا باعتبار أن « أوائل .. المعابد . قد . شيدت على شرف الإله وب وات » [٣٨] .

.(أنوبيس ) إله الموتى الأولى ، وقد ظل هذا الإله بالذات ذا شان حتى نهاية العصور الفرعونية ، وقد بلغ قمة مجده عندما اعتبرتة العقيدة الملكية أبنا لـ ( رع ) .

. ( سكر ) إله موتى مدينة ( منف ) ، وقد ذاع صيته حتى أصبح ابنأ للإله ( فتاح ) ، وانتهى بالاندماج فيه

. ( خنتى أمنتى ) إله موتى مدينة ( أبيدوس ) عندما كانت عاصمة لمصر فى عهود التوحيد الاولى ، ويعنى اسمه « أول اهل الغرب ،وهم الموتى » [٣٩]

هذه هى أهم آلهة الموتى التى عرفت حتى قيام الأسرة الرابعة وليس بينها واحد باسم ( أوزير ) ، بل ولم يرد إسم ( أوزير ) حتى مع بداية سيادة ( رع ) ، حيث كان لدى ( رع ) ولدا يرعى الموتى هو ( أنوبيس ) ، ولا فى عهد سيادة ( فتاح ) المنفى ، حيث كان لفتاح ابن يرعى الموتى هو ( سكر ) ، ولم يكن له مكان حتى فى ( أبيدوس ) التى قيل انها مدينة ( أوزير ) المقدسة ، فقد كان لها إله للموتى فى عصورها القديمة ، هو( خنتى أمنتى ) أول الغربيين .

أذن ، ماذا حدث ، حتى اختفت كل هذا الآلهة ؟ أو لماذا توارت فى الظل بعد أن غيرت وظيفتها ؟ وما هى العوامل التى أظهرت ( أوزير ) كإله أوحد للموتى ؟ ليصبح هو الـ ( خنتى أمنتى ) الوحيد فى ( أبيدوس ) ، وتبيت ( أبيدوس ) مدينته المقدسة حتى نهاية العصور الفرعونية ؟ : علماً أن ( أبيدوس ) كانت حكراً للإله ( خنتى أمنتى ) ، وكان تاسوعها يتألف من « .. إلهين باسم حوريس ، وإلهين باسم وب وات » (٤٠) ، دون أى ذكر لأوزير ؟ :

لابد ــ إذن ــ أن هناك حدثاً خطيراً ــ لم يسجله التاريخ غفلة أو قصدا ــ جعل الاقدار تلعب بمقدارت آلهة الموتى القديمة جميعاً لتضع مكانها إلها واحداً للموتى هو ( أوزير ) ، فقد أخذ نجم ( سكر ) بالأفول ، عندما ظهر فى المدونات **التى تلت الاسرة الرابعة** مختلطاً بالاله ( أوزير ) ، وكانت هذه أول مرة يظهر فيها ل ( أوزير ) ذكر حتى أكد الأثاربون أنه « كثيراً ما كان يتعذر على الشخص أن يفهم أى الالهين يعنون أيقصدون الإله سكر أم أوزيريس » (٤١) . .بل وصل الأمر الى أن « .. اندمج سكر فى أوزيريس » (٤٢) .ولما كان إله ( منف ) هو ( فتاح ) فقد اندمج الثلاثة **كأقانيم فى ثالوث قدسى** إلهى واحد هو « بتاح ــ سكر ــ أزيريس » (٤٣) .

اما الإلهين ( وب وات ) ، فقد تحولا فى الأسطورة الأوزيرية إلى تابعين لأوزير يتقدمانه فى المعركة (٤٤) ، فتغيب صفتها كإلهين للموتى ليحل ( أوزير ) محلها فى ذلك المقام .

هذا بينما انتهى ( أنوبيس ) أخطر ألهة الموتى وأشهرهم صاحب الحول والطول ، والأعياد السنوية المجيدة — (٤٥) أسوأ نهاية ، بعد أن تغلب عليه ( أوزير ) (٤٦) ، وأصبح فى الأسطورة الأوزيزية « ابنا غير شرعى لأوزير ونفتيس » (٤٧) ، فارتفعت الأسطورة بشأن ( أوزير ) لتجعله أبا لانوبيس ، وتصبح أى محاولة لإعادة ( أنوبيس ) لمكانته السابقة عقوق للوالدية ،وهبطت بشأن ( أنوبيس ) ، فأهدرت قدره بعيب فى نسبه ، بإرجاعه إلى بنوة غير شرعية لأوزير ، رغم أنه أقدم من ( أوزير ) — ولاشك — قدما واضحا فيما ورد بالأسطورة الأوزيرية ذاتها ، فعندما مات ( أوزير ) غيلة بيد أخيه الشرير ( ست ) أرسل الإله ( رع ) ولده ( أنوبيس ) إله الموتى ليرعى جثمان أوزير ويهتم بتكفينه كما يليق (٤٨) ، وكشأن كل ألهة الموتى القدامى مع ( أوزير ) الظافر كان شأن ( خنتى أمنتى ) أول الغربيين ، لأنه « سرعان ما حل محله أوزير .. واندمج فيه » (٤٩) .

وتأسيسا على ذلك ، فلن يكون لدينا سوى تفسير واحد لما حدث من لعب بمصير هذه الآلهة العريقة ، وهو أن الإله ( أوزير ) لم يكن له وجود قبل الأسرة الرابعة ، وأنه عندما ظهر ، ظهر قويا مدعما ، بحيث استطاع إلغاء كل هذه الآلهة دفعة واحدة وخلال أمد قصير ، حتى « برز .. على سائر إلهة الموتى »(٥٠) « واستحق أن يلقب وحده « .. خنتى أمنتى سيد ابجو »(٥١)أى أول أهل الغرب سيد ابيدوس .

ولعل هذا الاختبار النظرى التحليلى ، لأول الأدلة على قدم ( أوزير ) قد أثبت حتى الآن حداثة ( أوزير ) قياساً على آلهة الموتى القدامى ، ولما يزل فرضنا تحت الاختبار .

وتبقى عدة تساؤلات ، أهمها : كيف غدا ( أوزير ) سيد ( أبيدوس ) بدون منازع ؟ ونظننا قد وجدنا الإجابة فيما جاء فى كشوف حديثة حول قبر ( أوزير ) حيث اكتشف أن « .. قبر أوزيريس .. كان فى حقيقتة قبر الملك زر zer من الأسرة الأولى » (٥٢) ، وهو خليفة ( مينا ) موحد القطرين ، وكان يعرف أيضاً باسم ( جر ) وباسم ( خنت ) . ويقول ( ميخائيل ) : « من العجيب أن مقبرة ( جر ) قد مرت بها أحداث لم تتح لغيرها ، فلقد ظن المصريون أن ( أوزير ) قد دفن فى هذه البقعة ، فحجوا إلى قبره وأقاموا الأنصاب حوله وفى العصر المتأخر بنوا سلماً يؤدى إلى المقبرة ، وأودعوا فيها تابوتاً من الجرانيت ، على غطائه صورة الإله لابساً تاج الوجه القبلى ، ويحمل عصاً الصولجان » .

ولعل السبب فى ذلك ، هو أحد أسماء ( جر ) الثلاثة ، أقصد الاسم ( خنت ) ، لأن ( ميخائيل ) يستطرد قائلا « .: حدث اللبس بينه وبين .. خنتى أمنتى أى سيد الغربيين ، وخنتى أمنتى كان إلها قديماً لجبانة ابيدوس ، اغتصب أوزير مكانه ، والخلط بين خنت ( جر ) ، وخنتى أمنتى ، نجم عنه خلط أخر بين خنت وأوزير » (٥٣) .
أما متى حدث ذلك ؟ فهذا ما جاء عند الباحثين عفوا ، دون أن يؤدى بهم إلى نتيجة نرجوها ، بالنظر إلى تسليمهم بقدم ( أوزير ) فيقول ( برستد ) فى معرض حديثة عن عدد من مقابر الموتى فى ( أبيدوس ) : « .. انه بعد انقضاء نحو ألف سنة على دفنهم ، نسى القوم تاريخ تلك المقابر ، وتفرسوا فى مقبرة زر أحد ملوك الأسرة الاولى ، فظنوها مقبرة أوزيريس » (٥٤) . وبحسبة بسيطة نجد تقدير برستد ( ألف سنة ) يأخذنا من الأسرة الاولى ، ليلقى بنا فى عهد بناة الاهرام او الأسرة الرابعة على وجه التقريب ، وهو التاريخ الذى افترضناه أقرب التواريخ الصحيحة لظهور ( أوزير ) .

ونضيف إلى ذلك ما أكده ( ميخائيل ) ، أن الملك ( جر ) لم يعرف باسم خنت إلا « .. ابتداء من عهد الدولة الوسطى » (٥٥) ، ذلك العهد الذى سجل سيادة ( أوزير ) الكاملة ، مما يعنى انه قبل ذلك ، لم يكن هناك مجال للخلط بين ( جر ) و ( أوزير ) ، وبالتالى نستنتج أن ( أبيدوس ) لم تكن قد عرفت بعد بأنها مقر ( لأوزير ) ، وعليه لم يكن ( أوزير ) قد ظهر وانتشر بعد .

ولما كان تقدير ( ميخائيل ) بعيدا بعض الشيىء ، نلجا إلى تقدير ( عبد الحميد زايد ) الذى رجح حدوث ذلك قبل الدولة الوسطى بقليل وهذا بدوره يذهب بنا إلى عهد بناة الاهرام ، وهذا مما يدعم توقيتنا لظهور ( أوزير )فى الاسرة الرابعة .

وبالاضافة إلى ما أوردناه من شواهد ترجح بشكل كاف حداثة ( أوزير ) فلدينا شاهد أخر واضح الدلالة ، على انه لا هو ولا أتباعه كانوا ضمن المجمع القدسى حين تكوينه ، إنما هم دخلاء عليه ، دخلوه نتيجة لظروف جدت ، والشاهد يتضح فيما حدث من صراع بين عقيدة ( رع ) الذى أعتبرته الديانة الملكية الرسمية رب الخلود الأعظم ، وبين عقيدة (أوزير ) (٥٦) ، وهو صراع لا معنى له لو كان ( أوزير ) عضواً أصيلا بالمجمع القدسى منذ عصوره القديمة ، لكنه يصبح مفهوما . لو نظرنا إلى ( أوزير ) وأتباعه كآلهة-حديثة ظهرت كمنافس للعقيدة الرسمية ، مما حدا بها إلى الوقوف من هذه الآلهة الناشئة موقف العداء ، وأن تدخل معها صراعاً ترك أثاره مسجلة فى متون الاهرام(٥٧) ،

حتى « .. أنه لا يزال توجد نصوص واضحة لا يتطرق إليها الشك ، ترجع إلى عصور ، كان فيها أوزير يعتبر عدو الموتى ( الملوك ) .. وهذه النصوص تشتمل على تعاويذ ، كان الغرض منها

منع ( أوزير ) وأقاربه من دخول الهرم — وهو قبر شمس — بقصد سيىء » (٥٨) ، حتى أسمتهم المتون « .. عصابة أوزير » (٥٩) .

ويبدو أن السبب الذى أدى فى النهاية لدخول ( أوزير ) وأتباعه المجمع القدسى ، يعود إلى ما بلغة ( أوزير ) من علو الشأن والقوة بين العقائد ، حتى اضطر الكهنة الرسميون بما عرف عنهم من « .. حرصهم على أن يكون لا لهم السيادة فى البلاد » (٦٠) ، وخشية على إلههم الذى لم يزل بعد منهكاً فى صراعه مع ( فتاح ) ، اضطروا للتنازل عن موقفهم الصلب ، وإدخال ( أوزير ) وجماعته إلى المجمع أنهاء للمشكلة ، وتتضح رؤيتنا هذه فيما تركه لنا التاريخ ، فهو يؤكد أن ( أوزير ) « .. لم يكن أصلا إلها شمسياً » (٦١) ، أى لم يكن ضمن المجمع ، بدليل أن متون الأهرام ، قد تضمنت « .. تعريضات مستقبحة بهذا الإله ، وتهجمات مباشرة أحياناً على آلهة أسرته » (٦٢)بل وبها بعض النصوص التى لا تعدو مجموعة من الشتائم القبيحة ، فتنعت ، ( ست ) بالخصى و ( إيزى ) بالمنفوخة من العفونة ( أى من الحمل السفاح ) ، و( نفتيس ) بداعرة بلا رحم (٦٣) ، ولكن « .. فى الوقت الذى كانوا يجهزون فيه متون الاهرام ، كانت سمعة اوزير قد انتشرت إلى حد بعيد ، جعلت منه عظيماً ، يتحتم إدخاله فى هذه التعاليم الجديدة » (٦٤) وعلى الرغم من انه بين « .. هذه النصوص ما يرجع تاريخه إلى ما قبل حكم الأسرات ، فان بعضه قد غير وبدل بمرور الزمن ، كى يتمشى مع عقيدة أوزيريس ، وإن لم يكن له علاقة بالمرة » (٦٥) .

ولكن تنازل العقيدة الملكية كان محدوداً ، بحيث دخل ( أوزير ) وأتباعه المجمع القدسى كأتباع تالين للآلهة الكبرى ، وليسوا كأعضاء أساسيين فيه ، ويشير كل من ( إيمار ) و ( إبوايه ) إلى هذا المعنى بتاكيدهما أنه « لم يقم الكهنة بأى جهد لإحلاله فى المقام الأول ، بل حاول بعضهم على نقيض ذلك — فى عهد الدولة القديمة — أن يحاربوه

مداوره ، عن طريق بعض الإلهات ، من أسرته ، ولم يدخلوه إلا على مضض ، فى هوامش مذاهبهم اللاهوتية »[٦٦] . وكان نتيجة هذا التنازل أن « .. حرفت متون الاهرام فى بعض أجزائها »[٦٧] ، لهذا الغرض بالذات ، وكانت النتيجة « .. ارتفاع نفوذ أوزيريس وانتشاره على حساب عقيدة رع »[٦٨] ، لينتهى — كما سنرى — إلى اغتصاب مكانه ، والحلول محله ، كما سبق وحدث مع آلهة اخرى اعترضت طريق ( أوزير ) .

وإذا كان قدم ( أوزير ) يستند إلى دليل قدم حبيبته ( إيزى ) باعتبارها — عند الباحثين — من إلهات فجر التاريخ ، فإن دخول هذا الدليل ميدان التحليل الإختبارى ، يوضح أن فيه نوعاً من الإلتباس ، نتج فيما نظن عن الخلط بين ( إيزى ) وبين إلهة أخرى تشبهها ، اشتهرت فى عصر فجر التاريخ باسم ( حت حور ) او ( هاتور ) « .. إلهة افرود يتوبوليس — القوصية — ودندرة ، وسيدة المقاطعات السادسة والعاشرة والرابعة عشر .. وكانت تحمل على الرأس قرنين عاليين ، على شكل قيثارة ، بينهما قرص الشمس ، .. وقد جعلوها حسب الثواليث أما للإلة حور »[٦٩] الأكبر إلة التوحيد القديم ، ويبدو لنا أنه بظهور أسطورة ( أوزير ) ، وحتى تظهر هذه الأسطورة بمظهر الأصالة والعراقة ، فقد قام المؤمنون بها يلقون ( إيزى ) فى مرآة القديم ، حيث كانت هناك ( حت حور ) ، التي افترضوا أنها لم تكن سوى ( إيزى ) ، خاصة أن ( حت حور ) كانت أم الإله ( حور ) الأكبر ، وأن ( إيزى ) بدورها أم لإله يدعى ( حور ) من حبيبها ( أوزير ) ، فقامو بوضع . تاج ( حت حور ) — القرنين وقرص الشمس — على رأس تماثيل ( إيزى ) ، فجاء هذا الخليط ليشكل شركاً سهلا للباحثين فى المصريات ، ليقعوا فى الخلط القديم ، ويظنوا أن ( إيزى ) إلهة من إلهات فجر التاريخ ، عندما يشاهدون تماثيلها تملأ

الوادى ـــ منذ فجر التاريخ ـــ وقد حملت التاج المقدس ، وهو بالضبط ما أراده عشاق ( إيزى ) وعُبّادها من ألوف السنين .

وهكذا لم يعد للنظرية السائدة عن قدم ( أوزير ) سوى دليل أيام النسيئ التى سميت بأسماء أعضاء الأسرة الأوزيرية ، وهو من الأدلة التى لا تقوم على سند يقينى ، فمن المحتمل أن يكون المصريين قد عرفوا أيام النسيىء ، منذ فجر تاريخهم ، لكن محتمل أيضاً أنهم لم يسموها بأسماء الأوزيرية إلا فى مرحلة أحدث ، أى بعد الظهور الأوزيرى ، خاصة أنه ليس من دليل قديم واحد من فجر التاريخ ، يسجل أيام النسيىءبأسماء أعضاء الأسرة الاوزيرية .

وإلى هنا أتصور أنه قد بات فرضنا مدعماً ، **ولا يبقى أمامنا سوى رفض القول بقدم ( أوزير ) والتسليم بحداثته ، رغم خطورة هذا الأمر ، وجدتة على البحوث التاريخية فى مصر القديمة .**

ولا يبقى سوى التساؤل : إذا لم يكن ضمن الألهة الملكية الرسمية أصلا ، واذا كان قد ظهر فى الأسرة الرابعة بالذات ، وهى العهد الذى بلغت فيه معاناة المعدمين أقصاها وذروتها ، واذا كانت الاسرة الرابعة مبتدأ تجذير الثورة المصرية الأولى ، فهل كان ( أوزير ) هو الإله العادل ، الذى بحث عنه العقل الجماهيرى ليستبدله بالآلهة القديمة ؟

# هــوامش

١ ــ د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ج ١ ، ص ٢٨٠

٢ ــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٣١٥

٣ ــ إرمان : ديانة مصر : سبق ذكره ، ص ٤٨

٤ ــ الموضع نفسه

٥ ــ د . عبد الحميد زايد : مصر . سبق ذكره ، ص ٤٢١

**6 Frank fort, King shipe and the Goods, universiry of chicagopress, sixth impression, 1969, PP. 182. 185.**

٧ ــ رو دلف آنيس : سبق ذكره ، ص ٣٠ ، ٣١

**8- OP. cir .183.**

٩ ــ إيمار وَإبويه : سبق ذكره ، ص ٩٢

١٠ ــ دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٩٠

١١ ــ د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ،ج ٤ ، ص ١٦٥، ١٦٦

١٢ ــ نفسه : ج ١ ، ص ٧١

١٣ ــ د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٣٠٤

١٤ ــ ارمان ورانكه : سبق ذكره ، ص ٣٢٩

١٥ ــ دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٦٩

١٦ ــ إرمان : دياهنة مصر : سبق ذكره ، ص ١١٥

١٧ ــ نفسه : ص ٩٨

١٨ ــ للمزيد انظر Zaged, Aby dos, P.33, انظر أيضاً : اليزابيث رايفشتال : سبق ذكره : ص ٢١٥ ، وإيمار وابويه : سبق ذكره ، ص ٩٢ ، و د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ١٦٦ ، ود اريك بيت : الحياه فى مصر فى الدول الوسطى ، سبق ذكره ، ص ١٧٢ .

١٩ ــ د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ، ٢٦٢ .

20- Zoyed, ABYDOS,P.13.

٢١ ـــ ج . سليم حسن : سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٩٨

٢٢ ـــ نفسه :ص ٥٣٣

٢٣ ـــ د . عبد الحميد زايد : مصر الخالده ، سبق ذكره ، ص ٤٢١

٢٤ ـــ برستد : فجر ذكره ، ص ١٦٠

٢٥ ـــ د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ،ص ٢٥٩

٢٦ ـــ نفسه : ص ١٧٧

٢٧ ـــ نفسه : ص ١٨٨

٢٨ ـــ نفسه : ص ١٩١

٢٩ ـــ دريتون وفانديه : ذكره ، ص ٧١

٣٠ ـــ د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ١٩٣

٣١ ـــ نفسه : ص ١٩١

٣٢ ـــ نفسه : ص ١٩٦

٣٣ ـــ ارمان . ديانة . سبق ذكره ، ص ٣٥

٣٤ ـــ أتش : سبق ذكره ، ص ٦١

٣٥ ـــ د عبد الحميد زايد : من اساطير .. سبق ذكره ، ص ٨٢٢

٣٦ ـــ اليزابيث رايفشتال : سبق ذكره ، ص ٢١٤

37- Zayed, ABYDOS,P.12

٣٨ ـــ ذ . عبد الحميد زايد : من اساطير .. ، سبق ذكره ، ص ـــ٨١٨

٣٩ ـــ إرمان : ديانة . سبق ذكره ، ص ١٠٥

٤٠ ـــ نفسه : ص ٢٩

٤١ ـــ نفسه : ص ٥٠

٤٢ ـــ نفسه : ص ٥٩

٤٣ ـــ نفسه : ص ٥٢ ، ٥٣

٤٤ ـــ د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ، ص ١٣٦

٤٥ ـــ د . عبد الحميد زايد : من اساطير .. سبق ذكره ، ص ٨١٨

٤٦ ـــ دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ـــ٦٩

٤٧ ـــ نفسه : ص ٧٩ ، أنظر أيضاً أرمان : ديانة .. سبق ذكره ، ص ٧٨

٤٨ ـــ نفسه : ص ٨٢

٤٩ ـــ د . محمد أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ١٧٥

٥٠ ـــ د . نجيب ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٢٦١

51 Zayed, ABYDOS S,P20

٥٢ ـــ د . نجيب ميخائيل : ج ١ ، ص ١١٢

٥٣ ـــ برستد : كتاب تاريخ .. سبق ذكره ، ص ٣٢

٥٤ ـــ د ميخائيل : ج ١ ، ص ١١٢

٥٥ ــ للمزيد حول الصراع بين رع وأوزير ، إرجع إلى Breasred. Deve / opment of the Religion and thought in ancient Egypt, NEW YORK. 1912. / PP 139. 14056- Zayed, ABY Dos, P.15

٥٧ ــ برستد : فجر : سبق ذكره ، ص ١٢٢

٥٨ ــ نفسه : ص ١٠٨

٥٩ ــ زايد : مصر .. سبق ذكره ، ص ٤٢١

٦٠ ــ ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٢٦٢

٦١ ــ إيمار وابويه : سبق ذكره ، ص ١٠١

62- Speeleers :

Truduction, Index et vocabulaire des Textes de Piramides, Braxelles, S.D.PP. 155-156

٦٣ ــ ميخائيل ــ: سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٢٠٥

٦٤ ــ برستد : كتاب تاريخ .. سبق ذكره ، ص ٤٤

٦٥ ــ إيمار وإبوية : سبق ذكره ، ص ٩٣

٦٦ ــ إرمان : ديانة .. سبق ذكره ، ص ٢٣٥

٦٧ ــ محمد العزب : سبق ذكره ، ص ١٤١

٦٨ ــ دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٧٠

# الفصل السادس
# الجماهير تغزو عالم الخلود

وللإجابة على السؤال المطروح ، نمهد بخلاصة لما انتهت إليه الفصول السابقة ، فقد انتهينا إلى كشف النقاب عن ثورة كبرى شملت البلاد جميعها بدأت نظرياً إبان بناء الأهرامات الكبرى ، فى عهد الأسرة الرابعة ، ثم ظهرت نذرها العملية غداة تمرد النبلاء على الحكم الملكى فى الأسرة الخامسة بالتحالف مع قوى الجماهير المعدمة ، حتى تفجرت شعبيا تفجيرا شاملا فى عهد ( بيومى الثانى ) آخر ملوك الاسرة السادسة .

وفى غمرة هذه الأحداث ، ظهر فى الأسرة الرابعة إله جديد هو الإله ( أوزير ) الذى أخذ يقوى ويشتد من أواسط الأسرة الخامسة ، إلى حد دخل معه متون الأهرام ، عقر دار الديانة الرسمية ، ليسجل مع اتباعه فيها ، الى جوار سيد الآلهة الملكى ( رع ) الأونى ، حتى يسجل نصره وسيادته على كل الأرجاء المصرية فى عصر الدولة الوسطى .

وهنا بالضبط نرى أعظم أسرار الثورة ، وأكبر جدل وتفاعل تم خلالها بين واقع المجتمع والسياسة وبين الفكر الدينى ، لأن المعنى يصبح : أن الثورة النظرية فى الأسرة الرابعة ، لم تكن سوى العقيدة الأوزيرية ذاتها ،ظهرت بداية كنوع من التمرد السلبى ، بأعتناق عقيدة

تخالف بل وتعارض العقيدة الرسمية ، فى عهد عمل فيه كل الأفراد فى السخرة لبناء مقر خلود الملك .

ولما كانت الدولة القديمة لا تزال فى عنفوان مجدها وجبروتها ، فقد اتخذت الثورة مظهرها فى اعتناق عقيدة تخالف العقيدة الحكومية ، وكان طبيعيا أن يصنع خيال الحكماء الشعبيين فى وقت المحنة والمظلمة ، إلها يشاركهم محنتهم ومظلمتهم ، فيموت ظلماً وجوراً ، كما يموت المسخرون حول الأهرامات العتيدة ، وتنطبع الأسطورة الجديدة بطابع جديد على الفكر المصرى ، فتحول همها نحو الفقراء ، ومشاكل العوز والحاجة ، وآمال الضعفاء وطموحاتهم ، وتصور الحل الأمثل لهذا الوضع الاجتماعى المختل ، **لتصبح الأوزيرية هى التعبير الأيديولوجى عن الثورة الشعبية**

ومن هنا سلبت الأسطورة الأوزيرية صفات النبل الحقيقى والرقى الخلقى من الطبقة الغنية المتميزة ، وأعادتها إلى أصلها الحقيقى بنسبتها إلى الطبقة الفقيرة ، وفى ثنايا أسفار الأسطورة الطويلة ، أحداث تزايدات وتراكمت بمرور الزمن ، وباختلاف الأحداث ، لكنها — بشكل عام — تظهر الاتجاه الشعبى بشكل يتضح تدريجياً لكن بأصرار ، ونموذجاً للحل الأمثل الذى طرحته الحكمة الشعبية ، لمشكلات الصراع الطبقى ، نجتزىء من الأسطورة الاوزيرية هذا الحدث الهام :

عندما سقط الطفل الإلهى ( حور ) صريع السم
هرعت الإلهة الأم تبحث عن ملجأ ومأوى ومداوى
أوصدت المرأة الغنية أبواب قصرها
أوصدته فى وجه الأم ووليدها المحتضر
( مع تصوير ذلك بألفاظ تعبر عن الخسة فى أدنى معانيها إلى الدناءة )

ولم يعد أمام الأم المقدسة ، والربة العذراء
إلا أن « .. استصرخت أهل المناقع القريبين منها ،
فواساها فقراؤهم
وهرعوا إليها بقلوبهم
وتركوا بيوتهم »
وتلقفت الطفل امرأة فقيرة ،
وفتحت له ولامه أبواب حظيرتها
وخففت عن الام محنتها ( دون أن تدرى من هى ؟ )
وسهر الفقراء على الطفل حتى عوفى
وبينما تزحف العقارب على بيت السيدة الغنية البخيلة
لتلدغ ابنها المرفه حتى الموت
تكشف الإلهه العظمى عن ذاتها العلية
وتعلن قرارا واضحاً فى المعانى والمغازى
**هو أن تؤول ثروة الغنية إلى الفقيرة**
التى وسعتها فى حظيرتها **وفى قلبها**
ثم تعقب على مصير الغنية بقولها :
أنظروا لقد ابتلعت لعابها
لدغ طفلها ، وخسرت مالها
لأنها
**لم تفتح لى بابها** »[1] .

ولعل هذا الحل المبكر جداً للصراع الطبقى ، يقال هنا ، ولأول مرة فى التاريخ الإنسانى ، مصحوباً بالتهديد والوعيد لكل من لا يؤمن بآلهة الشعب ، ويضعها فى قلبه ، وبأوامر هذه الآلهة ، التى ظلت تصدر طوال الأسطورة لصالح المعدمين والمقهورين ، والتى استمرت تؤجج النفوس الموتورة ضد الظلم الاجتماعى ، لتنتهى إلى إنتصار ( أوزير ) المظلوم فى نهاية الجولة معبرة بذلك عن نهاية دولة الظلم وأن طال

أمدها ، لأن الآلهة قررت الموت وخسارة المال ، والبنين ، لمن لا يفتح الباب لها ، ومن ثم فلا بد أن يقهر المقهور قاهره .

وتأصيلا للإله الجديد ، فقد عادوا به إلى الماضى السحيق ، وأكدوا ان ولده ( حور ) ليس سوى ( حور ) الأكبر إله التوحيد القديم ، وان أمه ( إيزى ) ليست سوى تلك المحفورة على جدران المعابد القديمة ، ذات القرون التى تحوى قرص الشمس ( حت حور ) ، وأن ( أوزير ) هو الملك العادل الصالح ، الذى حكم بالمحبة بين الناس ثمان وعشرين عاماً ، مساواة ورخاء وسلام ، واطمانت القلوب إلى ربها ، فهفت النفوس إلى الشهيد وعدله فكان أن بدأ « .. الإنتظار لملك منقذ ، لشخص يحل فيه رع الحقيقى »[٢]

وحيث أن حلول ( رع ) الحقيقى ، كان فى الثالوث الأوزيرى المقدس أو فى ( أوزير ) بالذات ، فقد بدأت تسرى بين الجماهير عقيدة جديدة ملخصها « .. فكرة عن أوزير ومجيئة ليصلح كل شيىء »[٣] ،وعليه يسجل المنطق المستنتج من الأحداث ، ظهور ( **عقيدة المخلّص** ) لأول مرة .

وإذا كان ( أوزير ) قد صعد إلى السماء ألها بعد موته ، فلا ريب أنه كان من الأصل إلها ، لكن السؤال كان هو : لماذا يأتى إله إلى الأرض ، ويترك نفسه رغم قدرته ليقتل ظلماً وعدواناً ؟ لا ريب أن هناك دافعاً قوياً ، ومعنى عظيماً ، وراء مجيىء الإله ، نعم إن النصوص لم تحمل لنا نصا واضحا مباشرا يشرح ذلك ، لكن إعمال المنطق فيما سلف ، إضافة لما سنورده لاحقا ، يؤدى ، إلى استنتاج أن هذا الدافع كان **خلاص البشر وفداء لهم** وحملا لخطاياهم عنهم ومن هنا يكون أوزير **هو الفادى الأعظم الأول** ، وبالمنطق ايضاً لايمكن القول بظهور عقيدة **المخلّص** ، دون ربطها بعقيدة **الفداء** ، لأنه إذا كان أوزير قد جاء من

قبل ليقيم دولة الغدل والمحبة والمساواة الطبقية ، فلا ريب أنه سيعود « ليصلح كل شيىء » فهو قد غادر فعلا ، لكن ليعود ، وعليه فلابد ان يقوم المنطق مستمدا من اتساق المقدمات مع النتائج مداده ، سادا ثغرات لم تملأها الوثائق ، ليضع عقيدة **الرجعة من السماء** ، إلى جوار عقيدتى المخلص والفداء ، كثالوث مترابط لاتوجد واحدة منها ــ منطقيا ــ مستقلة عن الأخرى .

وسرى الإيمان بالعقائد الثلاث إلى القلوب النازفة ، لكن لا ليهدئها إنما ليشعلها ، فكما أن ( حور ) ابن الله لم يرضى بالظلم ، فثار وحارب الظلمة ، فقد وضع بذلك سنة تحتذى ، فالآلهة لا تسلك عبثا ، إنما لحكمة كبرى تتبع ، وهنا عين الحكمة ، فلكى يعود الحق ، فلابد من ثورة وقتال ، هكذا قررت الآلهة ، وهذا ما ينبغى أن يكون ، ولما انتهت العقول إلى هذه القناعة ، دخلت العقيدة ، الأوزيرية صراعاً علنيا مع العقيدة الملكية ،فى نهاية الأسرة الرابعة تقريباً .

ويلخص المؤرخ والآثارى الكبير ( سليم حسن ) ماحدث خلال تلك الفترة المرتبكة من تاريخ الديانة المصرية القديمة بقوله : « .. عندما حدث الصدع العظيم عند نهاية الدولة القديمة ، وجدنا المذهب الأوزيرى الذى كان لاشك **مذهب عامة الشعب** ، أخذ ينمو وينتشر . ويزداد قوة على قوة ، ونفوذاً على نفوذ ، مما وسع هذا الصدع ، وسمح لأفكار الشعب الدينية ومعتقداتهم ، أن تندفع إلى الخارج ، وتأخذ فى الظهور فى صوره حمم ملتهبة ، على أن الشعب لم يكتف فى أى مكان من البلاد بحرية **التعبير عن معتقداته وصلواته الخاصة** ، بل طالب بحق التمتع بالجنة السماوية التى وعد بها الملوك ، فأجيب مطلبه بعد حرب شعواء قلبت خلالها كل الانظمة الاجتماعية رأسا على عقب »[٤] .

ودون استباق للأحداث ، يمكننا القول الأن :

١ ــ ان المرحلة التطورية التالية لعقيدة الخلود ، قد جاءت مصاحبة لحدثين هامين وخطيرين هما :

ــ الثورة الجماهيرية الشعبية

ــ ظهور الإله ( أوزير ) مع عقائد لازمة للإيمان به هى :

. عقيدة القيام من الموت .

. عقيدة المخلص .

. عقيدة الفداء .

. عقيدة الرجعة من السماء إلى الارض

٢ ــ وان هذه المرحلة قد بدأت بدخول ( أوزير ) وأسرته إلى المجمع القدسى ، عندما لجأ كهان الملكية فى ( أون ) إلى مداراة الخطر الطالع ، برفع الإله الشعبى لمرتبة الآلهة الكونية ، وإدخاله مع أسرته إلى المجمع ، ليسجل إلى جوار ( رع ) الأونى ، فى متون الأهرام . ليتحول المجمع من خمس ألة كونية ، إلى تسعة **آلهة تجمع اللاهوت مع الناسوت ، أو الأولوهية مع البشرية** .

ولعل فى ذلك مايفسر لنا دهشة وتشكك ( إرمان ) و ( فرانكفورت ) و ( أنتس ) ، السالف الإشاره اليها ، وهو ما لخصه ( محمد انور شكرى ) بقوله : إن الأسطورة الأوزيرية قد انتشرت « .. انتشاراً واسعاً ، وقد اضطر كهنة عين شمس فى بداية الأمر إلى مقاومتها ، لكنهم أضطروا آخر الأمر **إلى التوفيق بينها وبين عقائدهم** ، وضم أوزير ومن تبعوه من الآلهة إلى آلهتهم ، وبذلك تألف التاسوع العظيم »(٥) .

ورغم أن كهان الملكية لم يضعوا ( أوزير ) وأسرتة ، فى مرتبة مساوية للآلهة الكونية الخمس ( رع ) وتوابعه ، إنما ضموهم تحت سيادة

( رع ) كأبناء له ، ضماناً لسيادته ، ورغم أنهم استطاعو بذلك — ولو مؤقتا — استبعاد فكرة المنافسة بين ( أوزير ) وبين ( رع ) ، بأعتبار أن ( أوزير ) ما كان ليخرق أقدس التقاليد المصرية فى إجلال الآباء ، والإ ما استحق التقديس كإله ، رغم هذا ، فان دخول ( أوزير ) وأسرته المجمع القدسى الأونى ، يشير إلى هزيمة سياسية وعقائدية واضحة وصريحة ، منيت بها الملكية وديانتها الرسمية أمام شعبها ، واعتراف معلن بهذه الهزيمة .

وكان لابد من بعض التعديلات فى ديانة الملكية ، بعد دخول ( أوزير ) المجمع القدسى ، كى يظل ( رع ) صاحب القداسة الاولى ، وتظل ( أون ) صاحبة السيادة والسلطان ، وكانت هذه التعديلات بداية لسلسلة من التنازلات والهزائم المنكرة للملكية وديانتها ، بدأت فى الأسرة الرابعة ، بدخول ( أوزير ) المجمع ، ثم تلاها انتشار واسع للعقيدة الجديدة بين أفراد الشعب ليأتى ثانى تنازل ،خطير ، باعتراف الديانة الملكية بعالم موتى يذهب إليه أفراد الشعب ، ليعيشوا تحت الأرض فى مملكة يحكمها ( أوزير )(٦) ،إلا أنه لم يكن عالم خلود ، قدر ما كان عالم أطياف غير محددة الماهية والشكل حتى ذهب الباحثون إلى القول : أننا « .. لانعلم شيئاً فى عهد الدولة القديمة ، عن المصير المحدد للفقراء بعد موتهم ، ولكن نرجح أنه كان ضعيفاً جداً »(٧) .

ويبدو أن ذلك كان ناتجاً عن أن العقلية المصرية ، ما كانت حتى هذا الوقت ، تتصور إمكان المساواة التامة مع الملك ، أو مجرد التفكير أن الخلود جائز لعامة الناس كالملوك ، لأن ألوهية الملك كانت لم تنزل حصناً منيعاً أمام هذه الفكرة ، فى وقت سادت فيه قاعدة تؤكد : أن الخلود من حق الآلهة فقط بحكم طبيعتها الإلهية ، وهى طبيعة فى الملك بحكم الوراثة ، ولا تتسنى لغيره من الناس ، بحيث أصبحت هذه الطبيعة قلعة حصينة للملوك ، تلغى أى فكرة عن المساواة التامة ، لانه لو خلد الجميع لتساوى الجميع .

أما كيف ومتى تحققت هذه الخطوة الكبرى بعد ذلك ؟ فهذا ما تجيب عليه أحداث الثورة الشعبية فى منتصف الأسرة الخامسة تقريباً ، فقد بات جلياً أن الهدؤ الذى تلى دخول ( أوزير ) المجمع القدسى ، كان هدنة مؤقتة ، ثوى خلالها الجمر الثورى تحت رماد من الهدوء الظاهرى بينما كانت العقيدة الأوزيرية تسرى بسرعة بين الجماهير ، التى وجدت بغيتها فى حكام الاقاليم النبلاء فى الأسرة الخامسة ، فقام النبلاء — كما سلف ، بتجميع هذه الجماهير بوجه الاستبداد الملكى ، بحيث استطاعوا أن يستقلوا بأقاليمهم عن العاصمة ، وبناؤها السلطان ، بل وأن يقتحموا عالم الملك الخالد ، عنوة واقتدارا ، دون أى مبررات منطقية ، فاستطاع ( أوزير ) بذلك ان يتحول من الجانب السلبى إلى الجانب الإيجابى ، ومن النظرية او الأيديولوجية إلى التحقيق الواقعى للثورة ، فكانت أهم نتائج هذا التلاحق للأحداث تباعاً هى :

- إنزال مركز الملك والصعود بمركز النبلاء على المستوى الواقعى بعد وقوفهم فى وجه الملكية كقوى مستقلة ذات سيادة
- بدخولهم عالم الخلود أوقفوا الملك معهم على قدم وساق ، و « .. بدأت الملكية تفقد كثيراً من قداستها والوهيتها ، ولم يعد يفصلها عن الشعب فاصل كبير » (٨) ، ومن ثم « ..أصبحت فكرة المساواة مقبولة من الناحية النظرية »(٩) .

وكما سلف ، فقد وضح أن اقتران المد الثورى الأوزيرى بقوة النبلاء جعل هذا المد محدودا فى أثره ، فالنبلاء كقوة محافظة لم يكن فى مصلحتها القضاء كلية على سيادة ( رع ) لحساب ( أوزير ) ، والا أعطت الجماهير سلاحاً ذى حدين ، حد باتجاه الملكية ، وحد باتجاه القوى النبيلة ذاتها ، ومن هنا كان تمرد النبلاء اعتماداً على قوى الشعب وعقيدته الأوزيرية ، مجرد مرحلة انتقالية من الحكم المطلق إلى الثورة الشعبية الشاملة ، وكان تمرد النبلاء واستطاعتهم ذلك على المستوى الواقعى ، كسرا لمعنى قدسى ، وشرخا ما كان تصور حدوثة فيما قبل ، وكان

الشرخ الأكبر هو دخول النبلاء لعالم الخلود ، فنسفوا بذلك نظرية الخلود على أساس الطبيعة الإلهية من أساسها ، وكان ذلك إيذانا برفض تأسيس الخلود على الطبيعة الإلهية ، وإلا ما خلد النبلاء قط ،

ورات الجماهير آمالها فى العدالة والمساواة تتبخر أمامها ، بعد أن استتب الأمر للنبلاء فى أقاليمهم ، وبدأوا بالضغط مرة أخرى على الأجراء والإثراء على حسابهم بعسف وإرهاب تجاوز مالحقهم من قبل ، ومن هنا شبت الثورة عن الطوق ، وتحولت إلى تدمير لامحدود ، حتى قطعت الجماهير الجائعة الطرق على الأثرياء ، واقتحمت عصاباتهم المسلحة أقدس الأماكن الأونية ، حتى الأهرام لم تمنعها قدسيتها من الثورة (١٠) ، ولم يصبح عالم الخلود شيئاً رفيعاً ، فاقتحموا على الموت سكونه ، وسلبوا الراقدين فى سبات الأبدية ، ثروات أصبح الأحياء الجياع أولى بها من أموات ماتوا تخمة وشبعاً .

وشجع ذلك على ظهور اتجاه ثورى جديد ،ذى ميول متطرفة ، أخذ جانب التشكك ، ثم التحرر ، فالهجر التام لكل المقدسات ، أخذ مظهره فيما أسلفناه من تهجم وتهكم على الآلهة ، أو ما جاء على لسان الفلاح الفصيح عندما صرخ فيه النبيل النهاب : « .. لاتكن كثيرا الضوضاء هكذا يافلاح ، ألا ترى ، إنك فى منزل أرض إله السكون » ، فرد عليه بعنف يحمل معنى هذا الاتجاه صائحا : « أتضربنى ، وتسرق متاعى ، ثم تريد أن يحرم فمى من مجرد الصياح ؟ **إذن : ياإله السكون ، هل تستطيع أن تعيدا إلىَّ ممتلكاتى ؟ إذا فعلت ، فلن أزعجك بصياحى »**(١١) .

ولأن العالم الخالد ، كان ملكيا خالصاً ، قاصراً على الملوك ، فقد رفض هذا الاتجاه الاعتقاد بمسألة خلود الملك أو غيرة أصلا ، واعتبرها أمرا ينافى المنطق والعقل السليم ، وتمثل ذلك فى أغنية ( العازف على الهارب ) استطاع صاحبها أن يلقيها بكل الجرأة الثورية المطلوبة ، فى

حفل جنازى ملكى مهيب ، أمام المقابر الهرمية الهائلة ، يقول ذالك الثائر المتحدى فى مقطع منها :

تأمل مساكنهم ، هنالك ،
فان جدارانها ، قد تهدمت
**ولم يأت واحد ، من هنالك**
ليحدثنا : كيف حالهم
ليخبرنا : عن حظوظهم
حتى تطمئن قلوبنا .
إلى أن نرحل نحن أيضا
إلى المكان الذى رحلوا اليه
**ولم يعد أنسان ثانية**
ممن رحلوا إلى هنالك
.. فى الارض
التى تحب الصمت
.. فلا يوجد إنسان
يعود ثانية ؟ ![12]

ولم يقدر لهذا الاتجاه الرافض تماما ، الاستمرار ، وسط تمسك الجماهير بعقيدتها الجديدة ، التى غلبت على السواد الاعظم .

وآمنت أن ( أوزير ) هوشريك فى المظلمة قام من الموت ، وما دام قد قام وصعد ، فلابد أنه سيعود ، ولا ريب أن عودته ستكون من أجل شركاء المظلمة ، من آمنوا به ، وآمنو أنه انتصر على الشر ، وعلى من ظلموه والأهم من آمنو أنه انتصر على الموت ، وكوفىء على صلاحه بالخلود .

وهنا يقف الفكر مليّا ليتسائل مع ( نجيب ميخائيل ) : كيف كان القوم يفكرون ؟ اذا « .. لم يكن الملك أفضل من الرعية ، فلم لا يصبح أفراد الرعية مثل أوزير كذلك ؟ ولم لا يصبحون جميعهم كذلك ؟

ولماذا لا يكافئون إذا أحسنوا العمل كما كوفىء أوزير ؟ وبماذا يزيد عنهم الملك حتى ينال النعمى فى الحياتين ؟ هكذا سيطر التفكير فى أوزير فى هذه الفترة على النقوش ، وود كل أن يصبح مثله إذا أنتهى أجله »(١٣)

ولما كانت الأسطورة تقول : إنه قد « .. أجريت على جثته لأول مرة ، المراسم التى تؤَمن البعث والحياة الأبدية »(١٤) ، أفلا يمكن بإجرائها على غيره من الأموات ، أن تؤَمن لهم نفس الامتياز ؟

واذا كان الملك قد ادعى أنه ابن ( رع ) ، أفلا يكون الإيمان بأوزير بديلا للبنوة ؟ أو هو البنوة ذاتها ؟

وهكذا على مايدو ، أخذت التساؤلات تدور بالعقلية الجماهرية حول فكرة الخلود ، وكيف يمكن أن يناله الجميع ؟ حتى انتهت إلى أن الإيمان به بنوة له ، وأن ( أوزير ) قد كتب بخلوده ، الخلود لكل من يؤمن به ، ومن يؤمن أنه **قد قام من بين الأموات ، لذلك بمجيىء أوزير قد أُبطل الموت** . وعندما ترسخت هذه القناعة فى النفوس — فيما نتصوره قد حدث — انتشرت المقابر بطول البلاد وعرضها ، للجميع ، بلا اى اسثناءات ، وكما كان للملوك متون أهرام ، فقد أصبح للشعب متون توابيت وكتاب للموتى ، حملت كل تصورات الشعب لعالمه الخالد .

وفى هذه المتون الشعبية ، وفى بعض القطع الأدبية ، بل وفى متون الأهرام نفسها — التى عدلت لتماشى الأوضاع الجديدة — نجد التأكيد أن ( أوزير ) أبو ( حور ) المناضل ، هو أب لكل المناضلين الذين أمنوا به ، فهو حقاً وصدقاً ( **أبانا الذى فى السماوات** ) ، ومن ثم نجد النصوص تخاطب الميت الصاعد إلى السماء قائلة :

تقول أيزيس :

سعيد من يرى الآب

وتقول نفتيس :

طوبى لمن ينظر إلى الاب
إلى أبيه
إلى أوزيريس
حينما يصعد إلى السماء
بين النجوم
بين المخلدين(١٥)

ولما كانت البا أو الروح أو الطبيعية الإلهية فى العقيدة الملكية ، هى سر الخلود ، وكانت ملكا خاصاً للملك ، تحدرت اليه عبر نسله الإلهى ، فقد اصبحت ــ إلى حد ما ــ مشكلة محيرة للعقل المصرى فى ظل الوضع الجديد ، لذلك « .. التجأ القوم إلى كل أنواع الحيل والاحتفالات الدينية ، ليصبح المتوفى «با» عند موته »(١٦) ، فلا شك انه إذا قبل الإنسان أوزير ( أبا ) ، فسينال ال ( با ) أو الطبيعية الإلهية ( ولنلاحظ تشابه الأبوة والبا ، وأبوة أوزير تمنح المؤمن باه ) وعند الموت ، فان أوزير سوف « .. يجعل جسده يضيىء كأجساد اهل السماء »(١٧) ، أى يصبح نوارنياً كالآلهه ، هذا بينما نلاحظ تخصيص الفصل الثانى من كتاب الموتى الجماهيرى ، لتأكيد الطبيعة الإلهية للميت المؤمن ، فيقول الم[illegible] عن نفسه :

إنى اتوم
وأنا الذى كنت وحيدا ( فى الازل )
وإنى رع
عند أول ظهوره
وإنى الإله العظيم خالق نفسه
والذى سوى أسماءه
رب الآلهة (١٨)

وكى يستطيع الميت أن ينال ال ( با ) ، فقد كان واجبا عليه أن يتطهر أولا ، ويتعمد بالماء ليؤكد بعد ذلك فى متنه الجنازى :

إن خطيئتى
قد أُقصيت ، عنى
ومُحى ، إثمى
لقد طهرت نفسى
فى تينك البحيرتين
العظيمتين
اللتين
فى إهناس[١٩]

وكان نتيجة هذه التطورات المتلاحقة أن تلاحق الناس يتسابقون من أرجاء مصر ، لزيارة رب البيت ( أوزير ) ، والطواف حول بيته فى ( أبيدوس ) حتى أصبحت زيارة قبر الحبيب الشهيد بمرور السنين ، حجا وفريضة إجبارية ، على كل من استطاع إليه سبيلا ، ومن ثم أصبحت السنة المستحبة ، هى الدفن بجوار المشهد الأوزيرى .

وفى أبيدوس ، حيث بيت ( أوزير ) المغمور بالحجاج ، يطوفون حوله سبعاً خاشعات ، ظهرت لأول فى التاريخ البشرى **مسرحية الآلام** أو أسرار أوزير ، وهناك أيضاً تطور طقس التعميد ، فكان المؤمن يتلقى عماده من الكهان **بصب الماء على جسده** [٢٠] ، **وبرش الماء على الاجساد تكثر البركات ، ويتذكر المؤمن دماء الشهيد ، ويتناول قطعاً من القربان الممزق ، تذكره بالجسد الطاهر الذى مزقه الشرير ( ست ) . ورغم أن كل هذه كانت طقوساً حياتية فإنها كانت زاد أخروياً ، وهذا جانبها الأهم ، فعندما يذهب الميت إلى الخلود معمداً ، فسوف يدعى هناك للقيام بعملية تطهر أخرى ، بالماء يصب فوق الاجساد ، أو بالاستحمام فى البحيرة المقدسة ، الواقعة فى**

الحقول المباركة [٢١] ، وبعدها سوف « .. يغتسل مع رع ، فى بحيرة ياور ، ثم يجفف حور جسده »[٢٢] .

وقبل الاحتفال العظيم بمسرحية الآلام ، كان الكهان يرتلون أناشيدهم ، حليقى الرؤوس ، بثياب بيض ، أمام لوحة قدسية للأم العذراء ( إيزى ) ، وهى ترضع طفلها الإلهى ( حور ) ، وتحيط برأس كل منهما هالة مستديرة ، رمزا لأصل ( حور ) الشمسى ، فى العقيدة الملكية القديمة ، لتبدأ بعد ذلك الاحتفالات ، فى أواخر شهر ديسمبر أى فى الوقت الذى يتفق ومولد الشمس [٢٣] ؟ ! . ويستمر الإحتفال من الأيام ثلاثاً متتالية ، تمثل فيها المأساة يوم مات أوزير غدرا وسط نحيب الجماهير ، ويوم البحث عن جثته وسط تلهف الجماهير على ربها ، واليوم الثالث يوم العثور على جثمانه الطاهر وقيامته المجيدة ، وسط تهليل الجماهير وفرحها [٢٤] ، ليصبح عيد القيامة المجيد أعظم الأعياد المصرية ، تذكرة بقيام الفادى الأعظم من بين الأموات ، وصعوده إلى السماء بعد موته بأيام ثلاثة ، ليجلس عن يمين عرش أبيه السماوى .

وهكذا ، وكما عاد ( أوزير ) للحياة خالد ، فقد كتب بخلوده . الخلود لكل من يؤمن به ، فى عالمه ، الذى اخذ بالانتقال التدريجى من تحت الأرض إلى السماء ، حيث أصبح ( أوزير ) فى العصور التالية ، سيدا لعالم السماء الخالد ، بلا منازع .

ولما استقر الإيمان بذلك ، انتشر القوم ينشرون مقابرهم فى مصر كلها بينما أخذت متون التوابيت وكتاب الموتى صيغا لمتون الأهرام السابقة ، وآمن الجميع بخلود الجميع ، وتدعيماً لمبدا المسواة الأخروية بمساواة دنيوية ، انتشر بين الناس خطاب جديد فى نوعه ، نسبوه إلى ( رع ) ، حتى يكون اعترافاً بحقوقهم من قبل إله الملكية ، يقول فيه :

لقد خلقت أربعة اشياء عظيمة
داخل بوابة الافق

خلقت الرياح الأربع
التى يستطيع أن يستنشقها
**كل انسان كزميله**
الذى يعيش زمانه
هذا هو العمل الأول ..
وخلقت الفيضان الظيم
**للفقير فيه حق مماثل لحق الرجل الغنى**
وهذا هو العمل الثانى
وخلقت كل رجل مثل زميله
ولم آمر بأنهم يعملون فى السوء
ولكن قلوبهم هى التى أفسدت ماقلت
وهذا هو العمل الثالث
وجعلت قلوبهم تفكر دائما فى الغرب ..
وهذا هو العمل الرابع (٢٥)

والجدير بالذكر هنا ، الإشارة إلى أن المراحل التطورية التالية لعقيدة الخلود الشعبية ، قد أخذت بالتداخل مع العقيدة الملكية مع قيام الدولة الوسطى ، حيث حظيت عقيدة ( أوزير ) باعتراف ملكى كامل ، إلا أن التطور بدأ عندها يأخذ منحى آخر ، توازت فيه مصالح الملكية مع المصلحة الشعبية بمحاولات كهنوتية للحد من تطور الأفكار الشعبية الثورية .

وكان نتيجة دخول عقيدة الخلود مرحلتها التطورية الجديدة من خلال مصالح ومفاهيم طبقتين متباعدتين تماماً ، هو — فيما نرى — السبب الجوهرى ، الذى أدى إلى التضارب الذى رآه الباحثون فى عالم الخلود ، والذى لم يكن — فى الحقيقة — تضارباً ، قدر ما كان تدخلا لعالمى الخلود : الملكى والشعبى ، ليشكلا معاً هجيناً خليطاً بين الخلود

الملكى الروحانى بالاتحاد مع الشمس ( رع ) بركوب مركبه السماوى ، وبين الخلود المادى الذى طمحت اليه الجماهير تحقيقاً لكل ما حرمت منها دنيوياً ، وقد أدى هذا بدوره إلى اختلاط التصورات حول مكان الخلود ، مما يجعل البحث عن مكان الخلود الشعبى مسألة عديمة الجدوى ، ومضيعة للجهد والوقت بعد أن تداخل العالمان ، السفلى الشعبى ، والسماوى الروحانى الملكى ، فجاءت النصوص بمزيج تام من كليهما ، وكل ما يمكن ايراده هنا يدخل ضمن تصورات الشعب لعالمه الخالد .

لقد كان عالم تحت الأرض السفلى بالنسبة للجماهير ، عالم خلد بدنى وعند الثورة انتقل إلى السماء مختلطاً بالخلوذ الملكى ، مصبوغاً بآمال المحرومين فى عالمهم الخالد . ففى البداية اعتقد الشعب أن الميت « .. يذهب إلى حقول ياور ، حيث ينمو الشعير والقمح إلى أرتفاع سبعة أذرع وأنه يحرث الأرض ويحصدالمحصول ، فإذا أدركه التعب فى المساء ، جلس تحت شجرة الجميز ( ولنلاحظ أنها من أكثر الأشجار تعميراً ) ، ولعب الشطرنج مع أصحابه ورفاقه »[٢٦] .ثم تنتقل التصورات فجأة إلى السماء ، فتقول : إنهم سوف « .. يعيشون مخلدون فى حقل الفيضان االسعيد ، الحدائق السماوية ، حيث توجد الوفرة والأمن على الدوام »[٢٧] ، بينما يقال للمتوفى :« إن أبواب السماء مفتوحة لجمالك ، إنك تصبعد .. وذنبك مغفور .. »[٢٨] .

وبجانب السماء كمقر للخلود ،تعود النصوص دائماً لتصوراتها السفلية ، كما جاء فى كتاب الموتى ، أن الميت سيكون له « .. مقره أمام الإله العظيم .. وهو يخرج إلى حقل ياور ..يدخل ويخرج فى العالم السفلى ويسكن حقل ياور ، ويقيم وقتاً فى حقل **الطعام** ،ذلك المكان الفسيح ، ذو الرياح الكثيرة ، حيث هو هنالك قوى ممجد .. **ويشرب ويحب** »[٢٩] . أو كما فى القول : إن الميت سيهبط « ..للعالم السفلى

المظلم .. وإلى هذا المكان سوف تنتقل حقول البهجة والسرور وغابات البردى »[٣٠] .

وظاهر أن الجماهير قد وضعت فى عالمها الآخر كل مشتهياتها التى حرمت منها قبلا ، ولم تنس التأكيد على أهمية الطعام بأنواعه ، مثل قول الميت : لسوف آكل « .. سائر **أطعمة** سيد الابدية ، .. وأتلقى **غذائى** من **اللحم** الذى على **مائدة** الإله العظيم »[٣١] .

وهكذا انتهى الأمر إلى خلط كامل بين عالم السماء ، وعالم تحت الارض بل تصوروا أن الوصول للعالم الخالد ، لابد وأن يمر أولا من الجيزة حيث الأهرامات العظيمة ، أول رموز الخلود واكثرها إيحاء به « فترينا أحد خرائط العالم الثانى أن من يدخل مملكة الموتى ، ممن يكونون فى المكان المقدس **روستاو**وبالقرب من **الجيزة** ، فإنه يجد أمامه سبيلين مفتوحين يؤديان إلى مملكة الابرار »[٣٢] ويؤكد لنا ( سليم حسن ) أن روستاو هذه « .. كانت عالماً سفلياً » و « هذا الاسم كان بادىء الامر يطلق على جبانة منف ، منذ الدولة القديمة .. وكان يطلق بنوع خاص على جبانة **الجيزة** ، القريبة من منطقة الاهرام »[٣٣] . ويضيف ( ادولف إرمان ) « وزاد الشعب فى صورة مقر الابرار ، فتصور كأنه مجموعة من الجزر **تحيط بها المياه المختلفة** .. وتسمى إحدى هذه الجزر حقل **الاطعمة** وهى بهذا تدل على أن الطعام فيها وفير ، ومن ثم يستقر فيها الآلهة والمخلدون ، وأزكى منه شهرة حقل ياور ، وهو حقل الإسل الذى ظل المصريون حتى عصورهم **المتأخرة** ، يعتبرونه مقر المجدين ، ومما لايحتاج لبيان ،، ان المصريين تصوروا **هاتين الجنتين** على شاكلة بلادهم نفسها ، إذ يغمرها الفيضان ، ويزدهر فيها الزرع بما يوفر للموتى طعامهم .. وفى الشرق من السماء .. **شجرة الحياة** التى يعيشون عليها والتى يغذى ثمرها الأبرار أيضاً ، وإلى جانب ذلك فإن إلهات السماء تزود الميت بطعام أصرح طهراً وبراءة .. »[٣٤]

وتقول النصوص ان الميت فى مقر الخلد

يتلقى نصيبه مما فى شونة الإله العظيم
ويلبس من الثياب مالا يفنى
وله من الخبز والجعة ما يبقى ابداً
وهو يأكل خبزه وحده ..
طعامه بين الآلهة
وشرابه النبيذ[٣٥]

بل وسوف
.. تكون له نساء حسناوات

يتمتع بهن
**ويقوم بكل المهام[٣٦]**

وهكذا أصبح عالم الخلود متنفسا ماديا لكل الرغبات وبدا حلماً جميلا ، وأملا مقبلا ، كان لهُ دور كبير فى انتكاسة الثورة وتحول التغيير الثورى إلى قناعة بالعالم الآتى .

# هــوامش

١ ـــ د . صالح :: سبق ذكره ، ص ٣٣٠

٢ ـــ كوك : سبق ذكره ، ص ٦٨٦

٣ ـــ د . ميخائيل : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ، ٢٧٥ .

٤ ـــ د . سليم حسنى : سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٥٣٣

٥ ـــ د . محمد أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ١٧١

٦ ـــ برستد : كتاب تاريخ مصر : سبق ذكره ص ٣٦

٧ ـــ إيمار وابوايه : سبق ذكره ص ١٠١

٨ ـــ أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ١٠٩

٩ ـــ جون ولسن : سبق ذكره ، ص ٢٠٠

١٠ ـــ أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ١٧٣

11- FranK fort, Kingship and .. P 408 ـــ ١١

١٢ ـــ برستد : فجر : سبق ذكره ، ١٧٥ ، ١٨٢

١٣ ـــ ميخائيل : سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٥٧

١٤ ـــ إيمار وابواية : سبق ذكره ، ص ٩٢

١٥ ـــ إرمان : ديانة .. سبق ذكره ، ص ٢٥٠

١٦ ـــ برستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ٦٥

١٧ ـــ ارمان : ديانة .. سبق ذكره ، ص ٢٤٠

١٨ــ د . سليم حسن : سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٩٨

١٩ ــ برستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ٦٥

٢٠ ــ ارمان : ديانة .. سبق ذكره ، ص ٤٨٢

٢١ ــ برستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ٩١

٢٢ ــ إرمان : ديانة .. سبق ذكره ، ص ٢٤٦

٢٣ ــ ديورانت : سبق ذكره ، ص ١٦٠

٢٤ ــ ارمان : ديانة .. سبق ذكره ، ٤٧٩

٢٥ ــ برستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ٢٣٥

٢٦ ــ ارمان ورانكه : سبق ذكره ، ص٢٣٦

٢٧ ــ ديورانت : سبق ذكره ، ص ١٦٢

٢٨ ــ برستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ٢٦٧

٢٩ ــ ارمان: ديانة .. سبق ذكره ، ص ٢٦٠

٣٠ ــ عبد الحميد زايد : مصر .. سبق ذكره ، ص ٢٧٧

٣١ ــ ارمان : ديانة .. سبق ذكره ، ص ٢٦٠

٣٢ ــ نفسه : ص ٢٦٣

٣٣ ــ سليم حسن : سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٥٤٣ ، ٥٤٢

٣٤ ــ ارمان : ديانة .. سبق ذكره ، ص ٢٤٣

٣٥ ــ نفسه : ص ٢٤٣ ، ٢٤٤

٣٦ ــ د . عزت زكي : سبق ذكره ، ص ١٣٠

# الفصل السابع
# البعث و الحساب

وظل الملك فى العقيدة الشمسية ، هو صاحب الحق الأوحد فى الخلود طوال عهود عصر الدولة القديمة ، بحسبانه حاصلا على الطبيعة الإلهية الخالدة ، التى تحدرت إليه بالوراثة ، عبر نسل طويل يعود به الى الإله ( رع ) مباشرة . ألذى اصطفى ( روج جدت ) . من بين نساء العالمين صفية له ، لينجب منها ملوك الأسرة الخامسة . وأن خلود الملك إنما يأتى بصعود روحه أوباه إلى السماء فور موته لتخلد هناك اندماجاً مع إله الشمس ( يركب مركبه ) ، بينما يخلد الجسد على الأرض بفضل عمليات التحنيط البارعة .

ولم يستمر فهم الخلود بهذا الشكل طويلا ، فقد ظهر ( أوزير ) وأثبت نجوميته المتعالية ، برفقة التعالى الثورى ، حتى بلغ شأنه الأعظم إبان الأتون الثورى الكبير ، الذى أسقط الأسرة السادسة وقضى على الدولة القديمة نهائيا ، وكان لترافق الصعود الأوزيرى كأيديولوجيا مصاحبة للخطوات الثورية الفاعلة ، آثارا بعيدة المدى فى عقيدة الخلود الملكية ذاتها . فقد بدأ ( رع ) يتراجع أمام زحف ( أوزير ) حتى باتت محاربة العقيدة الأوزيرية معركة خاسرة ، فبدأت متون الاهرام خطتها الاحتوائية ، بإدراج ( أوزير ) وأسرته فى المجمع المقدس .

وباستمرار التقدم الأوزيرى استمر التراجع الملكى ، حتى أصبح دمج العقيدتين غير كاف أمام طموح ( أوزير ) ، فبدأ فى ابتلاع ( رع ) تدريجياً ، عندما انتشر الإعتقاد بعودة ( أوزير ) من السماء ، لتخليص البلاد من البلاء ، فى هيئة ملك عادل ، فأخذت المتون تؤكد لشعبها عن كل ملك يرحل عن الدنيا أنه لم يكن سوى ( أوزير ) بذاتة وشخصيته وعينه ، كان متجسداً على الأرض ، وانه جاء من السماء ليخلص الناس ، ويحكم بينهم بالمحبة والسلام ، وعليه فقد كان الملك — حقاً وصدقاً — هو المخلص ( أوزير ) ، وهو مااستنتجناه من نصوص مثل : قول متون الأهرام تخاطب الملك الراحل ( يونس (unis

أيها الملك : يونس
انك لم ترحل ميتا
لكنك رحلت حيا
لأنك
**تجلس على عرش أوزير**
وصلوجانك فى يدك
...
أه يا آتوم
إن الذى هو هنا
هو
**ابنك أوزير**
الذى منحته الحياة
**ثم الخلود ،**
هو خالد ، كذلك الملك يونس
خالد
هو لا يموت ، كذلك الملك يونس
لا يموت

هو أبدى ، كذلك الملك
يونس أبدى[1]

ويبدو انه مما دعم هذا الإتجاه الملكى نحو الأوزيرية ، أن الأسطورة أكدت أن ( حور ) ابن ( أوزير ) كان ملكاً على مصر بعد أبيه الشهيد ، ونتيجة الخلط بين ( حور ) ابن ( أوزير ) وبين ( حور ) الأكبر ، فقد انبثقت الفكرة القائلة أن الملوك يعودون بالبنوة إلى ( رع ) عبر ولده ( أوزير ) عن طريق السلالة الحورية ، وعليه لم تعد أسماء ملوك أواخر الأسرة القديمة تنسب إلى ( رع ) ، كما كان يحدث مع أسلافهم أضراب ( خف رع ، ومنكاورع ) ، إنما أصبح الملك « .. يتحول .. إلى أوزير »[2] ، فيصبح هو ( أوزير ) بذاته وكان أبرز هؤلاء الملوك الأوزيريين ، ذلك الذى قضت الثورة على ملكه ، الملك ( بيومى الثانى ) ، أو كما أسمته النصوص ( أوزير بيومى ) .

وكان الإدعاء الرسمى بأن الملك هو ( أوزير ) ، أوضح ما دخل على العقيدة الملكية من تعديلات نتيجة اشتعال الثورة ، ومؤشرا سافرا على مدى التنازل الذى قدمته الملكيه للشعب ، **فأصبح الملك هو ( أوزير ) ، الذى سبق ونال من الشتائم الملكية ، ومن التسفية والتحقير ، ما لم يزل مسجلا داخل متون الأهرام إلى يومنا هذا ، جنباً إلى جنب مع النصوص التى تجعل الملك الميت ذات عين أوزير** ــ وهو أمر لا يمكن فهمه إلا فى ضوء تفسيراتنا المطروحة ــ هذا رغم أن استقراء المقاصد الملكية ومنطقها من وراء التعديلات الأوزيرية ، إنما يوحى بأن فلسفة ( أون ) جعلته تعديلا لصالح الملكية بالدرجة الأولى ، ليؤدى إلى نتائج تلزم بالضرورة عن مقدمات تخدم الأغراض الرسمية ، يمكننا تصور أن خطها المنطقى قد سار كالأتى :

إذا كان ( أوزير ) إلها ينتسب بالبنوة إلى ( رع ) ،
فالملك بدوره إله لانتسابه ببنوته إلى ( رع )

وإذا كان ( أوزير ) خلد لامتلاكه طبيعة إلهية موروثة
فإن أبناء ( رع ) من الملوك خالدين لامتلاكهم طبيعة إلهية موروثة
( وهذا لا يعنى للشعب شيئاً ، قدر ما هو هام للملك )
وتكون النتيجة المنطقية :
إذا كان ( أوزير ) إله ، لأنه ابن إله يملك طبيعة خالدة وإذا كان الملك إله ، لأنه ابن إله يملك طبيعة خالدة
إذن لا شك أن الملك هو ذات عين ( أوزير ) !
وتكون النتيجة المقصودة ، أن يتحول التقديس الشعبى من ( أوزير ) إلى الملك ما دام الملك هو ( أوزير ) بذاته .

وهنا نستكمل أطروحتنا ، بأفتراض أن التطور اللاحق نشأ نتيجة أختلاط فكرة ( الملك هو أوزير ) بعقيدة التثليث التى سادت العقلية المصرية منذ أقدم العصور ، وهو — وإن كان رأيا جديداً فإن له ما يبرره فى حدود المنطق وحده فقد ساد اعتقاد قبل الأسرات بأن الإلهة ( حت حور ) زوجة للإله ( حور ) الأكبر ، وفى الوقت ذاته كانت أُما له[٤] ، فشكلت مع ( حور ) ثالوثاً كان فيه ( حور ) هو الأب وهو الإبن فى آن واحد ، وقد لاحظ ( رودلف أنتس ) أنه كان هناك تثليث آخر كون فيه ( حور ) ثالوثا يتكون من الملك السماوى والملك الأرضى والصقر [٥] ، وهنا أيضاً كان ( حور ) أب وأبن وصقر فى أن واحد ، فشكلت الأقانيم الثلاثة فكرة إله واحد ، هو ذاته الآلهة الثلاثة .

وبعد ظهور الأسطورة الأوزيرية وانتشارها ، جاء ( حور ) فيها بأعتباره « .. الإله الإبن فى ثالوث أوزير .. وإيزى .. لكنه فى إدفو كان فى نفس الوقت الإله الأب فى صورتين مختلفتين فى التشكيلة .. حور ، حت حور ، حور جامع الارضين »[٦] ، وهذه التشكيلة الأخيرة التى توحد ( حور ) الإله مع ( حور ) الملك ، وهى تشكيلة ملكية واضحة ، لأن ( حور ) المقصود هنا هو ( حور ) الأكبر إله التوحيد القديم . « .. وفى الألف الأخيرة ق .م . بدأت الفكرة بالربط

بين أوزيريس وحوريس ، الأمر الذى كان واضحاً فى الفكرة .. بأن الملك إنما كان حوريس وأوزيريس معاً »[٧]

ولو أضفنا إلى ذلك كله ، تأكيد ( نجيب ميخائيل ) أن العقلية المصرية آمنت أن « .. حور يعتبر أوزير الذى **أعيدت ولادته** »[٨] يمكننا القول أن هذا الخلط بين إله السماء وإله الارض ، أو بين أقنوم الأب وأقنوم الإبن ، أو بين الإله خالص الألوهية وبين الإله الأرضى الذى يجمع اللاهوت مع الناسوت ، قد جاء نتيجة محاولة تأكيد أن الملك الفرعونى هوالإله نفسة ، حالا على الأرض بعد ميلاده من جديد ، جاء

من السماء إلى الأرض ليعيد إليها السلام ، فانسحب هذا الاعتقاد على ( أوزير ) و ( رع ) بأعتبار ( أوزير ) إبنا (رع ) ، وعلى ( حور ) و ( أوزير ) باعتبار ( حور ) إبن ( أوزير ) ، وعلى الملك و ( رع ) باعتبار الملك إبن ( رع ) ، وبالتالى فهو نفسه ( أوزير ) ، وعلى الملك باعتبار الملك هو ( حور ) ، و ( حور ) هو ابن ( أوزير ) ، فيصبح الملك إبناً ل ( أوزير ) ، وبالتالى فهو ( أوزير ) وأبن ( أوزير ) أو بتعبير أصرح **هو الله وابن الله فى أن واحد** .

وفى تقديرنا أن حكام الأقاليم النبلاء كان لهم دور كبير فيما دخل من تطور على مفهوم الخلود ، عندما اشتدت شوكتهم ، وهبط مركز الملك ، وانتهوا إلى الحصول على كثير من إمتيازات الملك الدنيوية والاخروية ، حتى أنهم إستخدموا متون الأهرام فى توابيتهم تحت اسم ( متون التوابيت ) ، ليحصلوا بها على الخلود مما أدى فى النهاية إلى إباحة الخلود كحق مشروع لكل من يملك المال اللازم لشراء تابوت مكتوب ، وتسخير رجال الدين للحصول على الطبيعة الالهية عن طريق أوراد تتلى على جثتة ، ليتحول إلى ( با ) عند موته [٩] وكانت أهم ظاهرة فيها تسمية الميت بأوزير ، أملا فى أن يخلد مثله [١٠]

وقد ساعدت الثورة على مزيد من التطور ، نتيجة انتشار الافكار الرفضية للدين التقليدى والتى شككت فى جدوى العتاد المادى ممثلا فى الأهرام ، والتحنيط المتقن خاصة أن هذه المقابر الضخمة لم تجدها عظمها نفعاً حين تعرضت فى عصر الثورة للسلب والنهب والتدمير ، فى وقت لم يستطيع فيه سلطان الملك ولا النبلاء ــ تحت الضربات الثورية ــ منع ما يحدث من تدمير غير محدود للمقدسات ، ورغم محاولة تحاشي ذلك بالأعتراف للشعب بحق الخلود ، مما جعل ذلك ــ فى رأينا ــ هو السبب الخفى لظهور فكرة جديدة تماماً هى فكرة حساب أفراد الشعب الثائرين بعد موتهم على خطاياهم فى حق الألهة ــ والموتى ــ ما دام حسابهم دنيوياً متعسرا ــ .

ونستند فى توقيتنا لظهور فكرة الحساب إلى ترجيح ( محمد أنور شكري ) أن تعرض المقدسات للنهب ، هو سر ظهور فكرة الخطيئة ، وما تستدعيه من حساب ثم جزاء [11] ، وقد وضح ذلك بجلاء عندما أخذ نبلاء الأسرة السادسة يحذرون كل من يعتدى على ممتلكاتهم وقبورهم ومقدساتهم بأنه « .. سيحاكم على أفعاله أمام المعبود الكبير »[12] ، ومثال لذلك ما جاء على قبر النبيل ( أنتى ) حاكم دشاشة :

.. أما من جهة كل الناس
الذين سيعملون السوء ضد هذا القبر
.. فإنهم سيحاسبون على ذلك
أمام الإله الأعظم
رب الحساب[13]

ولما كانت فكرة الحساب طبقية النشأة والغرض ، لتحقيق أغراض الطبقة المسيطرة ، فقد كان طبيعياً أن يكون « .. المعبود الكبير » ، هو إله هذه الطبقة وحاميها ، الاله ( رع ) ، وهو بالطبع من سيكون ــ كما أشار برستد ــ « .. رب المحاسبة فى الأخرة »[14] .

وهكذا لم تترك الحكمة الملكية عالم الخلود مباحاً للجماهير دون مقابل إنما ضمن شروط خاصة ، ولم يعد مجرد الإيمان بأوزير كافياً للخلود ، ولم يعد الإيمان بانتصاره على الموت كافياً كى يقوم المؤمن الميت من الموت مثله ، إنما كان على المؤمن أن يستعد للحساب فيتصف بنفس صفاته ، العدل ، المحبة ، سلامة الخلق ، والسلام ، وأهم من كل هذا **طاعة الملك** الذى هو ( أوزير ) ذاته .

ومما يؤيد وجهة نظرنا فى الأصل الملكى لفكرة الحساب ، ما يمكننا استنتاجه من بعض المتون الملكية ، فهناك ما يوحى أن تطبيق الحساب كان فى بدايته قاصراً على الجماهير فقط ، ولم يتناول شخص الملك المفترض فيه الخلود تلقائياً لاحتوائه البذرة الإلهية ، فالنص المذكور آنفاً عن الملك ( يونس ) يتابع قائلا :

هو أبدى

كذلك الملك يونس

أبدى

هو **لا يحاسب**

كذلك الملك يونس

**لا يحاسب** !(١٥)

ولكن الغريب ، أنه بنفس النص ، وإثر ذلك مباشرة يستمر المتن قائلا :

ولكنه يحاسب

كذلك الملك يونس

يحاسب ؟ !(١٦)

ولا نرى معنى لهذا التناقض ، سوى أن تكون فكرة الحساب ، قد أضحت فى عرف الجماهير حساباً للجميع دون استثناء ، فأضيفت الفقرة الأخيرة للمتون فى وقت لاحق ، مثل كثير من الإضافات الأخرى التى نتجت عن الثورة لتسجل خطوة تطورية أخرى لعقيدة الخلود ، ويدعم ذلك ما جاء فى المتون إنه كان « .. على الملك

المتوفى .. أن يثبت أنه ابن الإله وورثه »[١٧]أى كان على الملك أن يثبت استحقاقه للطبيعة الإلهية ، قبل أن يسمح له بدخول العالم الخالد ، وكى يثبت ذلك فعليه كأى انسان أن يثبت أنه كان طاهرا بلا خطيئة . أما كيف السبيل إلى ذلك ؟ فهو ما تجيب عنه المتون بوضوح : بما أن « .. إله الشمس هو رب العدالة ، وطعامه هو الحق ، إذن فالملك مسؤول أمام رع أن يكون عادلا فى كل أعماله »[١٨]وهذه هى الطهارة المطلوبة .

وهنا يؤكد ( برستد ) إنه قد أصبحت « العدالة والصدق .. أقوى من سلطان الملك نفسه »[١٩] ، فسجلت المتون على قبور الملوك ما يمثله قولها :

لاتوجد سيئة
اقترفها الملك بيومى
وهذه الكلمة
ذات وزن
فى نظرك يارع[٢٠]

أما حكماء الشعب ، فقد استغلوا من جهتهم ـــ فيما نرى ـــ فكرة الحساب لتدعيم منطقية خلود الجميع ، ونتصور هذا المنطق قد سار كالآتى :

إذا كان الحصول على الطبيعة الإلهية ، ومن ثم الخلود مرهوناً بمراعاة : العدالة ، والحق ، والصدق فإن أى انسان يراعى : العدالة ، والحق ، والصدق يحصل على الطبيعة الإلهية ، ومن ثم الخلود

ويؤيدنا فى ذلك فى النصوص الأدبية ، والجنازية التى تلت هذه المرحلة ، بحيث لم يعد يخلو أثر فرعونى من الإشارة للحساب وتقرير مشاعية الخلود للجميع ، فيقول الفلاح الفصيح ، لابن رنسى :

ان العدالة تبقى إلى الأبد ..

وعندما يدفن المرء
ويوارى تحت التراب
فإن اسمه لا يزول ..
لأنه سيذكر بصلاحه
وهذا المبدأ
من كلام الرب ..[21]
أقم العدل لرب العدل
..نفذ العقاب
فيمن يستحق العقاب
هل يخطىء الميزان ؟ ![22]

هذا بينما يقول الملك المزعوم ( أخيوتى ) لابنه المزعوم ( مرى كارع ) :

إن فضيلة الرجل المستقيم
أحب ( إلى الرب )
من ثور الرجل الظالم ( كقربان ) .
إنك تعلم
إن محكمة القضاة الذين يحاسبون المذنب ،
لا يرحمون الشقى يوم مقاضاته
ولا ساعة تنفيذ القانون .
..لأن يوماً واحد قد يبقى أثره إلى الابد
ورب ساعة واحدة تنفع للمستقبل[23]

وقد تلقت النبلاء هذه الفكرة ــ كما سلف ــ ليحققوا هدفين : الأول الحصول على الخلود ، بتأكيدهم على قبورهم مراعاتهم العدالة والثانى أن يثبتوا للجماهير الثائرة أنهم سند الثورة ، بل أن بعض هذه المدونات كاد يكون توسلا واسترحاما للثوار طلباً لرضاهم ، أنظر مثلا ذلك النبيل القائل :

إنى لم آخذ قط ..
ما يخص إنسانا آخر ..
ولم أظلم أحدا ممن يتمتعون بأملاكهم
أو ذلك المتذلف قائلا :
لقد أعطيت خبزاً
للجائعين
وألبست كل من كان
عارياً (٢٤)

أو ما سجله واحد من كبار النبلاء ذوى الصولة ، هو ( أمينى ) حاكم إقليم الوعل بمصر الوسطى ، يناشد الثوار ، مؤكدا أنه قد توخى العدالة المطلقة فى إقليمه ، وأنه تنزه عما يأتيه أصحاب السلطان بقوله المسترحم :

.. لم أسيء إلى أبنة مواطن قط
ولم أزجر أرملة
ولم أقس على مزارع
ولم أبعد راعياً
ولم أحجر على عمال ريس الأنفار
مقابل الضرائب المستحقة عليه ..
ولم أميز عظيماً على فقيراً ..
وتجاوزت عن متأخرات المزارعين(٢٥) .

وهكذا أصبح معيار الفضيلة ، هو مدى التعامل مع الجماهير وفق ( الحق والصدق ، العدل ) وأصبح هو مقياس الحصول على الخلود من عدمه ، ولعل هذا هو أخطر أطوار التطور لعقيدة الخلود ، فأصبح الجميع يقفون على قدم المساواه أمام المحكمة الإلهية ، ليثبت كل أحقيته للخلود ، ولم يبق الآن سوى : كيف سيكون هذا الحساب ؟ وهنا

يظهر أن الفقهاء قد عادوا إلى الأسطورة الأوزيرية ، فكانت الإجابة السهلة — كما يوحى منطق المدونات — : كما حوكم أوزير بعد موته . ألم يقم أوزير من بين الموتى ؟ أولم تحيى الآلهة عظامه وهى رميم ؟ إذن لن تعيى الآلهة بإحياء الموتى أجسادا مرة أخرى ، ولأول مرة يؤدى هذا المنطق فى تاريخ الفكر الإنسانى إلى ظهور عقيدة البعث الجسدى لكل البشر عظيمهم ووضيعهم للحساب .

وهنا سجلت المتون خطابها للميت :

إن الإلهة نوت سوف « .. تعطيت راسك ، وتجمع
لك أعضاءك ، وتضع لك قلبك فى جسدك »[٢٦]

وحينها تبدأ للكا مهمة جديدة ، فتعود وتتلبس الجسد مرة أخرى[٢٧]

وساعتها « .. يجب أن تتحد الروح مع الجسد من جديد ، وأن تجد باب القبر مفتوحاً »[٢٨] .

وإن تصور اتحاد الروح مع الجسد ، يستدعى عودة البا من السماء إلى الميت فى قبره على الأرض ، لذلك تتابع النصوص ، لتوحى لنا بالخطوات التطورية المتلاحقة ، فتؤكد للميت ، أن الآلهة سوف تقف « .. من حولك ، وتناديك : قم ، قف ، فتصحو »[٢٩]
وحينئذ « .. يصحو ثانية ، فى بعث مجسد »[٣٠]

بل سيصحو شاباً حتى لو كان موته شيباً ، فالمتون تؤكد أنه سوف « .. يبعث فى شباب عصرى ، على نحو ما كان من قبل »[٣١]
وأنه سوف « .. تتجدد قواه عائداً إلى الشباب »[٣٢]

وهنا نقف مع ( إتيين دريتون ) و ( جاك فانديه ) لنستمع : « عندما تلقت العقيدة الشعبية فكرة المحاكمة فى الآخرة ، نسبتها إلى الإله المعتبر لديها دون سواه ، إله الموت العظيم أوزير ، وعند ذلك ،

تطورت فكرة محاكمة أوزير ، التى تنتظر كل انسان بعد وفاته ، لتحاكمه على تصرفاته وفقاً لقواعد الاخلاق »[٣٣]

ثم نستكمل الإستماع إلى ( محمد شكرى ) أنه بذلك « انعقدت الصله .. بين محاكمة الميت على أعماله ، ومحاكمة أوزيريس ، وترتب على ذلك أن أصبح الميت ينعت بأنه صادق الصوت أو المبرأ ، على نحو ماقضت به محكمة لأوزيريس وكان يعنى بذلك أن الميت قد حوكم وبرىء ، على نحو ما حوكم أوزيريس ، على أن أوزيريس قد غدا سيد مملكة الموتى ، وأصبح يشرف على حساب الميت ليقضى بدخوله جنته »[٣٤] ، ثم نتابع مع ( أنتس ) قوله أنه قد أصبحت « .. المحكمة تتألف من تاسوع الآلهة العظمى ، ويرأسها أوزير »[٣٥] ، مع تأكيد ( برستد ) أنه قد « .. صار من المتبع عادة منذ بداية الدولة الوسطى أن يضاف إلى اسم كل متوفى نعت المبرأ »[٣٦] ، أو بالصيغة الفرعونية فيما ينطقه ( نجيب ميخائيل ) أصبح المتوفى ينعت بأنه « .. ماع خرو »[٣٧] .

وهكذا يقرر ( برستد ) أن « .. رفع أوزير إلى منصب قاض .. ليس إلا صبغاً لوظائه بالصبغة الشمسية ، على أساس القضاء الشمسى السائد فى متون الأهرام ، إذ نجد فى تلك المتون : **أن أوزير قد صعد بالفعل فوق عرش رع السماوى ، ثم نراه الآن يستولى على كرسى القضاء الخاص برع** ، وبتلك الكيفية صار هو إله الشمس ، المتصرف الخلقى العظيم ، الذى يحاكم أمامه الجميع ، بمقتضى العدالة »[٣٨] .

وهكذا أمسى واضحاً انتصار الإرادة الشعبية تماماً ، على المستوى العقائدى ، بجلوس ( أوزير ) على عرش ( رع ) ، ويضيف ( دريتون ) و ( فانديه ) قولهما : « .. إن حدثاً سياسياً آخر ، هو إنشقاق طيبة ، قد جاء يقضى بأنتصار أوزير انتصاراً كاملا »[٣٩] ، فكما سبق وعلمنا أن مدينة ( أوزير ) المقدسة ( أبيدوس ) قد دخلت

تحت سيطرة حكومة طيبة الواستية ، مما جعلها تضمن الولاء الشعبى لها ، فقضت على حكومة ( نن نسويت ) ، ثم استطاع ( أمنمحات الاول ) وزير دفاعها ، أن يصنعد إلى عرش مصر ، معضدا بالثورة الشعبية ليؤسس الأسرة الثانية عشر ، وتدخل مصر بعد ذلك مرحلة جديدة تماماً ، **حيث أصبح كرسى الحكم قائماً بالإرادة الشعبية** ، وأصبح استمرار الحاكم أو سقوطه مرهونا برضى هذه الارادة أو سخطها ، وقد دللنا ، على ذلك بالأحداث التى تلت صعود ( أمنمحات ) العرش ، فقد صعد معه إلهه المغمور ( آمن ) ، وكان نسخة مكررة من ( رع ) ، حتى تسمى ( أمن رع ) وكان ذلك ردة عن أيديولوجية الثورة الأوزيرية ، فقامت المحاولة الانقلابية التى شملت خطة تصفية ( أمنمحات ) جسدياً ، بعد أن حاول حلفاؤه الجدد إجهاض الثورة على المستوى الأيديولوجى ، فزعم « .. أهل المعرفة من رجال طيبة .. أن آمون هو الروح لأوزيريس ، وقالو أن جسد أمون يوجد فى الدنيا السفلى»[٤٠] . ويصبح المعنى أنه لا حياة لأوزير بدون ( آمن ) ، والقضاء على ( آمن ) قضاء على ( أوزير ) ، وعليه فلا خلود للمؤمنين به دون ( آمن )

وللتقريب بين إله الملكية وبين شعبه ، بدأت الأدعية تسجل :

يا آمون
اصغ لمن يقف فى المحكمة وحيداً
**فقيراً**
**وخصمه غنى**
فتضطهده المحكمة ؟ !
لكن آمون
يستحيل بنفسه إلى وزير أول
ليجعل الفقير فائزاً
ويتضح أن الفقير على حق

وينتصر الفقير على الغنى

ثم نلحظ كثرة محاولات تلبيس آمن بأوزير ، بتأكيد أن آمون هو راعى الفقير ، فهو « .. الذى يعطى الخبز ، لمن لا خبز عنده » ، وهو « ..وزير الفقراء »[٤٣] ، لكن رغم كل ذلك نلحظ أن المدونات بعد ذلك جاءت قاضية بانتصار ( أوزير ) وظل ( آمن ) إلى حد بعيد إله دوله ودنيا فقط ، بينما استمر ( أوزير ) حتى النهاية ، إلها للعالم الأخر ، وربا للحساب للجميع دون استثناء ، بدلاله مدونات ومصورات العصورالتالية ، التى سجلت كجنازيات ملكية وشعبية ، تصور ( أوزير ) دون غيره ، قاض أعلى للمحكمة الأخروية ،فقد فضل الشعب ــ مادام لابد من حساب ــ أن يكون رب الحساب مواليا له ، فتمكنت الإرادة الشعبية من فرض نفسها ، من خلال جعل ( أوزير ) إلها يحاسب الجميع ، ودائما .

أما متى تصور المصريون يوم الحساب الآتى ؟ فتجيب عليه أحداث العدء الذى استحكم بين الفكر الثورى وبين فكر الدين الرسمى ، الذى حدا بكل منهما إلى تحذير الآخر بهذا اليوم الموعود ، فبينما يحذر الفلاح الفصيح السادة بقولة : « إحذروا ، لأن يوم الأخرة يقترب »[٤٤] ، نجد الملك ( أخيتوى ) يؤكد المعنى ذاته بقوله : «لا تثق فى طول السنين ، فانهم ــ الألهة ــ يعتبرون الحياة مجرد ساعة واحدة ، والإنسان سيبعث بعد موته ، وهناك ستوضع أعماله بجواره أكواماً ، وهناك سيكون الخلود الأبدى ، لن يشكو فيه من كان متهورا ، لكن من يصل إلى هناك بلا خطيئة ، سيصبح إلها ( أى خالدا ) ، يخطو بحرية كالآلهة الأبدية »[٤٥] .

وعلى ذلك ، فليتأكد كل إنسان أياً كان « ..إن الزمن الذى يقضيه على الأرض إنما هو طيف خيال فحسب ، وعندئذ يقال لمن يصل إلى الغرب : مرحباً »[٤٦] .

**ويبدو أنهم اكتفوا بتحذير بعضهم البعض بقرب موعد الحساب ، لأن تحديده بدقة أمر صعب ، مرجعه أنه اختصاص إلهى وسر ربانى ، ولأن الزمن الإنسانى يختلف عن الزمن الإلهى ، فحياه البشر بطولها ليست فى عرف الآلهة سوى ساعة واحدة ، وإن معرفة ما يقابل هذه الساعة من ساعات البشر يشكل معادلة صعبة ، وغير ممكنة بالطبع .**

وقد أشارت متون الأهرام إلى ما سيصحب هذا اليوم من كوارث فلكية تصيب العالم بدمار شامل ، فقالت : إن « ... السحب تظلم ، والنجوم تمطر الأرض ، والأقواس تترنح »(٤٧) ، وبعدها « يفتح .. باب السماء » حيث سيدخل البشر جميعاً إلى قاعة الحساب ، التى أفاضت النصوص فى وصفها ، كما أوضحتها الرسوم الملونة ، وأهمها صورة ضخمة ، تتضح فى وصف ( إرمان ) القائل : وفى « ..الصورة ، نرى بهوا كبيرا ، سقفه بلهيب النيران ، وعلامة الحق ، وفيه **مقصورة يجلس فيها أوزيريس** على عرشه ومن أمامه رمز أنوبيس ، وابنه حورس، وآكل الموتى ـــ وهو حيوان خرافى ـــ تمساح من أمام وأسد من وسطه ، وفرس من الخلف ـــ وفى أعلى الصورة ، أى فى مؤخرة البهو ، يجلس إثنان وأربعون قاضياً ، ومن أسفل ، أى الجزء الأمامى ، **الميزان العظيم يوزن فية قلب الميت** ، وتستقبل ألهة الحق الميت وهو يدخل البهو ، ومن ثم يأخذ حورس وأنوبيس قلبه ، ويتحققان بالميزان إن كان أخف من علامة الحق ، ويسجل تحوت كاتب الآلهة النتيجة على لوحة ، ثم يخبر بها أوزيريس »(٤٨) .

ويعلق ( برستد ) على هذه اللوحة بقوله : « .. ومن الظاهر طبعاً أن أولئك الإثنين والأربعين قاضياً ، ليسوا إلا أسماء مخترعة ، وهم .. يمثلون الأقسام الإدارية ، التى منها البلاد المصرية ، ولاشك أن الكهنة ألّفوا تلك المحكمة من إثنين وأربعين قاضياً بقصد الإشراف على أخلاق المتوفى من أى ناحية من أنحاء البلاد ، حيث يجد المتوفى نفسه تواجه

قاضياً على الأقل ، من بين أولئك القضاه ، قد جاء من البلدة التى كانت موطناً له فيكون ذلك القاضى على علم بسيرة ذلك الميت المحلية .. وبذلك لم يكنْ فى إمكانة أن يخاتله أو يغشة »[٤٩] .

وفى البند الخامس والعشرين بعد المئة ، من كتاب الموتى الشعبى يسجل للميت ما يجب أن يقوله عند الوصول إلى قاعة المحكمة ، لأبراز حسناته وإيضاح صلاحه وتقواه ، مع إنكار أى خطايا يحتمل أن يكون قد ارتكبها فى الدنيا وتسمى الاعتراف الإنكارى أو السلبى ، وإن كانت فى حقيقتها لا تحمل أى إعتراف بل مجرد تنصل من كل الأوزار المحتملة ، وتؤكد هذا المعنى ( اليزابيث رايفشتال ) بقولها : « إن الاعتراف السلبى بحد ذاته تعويذة ، أو ضرب سحرى ، أكثر منه اعتراف صادر عن شخص نادم »[٥٠]

ويشرح لنا ( برستد ) ذلك بقوله : إن سلطان محكمة العالم الآخر « .. مالبث أن مسخ مبكراً ، بالعوامل السحرية التى جاءت فى كتاب الموتى **الذى ألفة كهنة المعابد للكسب منه،** إذ زعموا فيه أن يكون وسيله تساعد الميت على التخلص من العقوبة ، بمخادعة وتضليل ذلك القاضى الرهيب .. «وكانت مناظر المحاكمة فى الأخرة ، ومتن إعلان البراءة ، تنسخ بكثرة على صفحات البردى ، يقوم بنسخها الكتبة ، ثم تباع للناس ، ولا يكتب اسم المتوفى بل يترك مكانه خالياً ليملأه المشترى بعد حصوله على تلك الوثيقة .. وعلى ذلك كان فى إمكان كل إنسان مهما كانت أخلاقة فى الحياة الدنيا أن يستولى من الكتبة على شهادة تقول أن فلان ـــ الذى ترك مكان اسمه خالياً كان رجلا فاضلا »[٥١] . ومن هذا الإعتراف السلبى أو الإنكارى ، أن يقول الميت فى البند المذكور من كتاب الموتى ، موجها كلامه الى ( أوزير ) :

السلام عليك

أيها الإله العظيم

لقد أتيت إليك ياسيدى
لقد حضرت لأشاهد جمال وجهك
أنا أعرفك
وأعرف أسمك
وأعرف أسماء الإثنين والأربعين قاضياً
أنظر ..
لقد أتيت وكلى عدالة
لقد نبذت الغش لأجلك أنت
أنا لم أرتكب شراً ضد الناس
أنا لم اسيىء معاملة الحيونات
أنا لم ارتكب ذنباً فى مقر الحق
أنا لم أعرف الخطيئة
أنا لم أكفر بالآلهة
أنا لم أوذى رجلا فقيراً
ولم أفعل ماتكرهه الآلهة
أنا لم أتسبب فى مرض أحد ..
أنا لم أتسبب فى بكاء أحد ..
أنا لم أحرض على القتل ..
أنا لم أبخل بقرابين المعبد ..
أنا لم أدنس نفسى
أنا لم أزور فى كيل الحبوب
أنا لم أطفف الموازين ..
أنا لم أحرض على القتل ..
أنا طاهر
أنا طاهر
أنا طاهر

أنا لم أرتكب شراً ..ولم أسرق
أنا لم أكن حقوداً
أنا لم أقتل .. لم أكذب
**أنا لم اثر الفتن ..**
أنا لم أزن .. لم أكن واشياً
أنا لم **اترك فمى بلا زمام**
**أنا لم اسبب ذعرا**
**أنا لم أكن محباً للشغب ..**
**أنا لم أكن مندفعاً ..**
**أنا لم أكن سفيها ضد الملك**(٥٢)

وبالمنطق الذى تمليه الأحداث ، ويوحى به هذا النص ، يمكن الزعم أنه رغم ابتداع السلطة لمبدا الحساب ، كترغيب للقوى الشعبية فقد ظل إيمان الجماهير بأوزير وقيامته من الموتى ، شفيعاً كفيلا بضمان الخلود ، والخروج من الحساب بالبراءة ، وقد استطاع الكهان أن يستغلوا هذا الفهم ويدعموه ، كطريقة للكسب **المشروع قدسيا**، فباعوا للجماهير هذه الإعترافات الإنكارية كصكوك للغفران ، لينال بها الميت مايريد من سعادة فى حياته الثانية ، فمسخت عملية الحساب ولما يمض على ظهورها غير زمن قليل .

وفى ظل الملكيات الجديدة ، أخذت فكرة الحساب فى التطور ، وحتى لا يصبح الإيمان بأوزير وسيلة سهلة تدخل الجميع الى الخلد ، فقد بدأت المتون تتحدث عمن لايخرج بريئاً فى محكمة ( أوزير ) ، ورغم التضارب فى مصير المذنبين ، فقد كانت عموماً مما لا يبهج أو يسر ، فمن « .. لم تثبت براءته ، فإنه لايدخل مملكة أوزيريس ، ويظل فى قبره يضنيه الجوع والعطش أو يلتهمه ملتهم الموتى »(٥٣) ، أو قد يمزقه

قضاة المحكمة بسيوفهم(٥٤) وقد ينتهى أمر الروح المذنبة بالالقاء « .. فى العذاب ، وفى النهاية تباد »(٥٥) وقد يقول ( أوزير ) للميت :

إذهب عنى أيها الشرير
الى الجحيم
لتلاقى أشد أنواع العذاب
أيها القضاة :
اقتلوه بسيوفكم
وتغذوا الآن من لحمه
وأنتن أيتها الأرواح الشريرة
إضربنه بالحديد
وأحرقنه بالنار
وأنت ياعمعم الوحش المفترس
قطعه إرباً
وتعذ من أحشائه
فليفن جسمك أيها الخاطىء
ولتعدم نفسك
وليشطب إسمك من سفر الحياة
قد جعلتك غنيمة للأفاعى
وفريسة للوحوش الضاربة ..
وأنتم يا يازبانية جهنم ..
اسحبوه على وجهه إلى الجحيم
واقطعوا رأسه على خشبة العار
ومزقوا جسده ..
والقوه
فى أتون النار (٥٦)

وهكذا لم يعد الإيمان بأوزير كافيا لينال المؤمن سعادة الآخرة ، لأن

( أوزير ) نفسه سيطرده من حضرته ، ويحكم عليه بصنوف من العذاب أقلها أليم ، إذا جاءه خاطئاً .

ويبدو لنا أن ظهور فكرة تعذيب الخاطئين ، قد جاءت « .. فى زمن متأخر على وجه التحقيق »(٥٧)فيما يرى ( أرمان ) ، فى ظل الملكيات المتتالية ، بعد أن كان عقاب الميت مجرد حرمان من الخلود ، ومما يدعم رؤيتنا فى كون فكرة عذاب الميت ملكية الإختراع بدورها ، أن العذاب قد وضع فى النهاية بيد ( آمن ) الذى تكفل فقط بمهمة تعذيب المذنبين فى حساب الموازين ، ترهيباً وتخويفاً ، بحيث يكون التأديب دنيويا وأخرويا تأديباً ملكياً .

والنصوص تؤكد ان يوم الحساب ، سوف « .. توزن الأعمال ، فمن خفت موازينه ألقيت روحه فى الجحيم ، وكان غذاؤه وشرابه القاذورات ، وتسلطت على روحه الثعابين والعقارب ، فتلدغه وتعنفه حيث ذهب ، وهكذا يستمر فى العذاب الأليم إلى أن يلحقه الفناء »(٥٨) ، وذلك لأن المذنب « .. سينزلق إلى مكان الإعدام **لآمون رع** ، سيد الكرنك ، إنه لن يدعهم يشبعون فى وظائفهم ، وسيلقى فى لهيب الملك يوم مقته ، وسينفث تاجه النار على رؤسهم ، .. وسيغرقهم فى البحر حيث تختفى أجسادهم »(٥٩)بينما تسعجل الأدعية لآمن ابتهالها « أنت أمون رع ، الذى يعدل الارض باصبعه ، والذى كلمته أمام القلب ، **فيجعل النار مأوى لمن يرتكب الخطيئة** »(٦٠)

بينما وضعت أمام الجميع عقبات وصعاب ، لا يمكن لغير المؤمن الصالح اجتيازها وأهمها **الصراط** ، ذلك الطريق الضيق الرهيب ، وقد جاء تفصيل ذلك فى « .. إحدى خرائط العالم الثانى ، وأن من يدخل مملكة الموتى ممن يكونون فى المكان المقدس روستاو ، بالقرب من الجيزة ، فانه يجد أمامه سبيلين يؤديان به الى مملكة الأبرار ، أحدهما

طريق الماء ، والآخر طريق الأرض ، وكلاهما يتعرجان ، غير أنك لاتستطيع أن تعرج من أحدهما الى الآخر ، لأن بينهما بحر من **النار** ، وهناك كذلك طرق جانبية ، وان كان لا ينبغى لك سلوكها ، **لأنها** تؤدى بك الى **النار** ، أو هى طرق بديلة ملتوية وقبل السير فى أحد هذين السبيلين ، **يجب أن يمضى المؤمن من باب النار** »(٦١)

وإضافة إلى عقبة الصرط ، أو باب النار ، هناك عقبة المحيط الكبير الذى ينبغى عبوره للوصول إلى نعيم ( أوزير ) ، لأن « .. هذه الحقول الفردسية لايمكن الوصول إليها إلا باستخدام صاحب المعبر .. ولم يكن هذا الشيخ الطاعن فى السن يقبل فى قاربه ، إلا الرجال والنساء الذين لم يرتكبوا فى حياتهم ذنبا ما »(٦٢) ، وقد نصت المتون على ذلك بتأكيدها أن « نوتى حقل ياور هذا ، لا ينقل غير الرجل القويم .. والذى وجد مقسطاً أمام السماء والارض »(٦٣) .

ويبدو أن هذا الترهيب أدى إلى نتائج ايجابية ، فقد « ..أصبحت المحاكمة فيها بعد أوئل الدولة الحديثة ــ حوالى ١٦٠٠ ق م ــ لا تقتصر على حصر تفصيلى لكل المخلفات الخلقية ، وانما صارت امتحانا خلقيا قاسياً ، بل معيارا شاملا للقيمة الخلقية لحياة كل إنسان » ، « .. وأن آخر تطور خلقى عظيم فى الديانة المصرية حدث فيما بعد ، نشأ على ما **يظهر خارج المعابد بعيدا عن ديانة الحكومة** إذاك ــ ١٣٠٠ : ١٠٠٠ ق م ــ وكان ذلك التطور يرمى إلى الشعور **بالخطيئة** ، أى اعتراف المؤمن بحقارة نفسه ، مع امتزاج ذلك بالثقة فى رحمة الله وعدله ، وعنايته الأبوية »(٦٤) .

ويظهر هذا التأثير فى الأدعية والصلوات والتعاويذ ، التى من شأنها أن تهدىء من غضب ( أوزير ) ، مثل

يا من يعمل على سير جناح الزمان

يا من تسكن فى كل خفايا الحياة
يامن يحصى كل كلمة حق أنطق بها
أنظر
إنك تستحى منى ، **وأنا ولدك** ..
لأنى ارتكبت فى العالم من الذنوب
ما يفعم القلب حزناً
وقد تماديت فى شرورى واعتدائى
ألا فسالمنى
ألا فسالمنى
وحطم الحواجز القائمة بينى وبينك
مر بأن تمحى كل ذنوبى ..
أمح شرورى .. والعار الذى يملأ قلبى
حتى نكون : أنا وأنت
من هذه اللحظة ، فى سلام .

وإن هذه الأدعية التى تعترف بالشرور دون محاولة للتنصل منها ، خطوة هامة فى تاريخ الإنسانية ، سجلها المصرى الجماهيرى ( خارج المعابد ) عن قناعة بما يقول ويؤمن ، فعندما ظهرت بدعة الحساب والعذاب فى الكهنوت الملكى ، أمكن للجماهير التغلب عليها بصكوك للغفران ، لكن بعد مرحلة تطورية طويلة ، دخلت فيها مصر عدة محن : العصر المتوسط الثانى ، والثورة الثانية ، وغزو الهكسوس ، بدأت تظهر القيم الكبرى بعيداً عن سلطان الحكومة ودون جبر من سلطان ، فبدأ المصرى القديم يرى خطاياه حاجزا بينه وبين حبيبه الشهيد ( أوزير ) ، وكان هذا بحد ذاته شقاء كافياً ليدفعه إلى تسجيل المتن المذكور ، فبدأت فكرة القرب من الله تأخذ مكانها ، إلى جوار فكرة النعيم السماوى ، ولم يعد الإنسان يطلب النعيم فقط ، بل القرب من إلهه بإرضائه وبرضاه .

وكان لهذا التطور أثره فى المحكمة الأخروية، فجاء فى بردية ( آنى Ani) اعترافات غاية فى النبل ، فها هو يقول لربه ( أوزير ) : « .. إنى لم أنطق كذبا **عن علم مني** ، وإن كان ذلك قد فرط منى ، **فإنى لن أكرره ثانية** ، دعنى أكون من أصحاب الحظوة ، من أتباعك »(٦٥) ويعلق ( برستد ) على هذا التطور بقوله : « .. قد أضفى مذهب أوزير على الأخلاق الفاضلة قوة عظيمة فى نظرالشعب ، ومع أن بابه كان مفتوحاً على مصراعيه ليدخله جميع الناس ، فإنه كان من واجب أن يبرهنوا على أهليتهم لرضاء الإله أوزير ، من الناحية الخلقية »(٦٦)

بل وجاء فى بردية آنى ما يشير إلى شهاده جوارح الإنسان عليه فى المحاكمة إن هو حاول كذباً أو تلفيقاً ، ففى البرديه « يدخل آنى وزوجته القاعة التى يقرر فيها المصير ، مطاطىء الرأس بهيئة تدل على الخضوع ويطالب أنوبيس فى الحال بقلب آنى ، والإشارة الهيروغليفية التى تدل على القلب .. موضوعة فى إحدى كفتى الميزان ، كما نرى فى الكفة الأخرى ريشة وهى الرمز الهيروغليفى الدال على الصدق أو العدالة أو الحق .. ، ويخاطب آنى قلبه فى هذه اللحظة قائلا : ياقلبى الخاص ، لا تقف شاهدا ضدى ، ولا تعارض فى المجلس .. ، ولا تكونن حربا علىّ أمام رب الموازين ولا تدع إسمى يصير منتن الرائحة فى المحكمة ، ولا تقولن ضدى زورا فى حضرة الإله »(٦٧) .

وبعد أن يعترف ( آنى ) طالبا الرحمة ، ويوزن القلب مع الريشة يقول ( أوزير ) : « إسمع أنت هذه الكلمة بالحق ، إنى قد حاسبت قلب أوزير آنى، إن روحه شاهدة عليه ، وأخلاقه قد وجدت مستقيمة ، على حسبما أظهره الميزان العظيم ، ولم يوجد له أى ذنب ، فتجيب الآلهة التسعة على الفور : ماأحسن ذلك الذى يخرج من فيك العادل ، وقد شهد ذلك أوزير آنى المبرأ من الذنوب أنه ليس له ذنب ، فلم نجد أنه أقترف شراً .. وبعد أن يحكم له بهذا الحكم ، يقود حور بن أوزيريس آنى المحظوظ ، ويقدمه إلى أوزير ، حيث يقول له فى الوقت

نفسه : إنى آت لك يا وننفر أوزير ، وإنى أحضرت لك أوزير أنى ، إن قلبه المحق يخرج من الميزان وليست له خطيئة فى حق أى إله أو آلهة ، لقد حاسبه تحوت كتابة وقد شهدت له الآلهة التسعة شهادة عادلة جداً .. »(٦٨)

كما نجد فى هذه البردية معنى أخر من معانى السعادة الأبدية فى قول إله الخلق ( أتوم رع ) لآنى : « ..سوف تحيا فى راحة نفس فى هذه الأرض الصموت ، هى أرض لا تمارس فيها شهوات الجنس ، لكنك سوف توهب فيها طمأنية القلب عوضاً عن الطعام أو الشراب » (٦٩) ومثل ذلك يتضح فى أمر ( أوزير ) بشأن الميت البرىء « .. **ليجلس عن يمينى فى الفردوس السماوى** »(٧٠) ، وتصبح غاية السعادة هنا هى القرب من ذات ( أوزير ) العلية ، مع ملاحظة أن هذه الصورة لم تستطع أبدا أن تلغى النعيم الجسدى المرغوب .

وفى الصورة الجسدية للخلود ، نجد من يخرج بريئاً فى الحساب يذهب فوراً إلى ( دوات ) مقر المنعم عليهم (٧١) ، وهناك سيجد « .. **شجرتين عظيمتين** » (٧٢) ، **إحداهما** « ..**شجرة الحياة** »(٧٣) ، أما أهم معالم ( دوات ) قاطبة فهو بيت الإله المعمور ، أو ( قصر السماء ) (٧٤) ، وحول البيت يعيش الأبرياء سعداء فى نعيم مقيم تتضح مواصفاته من خطاب النصوص للمؤمن البرىء قائلة :

.. إن روحك مقدسة ، مع الممجدين
والأرواح الفاضلة تتحدث إليك
لديك الماء ، لديك الهواء ،
لديك مما تهوى الشيىء الوفير
وتدعى كل يوم إلى مائدة شراب
وننفر أوزير (٧٥)

فهناك :
.. لن يجوع واجد ، ولن يبلى [٧٧]
وتقول النصوص للميت :
إنك تطوف حول الأقطار ..
ترى الأماكن الممتعة
وتجد الأدوية مفعمة بالماء
لغسلك وإنتعاشك
ثم تقطف أزهار البطاح ..
وأزهار السوسن والزنبق
وتأتى إليك طيور البرك
بالألاف جاثمة فى طريقك ..
والعصفور الأزرق والسمان
وسوف يلبس الفائزون بالنعيم :
.. أحسن الملابس الكتانية ، والأرجوانية
ويأكلون التين ، ويشربون الخمر ،
ويؤتى إليك بالجداء والكباش
المسمنة بالحبوب [٧٨]
وفى بردية ( آنى ) نجده يسأل الخالق ( آتوم رع ) عن مدة حياته فى النعيم متسائلا :
آنى : ولكن آتوم ، مامدى حياتى ؟
آتوم : لقد قدرت لك ملايين الملايين
فهى حياة من ملايين
وبعدها سوف أقضى على كل ما خلقت
وتعود هذه الأرض إلى نون
مياه الطوفان
كما كانت فى المرة الاولى [٧٩]
وتنتهى الدنيا ، والخلق ، ولا يبقى سوى وجه الرب ؟ !

# هــوامش

1- Pritchard, Ancient Near ...P.32

٢ – برستد : فجر ..سبق ذكره ، ص ٢٤ ،

٣ – نفسه : ص ٢٦٩ ، لاحظ أن برستد يترجم اسم الملك ( بيومى ) بالترجمه ( بيبى )

٤ – دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٧١

٥ – أنتس : سبق ذكره ، ص ٢٦

٦ – دريتون وفانديه : سبق ذكره ص ٧١

٧ – أنتس : سبق ذكره ، ٤٤

٨ – ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ص ٩٤

٩ – ولسن : سبق ذكره ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٣

١٠ – عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٥٢

١١ – أنور شكرى : سبق ذكره ١٧٣

١٢ – برستد : كتاب تاريخ مصر .. سبق ذكره ، ص ١٤٤

١٣ – الموضع نفسه

15-Pritchard Ancient Neqr...P.32

16-OP- cit

١٧ – أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ١٧٢

١٨ – نفسع : ١٧٣

١٩ – برستد : فجر ..سبق ذكره

٢٠ – الموضع نفسه

21- loc. cit

٢٢ – برستد : فجر .. سبق ذكره ، صفحات ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠١

٢٣ – نفسه : ص ١٧٩ ، ١٨٢ .

٢٤ – أنتس : سبق ذكره ، ص ٩٤

٢٥ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٦٩

٢٦ – إرمان : ديانة .. سبق ذكره ، ص ٢٤٧

٢٧ – د . أحمد بدرى : سبق ذكره ، ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٤

٢٨ – إرمان : ديانة ..سبق ذكره ، ص ٤٥٤

٢٩ – نفسه : ص ٤٤٨

٣٠ – نفسه : ص ٢٤٧

٣١ – نفسه : ص ٢٦١

٣٢ – نفسه : ص ٢٣٩

٣٣ – دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ١٠١

٣٤ – د . أنور شكرى : سبق ذكره ، ص ١٧٤

٣٥ – أنتس : سبق ذكره ، ص ٤٥

٣٦ – برستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ٢٦٩

٣٧ – ميخائيل : سبق ذكره ، ج ٤ ص ٢٦٦

٣٨ – برستد : فجر .. سبق ذكره ، ص ٢٧٤

٣٩ – دريتور وفانديه : سبق ذكره ، ٢٧٤

٤٠ – إرمان : ديانة .. سبق ، ص ١٠٩

٤١ – برستد : فجر .. سبق ، ص ٣٤١

٤٢ – الموضع نفسه

٤٣ – اليزابيث رايفشتال : سبق ، ص ١٢٦

٤٤ – برستد : فجر .. سبق ، ص ٢٠٣

45- loc.cit.p 415:

أنظر ايضاً برستد : فجر .. ص ١٧٠ ، ود. عبد العزيز صالح : ص ١٥٢ ، ود. عبد الحميد زايد : مصر .. ص ٣٠٧ أخذها جميعهم عن 53F Pap Peterasburg, III 6A, rt, 128f, 53f

٤٦ – ارمان : ديانة .. ص ١٧٠

٤٧ – برستد : فجر .. ص ٨٩ مع ملاحظة انه لم يفسر النص التفسير الذى ذهبنا اليه

٤٨ – ارمان : ديانه .. ص ٢٥٧

٤٩ – برستد : فجر .. ص ٢٧٤ ، كوك : سبق ذكره ، ص ٦٨٣

٥٠ – اليزابيث : سبق ذكره ، ص ٢١٨

٥١ – برستد : فجر .. ص ٤١

52- Pritchard, P34

٥٣ – د . أنور شكرى : سبق ذكره ص ١٧٦

٥٤ – ارمان : ديانة : ، ص ١٥٩

٥٥ – دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ١٠١

٥٦ – د . عزت زكى : سبق ذكره ، ص ١٢٧

٥٧ – ارمان : ديانه .. ، ٢٥٩

٥٨ – د . أحمد كمال : سبق ذكره ، ص ٦٨

٥٩ – ارمان : ديانه .. ، ص ٣٦٦

٦٠ – برستد : فجر .. ، ص ٣٤١

٦١ – ارمان : ديانة .. ، ص ٢٦٣

٦٢ – ديورانت : سبق ذكره ص ١٦٣

٦٣ – إرمان : ديانة .. ، ٢٤٥

٦٤ – برستد : فجر .. ، ص ٤١

٦٥ – نفسه : ص ٢٨٠

٦٦ – نفسه : ص ٢٨١

٦٧ – نفسه : ص ٢٨٩

٦٨ – نفسه : ص ٢٧٩ ، ٢٨٠

٦٩ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٣٢٤

٧٠ – د . عزت ذكى : سبق ذكره ، ص ١٢٧

٧١ – ارمان : ديانة .. ، ص ٢٤٨

٧٢ – برستد : فجر .. ، ص ٩٢

٧٣ – ارمان : ديانة .. ، ص ٢٤٣

٧٤ – نفسه : ص ٢٤٨ ، ٢٧٣

٧٥ – نفسه : ص ٢٦١

٧٦ – د . سليم حسن : سبق ذكره ، ج ٣ ص ٥٤٣٠

٧٧ – نفسه : ص ٥٣١

٧٨ – برستد : فجر .. ، ص ٢٥٣

٧٩ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ٣٢٢

# الفصل الثامن
# الخلود الفرعونى عقيدة عالمية

استطاع الثالوث الأوزيرى القدسى إذن ، أن يتحول من مجرد عقيدة ثورية إلى عقيدة ذات سيادة ، فرضت نفسها على مختلف الطبقات ، واستقطبت الجميع على حد سواء ، وأصبح امتزاج الملك بأوزير ضرورة ملحة أحياناً ، كما نرى فى الحقبة التالية لعهد الثورة الأولى ، وما تلاها من ثورات وانتفاضات شعبية ، ارتفع فيها إلى عرش الملك كثير من المنكورين ، فكان أن حاول كل منهم إثبات شرعيته ، ويقول ( عبد العزيز صالح ) : « .. وعادة ما ازداد تسمح هؤلاء بالدين ، وكرامات آمون ، كلما أحسن أحدهم بشبهة يمكن أن تمس شرعية ولايته للعرش ، وحينئذ يسارع إلى تأكيد تدخل آمون إله الدولة بنفسه فى اختياره ، أو يسارع إلى تأكيد بنوته المباشرة له ، نتيجة لتقمصه روح أبيه حين أنجبه ، وعبرت عن هذه الادعاءات أربع روايات للفراعنة : حتشبسوت ، وتحوتمس الثالث ، وتحوتمس الرابع ، وآمنحوتب الثالث » (١) . بينما يشير كل من ( دريتون ) و ( فانديبه ) إلى « .. ان فكرة تدخل الإله تدخلا مباشراً ، فى إنسال الملك الجالس على العرش ، كانت شائعة فى عهد الأسرة الثامنة عشر وتعتبره تلك الفترة امتيازا عادياً للملك ، إذ تمثل النقوش فى معبد الدير البحرى عن حتشبسوت ، ومعبد الأقصر عن أمنحتب الثالث ، مراحل الإقتران الإلهى .. أى اجتماع آمون مع الملكة الوالدة ، بعد أن يتخذ مظهر الملك الوالد » (٢)

ونرى هنا أن الملك إذ يظهر كإبن لآمن رع ، فالمقصود أنه يصبح ( أوزير ) ابن رع العادل ، بعد أن عاد لينقذ العباد ، ويدعم هذه الرؤية ما جاء من رسوم الملك المؤلة ( آمنحوتب الأول ) ، فقد « .. كانوا يصورنه بصحبة والدته نفرتاى ، التى كانت **تُمثل بإيزيس** .. نظراً لكونها أم حوريس الملك .. » (٣) .

ويلفت النظر ، أن سيادة التثليث الأوريرى لم تنته مع ما انتهى من آلهة مصر ، فى نهاية الدولة الحديثة ، والغزو الآشورى ، فالفارسى ، فالإغريقى فالرومانى ، لأن التاريخ هنا يعلن أن إلها واحد قد « .. خرج من المحنة القومية ، **أكبر شأنا مما كان** ، لان مصيره لم يرتبط بأى نظام سياسى ، ولأن اسطورته ــ وهى عزيزة لدى الشعب ــ تحمل فى ذاتها تفسيرا لكل النزلات ، وتسمح بكل الآمال .. **هو أوزير** » (٤) .

**ولما كان ( أوزير ) قد سبق وانتشر مع آلهة مصرية أخرى ، فى بقاع الإمبراطورية المصرية فى حوض المتوسط الشرق ، قبل سقوطها ، فقد انتهت هذه الآلهة من البلاد الأخرى بعد انهيار الأمبراطورية ، لكن « إيزيس .. والطفل حور قد عاشا فى مخيلة الشعوب هناك زمناً أطول من أى إله آخر » (٥)**

**أما السر فى ذلك فيشرحه لنا ( أدولف ارمان ) الآثارى المؤرخ ، فيقول : « .. لما جعلت حملة الإسكندر عام ٣٣٢ ق م من الإغريق سادة البلاد .. فإن الغالبية العظمى من الشعب قد ظلوا أوفياء لقوميتهم ، أوفياء قبل كل شيء لعقيدتهم الموروثة عن الأجداد .. ، ومع أن هذه العقيدة قد تأثرت على مر القرون بالروح الاغريقية ، فانها بقيت فى الحقيقة على ما كانت عليه قبلا ، وبدلا من أن تتقلص وتتقهقر ، أخذت تبرز إلى الأمام ، فقد وجدت الآلهة المصرية لها عبادا كذلك ، من بين السكان الإغريق ، مع فارق واحد ، هو أن الإغريق قد تحاشوا بقدر الإمكان استعمال أسمائها**

**البربرية ( يقصد المصرية ؟! ) .. وبلد كمصر فى ذلك العهد ، تحظى الديانة فيه بمركز السيادة ، لا يمكن أن تحكم على الدوام ، إلا إذا كانت القوة الزمنية ، على وفاق مع الزعماء الروحيين للشعب ، ولهذا جعل الملوك الإغريق ، والأباطرة الرومان ، السلطة الدينية تحت حمايتهم على أن تؤيد من ناحيتها السلطة الزمنية » (٦) .**

ومن هنا أخذت الأوزيرية تتحول من ايديولوجيا للثورة الشعبية ، إلى عقيدة سلطوية ، بعد أن أفرغها كهان الملكية من مضمونها الثورى ، كناتج عن مصلحتهم المشتركة مع الملك الغارى ، وكان أبرز من وضع هذا المبدأ من الملوك الغزاة ، السياسى الماكر الداهية ، تلميذ المعلم الأول أرسطو **الإسكندر الأكبر** ، الذى ما أن وضع قدمه على أرض مصر ، واستقصى أحوالها العقيدية ، حتى « .. نهج نهجاً يختلف تماماً عن نهج الفرس فقدم ولاءه للآلهة الوطنية ، .. ومن منف اتخذ الإسكندر طريقة فى الفرع الغربى للنيل ، قاصدا كانوب .. حيث شيد فوق شريط من الأرض الرملية يقع بين بحيرة مريوط والبحر ، مدينة إغريقية تحمل إسمه ، هى مدينة الإسكندرية ، ومنها مضى إلى واحة سيوه ، **ليستلهم وحى الإله المصرى آمون** ، الذى كان الإغريق يشبهونه بإلههم زيوس » (٧) ولم يكن عجيبا من السياسى الداهية ، أن يعقد اتفاقا مع الكهان وبموجبه أعلنوا للجميع أن نسبة الإسكندر لأبيه فيليب الثانى غير صحيحة لأن الإسكندر هو ابن الله الوحيد ، والسر الحقيقى إنما يكمن فى أن أمه « .. أو ليمباس ، قد خالطت الإله آمون » (٨) ، ومنه أنجبت الإسكندر وليدا إلهيا ، لذلك فقد تعرف على وجهه القدسى فوراً « .. كاهن آمون ، وحياه **كابن للإله** » (٩) . وعندئذ أعلن الإسكندر إيمانه بعالم الخلود المصرى ، ولأنه ابن الله الحقيقى ، فقد « .. أبدى رغبته فى أن يدفن بواحة سيوه ، وفى معبد أبيه آمون بالذات » (١٠) وهكذا انسحب على الإسكندر ، ما سبق وانسحب على ملوك مصر الغابرين ، فأصبح هو ابن ( آمن رع ) ، -

وابن ( آمن رع ) ليس سوى ( أوزير ) العادل ، فالإسكندر إذن فى حقيقته لم يكن سوى ( أوزير ) وأمه ( أو ليمبيا ) لم تكن فى حقيقتها سوى البتول الطاهرة ( **إيزى العذراء** )

« ومن ثم فهو فى ذاته إله » [١١] . مكررا بذلك قصة ( أوزير ) العائد من السماء ، ليحكم بالعدل والمحبة ، ليتمكن عرشه دون قلقلة ، لكن لتتمكن عقيدة ( أوزير ) المصرية من الخروج عن حدودها الإقليمية ، لتدخل بلاد الفاتح الغازى ، فقد تكررت القصة الأوزيرية ، مع خليفة الإسكندر ، بطليموس الأول ، الذى أصبح بدوره أحد أضلاع المثلث المقدس ، وذلك عندما « .. غدا ملكا على مصر ، وفرعونا ، وإلها فى نظر رعاياه » [١٢] .

وحدث الأمر ذاته مع سلسلة البطالمة ، فقد اجتمع الكهنة فى الإسكندرية عام ٢٣٨ ق .م . ، وفى كانوب بالذات ، للنظر فيما قدمه بطليموس الثالث وزوجته من إحسان للمعابد وكهنتها ، فاكتشفوا أن الزوجين كانا إلهين لأنهما « .. أحسنا للمعابد فى البلاد ، وزاد أكثر فى إجلال الآلهة » [١٣] .

كذلك كان الأمر مع بطليموس الرابع ، بعد أن أعلن الكهنة بيانهم فى نوفمبر ٢١٧ ق . م . يصفونه أنه كان حقا وصدقا « .. **حورس** ؟! الممتلىء شبابا ، القوى الذى نصبه **أبوه** ملكا ، .. الذى امتلأ قلبه بتقوى الآلهة حامى الناس ، المتفوق على اعدائه ، الذى أسعد مصر وملاء معابدها نوراً .. **شبيه الشمس** ، .. **سليل الملكين الخيرين** ، الذى .. **حبته الشمس بالنصر** ، صورة آمن الحية ، الملك بطليموس الخالد ، **حبيب ايزيس** »[١٤] .

وكان واضحاً أن عهد البطالمة ، كان بداية الإنتشار الأوزيرى عالمياً فمعهم غزا أركان المعمورة المعروفة آنذاك ، وخرج من مصر مع عالمه الخالد ليفرض حبه على القلوب ، وهو ما يمكن استنتاجه من عرض

( هـ . آيدرس . بل ) التالى : « وعلى عهد بطليموس الأول ظهرت عبادة جديدة هى عبادة سرابيس ، التى قيل أن الملك ابتدعها لتكون رابطة بين رعاياه الإغريق ، ورعاياه المصرين ، .. والأبحاث المستفيضة التى قام بها فليكن حول هذا الموضوع ، لم تدع مجالا للشك فى أن الإله الجديد ، هو المعبود المصرى أوزير أبيس فى صورة هلينية .. ولدينا ما يدل على أن هذا الإله قد عبد فى المنطقة المجاورة لمنف ، وأن الإغريق أنفسهم اشتركوا فى هذه العبادة قبل ظهور سيرابيس ، ويبدو أن كل ما قام به بطليموس كان رفع هذا الإله المحلى ، إلى إله مركزى وتصويره طبقاً للعقائد الإغريقية .. فى صورة رجل مثالى الجمال ، فى عنفوان قوته ، على غرار الإله زيوس الاغريقى " (١٥)

ومن هنا يمكن القول أن الإله ( سيرابيس Serapis ) لم يكن فى حقيقته سوى وليد هجين ، ناتج تلاقح الكهنوت المصرى باليونانى حول الآلهة الثلاث ( أوزير ، أبيس ، زيوس ) ، ويبدو أن ذلك قد تم على يد ( مانيتون ) الكاهن ، استناداً إلى ما رواه ( أدولف إرمان ) حول حقيقة الإله ( سيرابيس ) ، فهو يؤكد أنه قد أصبح « .. الإله الذى كان على الاغريق والمصريين — على حد سواء — أن يقد سوه ، ومنذ ذلك الوقت أصبح سيرابيس الإله **الرئيسى** فى مملكة البطالمة وأصبحت الأيمان الرسمية تعقد على النحو التالى : **باسم سيرابيس وايزيس** ، والآلهة الأخرى ، وكان مما يرضى الملك أن تشيد المعابد لسيرابيس خارج مصر نفسها ، ولنا أن نقدر أن هذا التأويل الجرىء من **مانيتون** ، لم يجد أى معارضة عند زملائه الكهنة ، فقد كانت رغبة الملك كفيلة بأقناعهم بأن سيرابيس لم يكن سوى أوزيريس أبيس ومنذ ذلك الوقت كان سيرابيس هو التسمية الإغريقية لأوزيريس ، .. وأصبح سيرابيس مذ ذاك **إله الموتى** وزوج إيزيس ، وحل تماماً محل أوزيريس .. وكان أعظم معابد هذا الإله الجديد يوجد فى عاصمة البلاد

بطبيعة الحال ــ أى فى الاسكندرية ــ .. » (١٦) تحت اسم ( السيرا بيوم Serapium ) .

وكان « .. سيرابيوم الإسكندرية على طراز إغريقى .. وفى عهد تراجان أوفدت بعثة إلى روما ، فاصطحبت معها تمثال **سيرابيس صانع المعجزات** وقد قام إلى جانب سيرابيوم الإغريق هذا سيرابيوم آخر .. فى صحراء منف .. ومن هذا المكان خرجت عبادة أوزيزيس أبيس ، ولهذا ظل كعبة للحجاج من عبادة » (١٧) .

وهكذا خرج ( أوزير ) الشهيد ، والبتول ( إيزى ) العذراء ، **والعالم الآخر الخالد** ، من مصر إلى بقاع الإمبراطورية ، تحت اسم ديانة ( سيرابيس ) ، التى كان الغرض منها توحيد عقائد الرعية من إغريق ومصريين (١٨) ، « ويدل ظهور ( سيرابيس ) على بداية عقيدة جديدة يمكن تسميتها العقيدة المصرية الإغريقية ، وكانت ديناً خليطاً ، لم يكن لينشأ إلا حينما تعيش جماعة من شعبين معاً ، على اتصال قوى » (١٩) . وكما خرج ( أوزير ) باسم ( سيرابيس ) خرجت حبيبته « .. إيزيس بإخلاصها لزوجها ، وحبها لابنها » (٢٠) ، بعد أن « .. غدت .. أم الاشياء وسيدة جميع العناصر ، والبداية الأولى للأزمنة ، .. الإلهة العليا **ملكة الموتى** ، ورئيسة أهل السماء .. **المظهر الموحد للآلهة والإلهات .. وهى على تعدد اشكالها واحدة** ، وشخص بذاته .. واسمها الحق الملكة إيزيس .. » ، وهنا يعلق ( أرمان ) بقوله : « .. وهكذا نرى أن **إيزيس ابتلعت جميع الآلهة التى كانت تعبد فى أوربا** .. فمن روما وإيطاليا ، ومن البحر الأسود إلى البحر الأحمر ، كانت السيادة فى كل مكان للإلهة ذات الاسماء العديدة ، فستون بلدا وقطراً وشعباً ، كانوا يعبدونها على انها الفضلى **الجميلة الطاهرة المقدسة** المتصوفة حبيبة الإله » (٢١) زوجة سيرابيس ، وأحد اضلاع الثالوث المقدس ، الذى يمثل ضلعه الثالث ( حور ) الطفل الإلهى المعجزة ، ذلك الذى أصبح

فى اللسان اليونانى ( هور بقراط ) أو ( هربو كراتيس ) ، « .. وكان يمثل بهيئة طفل سمين يمص اصبعه » (٢٢) ، وأحيانا كان يمثل « .. على هيئة المحارب الراجل ، أو الفارس يقذف برمحه نحو عدوه ، الذى يبدو أحيانا على هيئة التمساح من تحته ، وذلك على نحو ما يبدو القديس جورج فى الفن المسيحى » (٢٣) . ولم يزل صاحب قدسية واسعة ــ حتى اليوم ــ عند مسيحيى مصر ، وتقام له الأعياد السنوية فى قرية فرعونية قديمة صغيرة تدعى ( ميت دمسيس ) ، تحت إسم ( المار جرجس ) .

وفى كل بلاد حوض المتوسط ــ تقريبا ــ أقيمت الأعياد للثالوث المقدس « وكان من بين الأعياد الكبيرة لإيزيس ، عيدان تمتعا بشهرة خاصة وكان أحدهما عيد نوفمبر الذى يظل ثلاثة ايام ، يمثل فيها موت أوزيريس والبحث عن جثته ، ثم العثور عليها » (٢٤) ــ أى عيد القيامة المجيد ــ « .. كذلك فى رودس ولبوس وثيرا وازمير ، وفى أماكن اخرى من جزيرة ديلوس المقدسة ، كان سيرابيس وإيزيس يعبدان على رأس غيرهما من الآلهة » (٢٥) . بل وسادت عبادة الثالوث المصرى على « .. أفريقيا الشمالية ، وفى أسبانيا وفى بلاد الدانوب وفى فرنسا ، وحتى فى إنجلترا نفسها نقوش تكرم إيزيس وسيرابيس ، وكان لإيزيس كذلك ربوعها فى مناطق جبال الألب وفى ألمانيا .. » (٢٦) .

وقد حاول بعض الباحثين وضع تفسيرات لهذا الإنتصار العالمى للعقيدة الأوزيرية ، يمكننا إيضاح أبرزها فيما يلى :

اولا : الاسباب السياسية :

ــ « .. تأييد الملوك البطالمة وتشجيعهم ، مساهمة كبيرة فى هذا الانتشار للعقائد المصرية ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان سيرابيس وإيزيس ، هما الإلهان الرسميان فى دولتهم فعلا » (٢٧)

- « .. وقد ساهم حكم هادريان كثيراً فى هذا التطور ، فقد زار مصر ومعه الإمبراطورة ورجال البلاط ، وكان من المتحمسين لهذه البلاد وآلهتها » [٢٨]

- مساعدة الحكام المحليين على هذا الإنتشار الواسع ، فقد « .. كان لمن يريد توكيد ولائه لملوك مصر الأقوياء ، أن يقيم فى بلده معبداً لآلهتهم ، وبذلك وجدت هذه الآلهة ــ لاسباب سياسية ــ طريقها إلى قبرص ، وصقلية وإيطاليا وأثينا » [٢٩] .

- أن الحضارة الهلينية دخلت تجربة قاسية ، وهى ما يسميه التاريخ بعصر الآلام ، الذى كان نتيجة حتمية للنظام الطبقى ، مما أدى إلى قيام الطبقات المطحونة بثورة مسلحة ، كانت ظروفها وعوامل قيامها ، كثيرة الشبه بظروف قيام الثورة المصرية فى أواخر عهد الدولة القديمة ، والظلم الاجتماعى ، مما خلق مناخاً مناسباً للإله ( أوزير ) ليلعب دوره الثورى مرة أخرى خارج حدود بلاده ، مؤكدا وحدة الثورة ــ على المستوى الامى ــ تحت رايته العقائدية ، وهو ما حدا بالمؤرخ ( إرنولد توينبى ) إلى تقرير : أنه قد « .. اتخذت الثورة المسلحة التى قامت بها الطبقة العمالية خلال عصر الآلام ، ضد السيادة الهلينية ــ فيما اتخذت ــ صورة دينية » [٣٠] نكاد نجزم أنها كانت ديانة ( سيرابيس ) .

ثانياً : الأسباب الدينية :

- يرى ( جاردنر ) أنه قد « .. أدى انهيار العقيدة فى آلهة الأولمب القدامى ، إلى سقوط أهل روما والأقاليم ، فريسة سهلة لما تعلقت به أنظارهم من عقيدة الشرق ، فانتشرت عبادة إيزيس فى أرجاء الإمبراطورية » [٣١]

— ويقرر لنا ( إرمان ) حقيقة هامة ، هى أن أهل اليونان وايطاليا « .. كانوا جميعاً يقاسون نقصاً روحياً ، فقد غدت الديانة القديمة بالنسبة لهم جميعاً ميتة ، ولم تستطع الفلسفة التى كان يحاول أن يجد فيها المثقفون عوناً لهم أن تكون لهم بديلا كاملًا » [٣٢] .

— أما ( توينبى ) فيقول : « ولم يكن ثمة مفر من أن تسفر تجربة عصر الآلام التى مرت بها الحضارة ، والمهلة المؤقتة التى نالتها ثم الإنهيار الذى أصابها فى النهاية ، عن رد فعل قوى ، كان من شأنه القيام برحلة روحية طويلة ، انتهت بظهور اليابسة على نحو يثير الدهشة والعجب » ( ٣٣ ) عندما وجد المعذبون عقيدة الخلاص والخلود الأوزيرى .

— أما ( أيدرس بل ) فيذهب إلى أن الإستبداد العسكرى والظلم الطبقى ، قد أدى الى « .. تشوق شديد إلى دين جديد ، يخلص الناس من أدران الخطيئة ، ويعدهم بحياة راضية يُعوضون فيها شقاء الدنيا ، .. وسرعان ما انتشرت عبادة سيرابيس ، الذى شبه بالإله المصرى أوزيرس ومعه إيزيس زوجة هذا الإله الأخير ، وابنها حور أوهربوكراتيس ، وانتشرت هذه العبادة فى أرجاء حوض البحر الابيض المتوسط حتى وصلت آخر الأمر إلى بريطانيا النائبة فى عهد الرومان » ( ٣٤ ) ويكمل ( ارمان ) إنه لا شك أن هذه العبادة كانت « .. تقدم لاتباعها عزاء أخيرا فى كافة المصائب ، وكانت تمنحهم الإيمان بحياة أخرى افضل ، يقضونها فى مملكة أوزيريس » [٣٥] .

— ثم يعطينا ( تشارلز وورث ) سبباً آخر ، هو أن من العقائد الهامة التى سادت زمناً ، عبادة الإله مثهرا أو متراس ، قد

« .. قضت بوجه قاطع بإبعاد النساء عن حظيرتها ، غير أن ثمة إلهة أخرى هى التى أوفت بما كانت تدعو إليه الحاجة هى الإلهة إيزيس .. غير أنه ما أن انتشرت عقيدتها وذاعت حتى زعم المؤمنون بها أنها ليست مجرد إلهة وطنية ، بل هى الينبوع والأصل الذى نشأت عنه الحركة والحياة بمختلف صورها وأن الآلهة والإلهات التى تتعبد لها سائر الامم ، إن هى فى الواقع إلا ايزيس بذاتها » ، وإن كانوا لا يعلمون ؟! وكان طبيعياً أن يتربع بجوارها فى الأفئدة بقية أضلاع الثالوث ، وأن إيزيس فى عصر الآلام « .. لن تنهض بالعدل وحده ، بل بالرحمة أيضا ، وإلى جانب ذلك كانت هذه الإلهة قد عانت تجربة الألم والحزن ، فهى لا تقدم يد العون فحسب ، بل تقدمها مشفوعة بالرحمة والشفقة ، ولقد لقت عقيدتها رواجاً عالميا ، وأثار كهنتها بثيابهم البيضاء ، وأدواتهم المصرية الغريبة ، الفضول والرهبة » [٣٦] .

ثالثاً : الأسباب الفكرية :

— ويمكن لنا إيجاز هذه الأسباب ، فى سيادة الفكر الفلسفى فى الأوساط الثقافية ، وكان للفلسفة الرواقية بوجه خاص أثرها الكبير والبعيد ، بعد أن اعتبرت الكلمة logos هى سر الوجود ، كما اعتبرتها — من قبل — مدرسة منف الفرعونية ، سر الخلق والتكوين ، وكان نداء الرواقية بفلسفتها الحلولية ، وبالوحدة العالمية والإخاء الإنسانى ، ذا أثر كبير فى أوساط المثقفين من مختلف البلدان الخاضعة للوحدة الإمبراطورية ، وخاصة فى تأكيدها أن الإنسان هو قبس من الإله ، ومظهر الإخاء ، إنما ينحصر فى المحبة بين الناس ، حبا فى الله [٣٧]

— أن الرواقية قادت إتجاه الحركة الروحية ، كنتائج لعصر الآلام « كان رائده وروحه الدافعة ، الفيلسوف الرواقى بوسيدونيوس .. Poseidonius قرابة ١٣٥ — ٥١ ق . م وكانت دعوة بوسيدونيوس نبذ تلك الخلافات الفكرية التى استمتع بها فلاسفة العصر السابق ، كما نادى فيما يبدو إلى الإيمان والاتكال — أيضا — على إله مستشرق » (٣٨) .

— ان الفلسفة الرواقية لم تبلغ غايتها الفلسفية إلا على الأرض المصرية ، وبالتحديد فى جامعة الإسكندرية ، التى أضحت مركزا للإشعاع الفكرى ، بل وعلى يد الفيلسوف المصرى صعيدى النشأة ، والذى عاش فى كنف الإله الشرقى المطلوب الفيلسوف ( افلوطين Plationus ) ، وقد « .. استوعب إفلوطين المذاهب الخاصة بمختلف المدارس الفلسفية الهليئية التاريخية المعروفة ، ونسجها فى وحدة واحدة ، بيد أن مهمة الفيلسوف الأولى ، لم تقم فى نظره على إنشاء الأعمال الفكرية بل التطلع والتأمل ، أما غاية التأمل وذروته فهى التجربة الصوفية ، المتمثلة فى وحدة النفس البشربة مع الله » (٣٩) . وقد استتبع انتشار هذه الفلسفة فى حوض المتوسط ، تهيئه أرضية ملائمة ، تماما ، تنساب عليها العقائد المصرية فى أوساط المثقفين .

— وقد استطاع الكهان بعد ذلك ، مزج الثالوث السيرابيسى بفلسفة الكلمة الرواقية ، بتأكيد أن الكلمة هى ( حور ) ابن ( سيرابيس ) ، استناداً إلى تماثيله التى تصوره « .. واضعا سبابته على فيه ، علامة على أنه الكلمة » (٤٠) ؟! ومن هنا أصبحت الكلمة هى الله ، وهى ابن الله ، وهى من الله روح قدسى ، يوحد الأقاليم الثلاثة فى إله واحد ،

حتى أن الكلمة تحولت إلى ضلع مقدس فى الثالوث ، وأصبحت معبودا انتشر فى حوض المتوسط مع الأب والإبن ، بعد أن صارت هى « .. العقل الخلاق السرمدى .. الذى عرف فيه المفكرون الهلينيون منذ جيل أنكسا جوارس Anexagoras الحقيقة المطلقة ، الكامنة وراء مظاهر الكون ، وعبدوها .. » (٤١) وكانت نتيجة هذا المزج بين الفكر الفلسفى وبين الدين — بقصد استقطاب الطبقة المثقفة — كفيلا بنتيجة قررها ( إرمان ) بأنه قد « .. أخذت الديانة المصرية تنتشر كذلك بين الطبقات العليا من الشعب » (٤٢) .

ونتيجة لهذه الأسباب مجتمعة ، لم يعد « .. فى الإمبراطورية الرومانية الواسعة الأرجاء ، مقاطعة واحدة لا تعبد فيها الآلهة المصرية ، حتى استطاع توتوليان أن يقول : إن الأرض بأسرها تعقد الأيمان اليوم بأسم سيرابيس » (٤٣) .

والأهم هنا ، هو : إذا كان ( أوزير ) قد ساد أرجاء المعمورة وتسيد كافة العبادات ، وابتلع جميع الآلهة الاخرى ، فلا شك يراودنا إذا قلنا — تأسيسآ على ذلك — أنه استقطب أيضآ كل الأساطير والروايات الدينية ، مثل تلك التى كانت تنسب إلى « .. **السحرة الذين يجففون البحيرات بكلمة ينطقون بها ، أو يجعلون الأطراف المقطوعة تقفز إلى أمكانها ، أو يحيون الموتى** » (٤٤) ، ولا يعود هناك مانعآ من أن يصبح هو الإله صاحب المعجزات الكبرى خاصة العلاجية منها ، إذا أخذنا بالحسبان ما تركه عباد ( سيرابيس ) مما جمعوه حول ما « .. كان ينسب إلى سيرابيس.. من قصص الشفاء»(٤٥)، وإذا سيرابيس قد ابتلع الإله ( ميثهرا ) فلا ريب أنه قد أصبح بدلا منه ، **صاحب « العشاء الربانى المصنوع على هيئة الصليب** » (٤٦) ، وأنه قد أصبح بدلا من الإله ( ديونزيوس ) أو ( ديونيسيس ) **صاحب القلب المقدس ، وابن الله**

**الأوحد ، الذى قتله البشر فحملوا إثم خطيئة عالمية لا يغفرها إلا الخلاص ، بالإيمان به ، وبالتعميد ، وبتعاطى جرعات من النبيذ تمثل روح ابن العذراء** ، فتسرى فيه الروح الخالدة (٤٧) ، أو الطبيعة الإلهية ، ومن ثم أصبح هو بدلا منه **الإله الوحيد الذى يمكنه تحويل الماء إلى نبيذ ، وإطعام جمع غفير فى القفر ، بتحويل قليل الطعام إلى كثير ، وإشفاء المرضى من كل نوع** (٤٨) .

**ونتيجة لهذا الدمج أو الإبتلاع ، يمكننا القول : أنه لم تعد لائحة مجلس الشيوخ الرومانى بتألية المخلّص أغسطس ـــ بعد موته ـــ كصورة تجسيدية للإله على الأرض ، ولم يعد تلقيب المجلس له ، ولا حتى تلقيب المفكر سنكا له بقلب المخلّص** (٤٩) ، **لم يعد كل هذا ذا معنى ، بعد أن أصبح سيرابيس هو الصورة التجسيدية للإله ، وهو المخلّص الا وحد** ، كما لم يعد قسم ( نوميرو أتيكس ) « أنه رأى رؤيا العين ، المخلّص اغسطس يرتفع بعد موته جسداً حياً إلى السماء » (٥٠) ، لم يعد قسمه مشكوكاً فيه ، فما كان لانسان أن يشك فى واحد مثل ( نوميرو ) ؟! ، إنما كان الشك الذى تحول يقيناً ، فى هوية ذاك ارتفع ، والذى ـــ حسبما نرى ـــ اكتشفت عقلية العصر إنه إنما كان ( سيرابيس ) وليس ( أو غسطس ) ، وأن كل ما فى الأمر كان خدعة بصرية وبصر ( نوميرو ) قد أوهنته الايام .

كما لم يعد إيمان العصر الهلينى الرومانى ، أنه سيرى ( نيرون ) المتوفى عائداً هابطاً إلى روما من السماء ، قبل أن يزول الجيل (٥١) ، لم يعد هذا الإيمان لاغياً ، بل حقيقة صادقة ، لكن الهابط لن يكون ( نيرون ) ، لأن الذى ارتفع كان ( سيرابيس ) ، ومن المنطقى أن يكون هو **الهابط العائد فى هذا الجيل !!** ليحكم الناس بالمحبة والسلام ، " .. مثل الاله حداد Hadad إله الزوابع فى دوليكى .. **آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير** " (٥٢) ، لأنه لا شك وليس ( حداد ) ، وأنه هو لا شك وليس ( البوذ يستاق ) " .. **الله**

**الإبن .. منقذا ضحى بنفسه ، وراعياً أميناً للقطيع البشرى الضال "** (٥٣) ولا شك أنه ( سيرابيس ) وليس الإله (آتيس ) **هو الذى نزف دمه** فى جذ وع شجرة الصنوبر المقدسة (٥٤) .

وهكذا تحولت مصر إلى كعبة للمؤمنين ، والمفكرين ، على حد سواء فى كل أرجاء الحواضر المعروفة آنها ، وأصبح ثالوثها المقدس رغم الإحتلال الأجنبى ــ ديانة الأمم ، ليستمر ــ إلى ما بعد ظهور المسيحية بخمسة قرون كاملة (٥٥) ــ على الدنيا سيداً .

# هوامش

١ – د . عبد العزيز صالح : سبق ذكره ، ص ١٩٩
٢ ــ دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٩٢ ، انظر أيضا برستد : كتاب تاريخ مصر .. سبق ذكره ، ص ١٧٩
٣ ــ اليزابيث : سبق ذكره ، ص ١٢٦ ، ١٢٧
٤ ــ دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٩٠
٥ ــ اليزابيث : سبق ، ص ٢٢٣
٦ ــ إرمان : ديانة .. ، سبق ذكره ، ص ٤٠٠
٧ ــ هـ + آيدرس بل : مصر فى الاسكندر حتى الفتح العربى ، ترجمة د . عبد اللطيف حمزة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، د . ت ، ص ٣٩
٨ ــ نفسه : ص ٤٠ ، انظر أيضا عبد الحميد زايد : مصر الخالده ، سبق ، ص ٥٣٥ .
٩ ــ إرنولد توينبى : تاريخ الحضارة الهلينيه ، ترجمة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٤٧
١٠ ــ ٥ ــ آيدرس بل : سبق ذكره ، ص ٤٢
١١ ــ ارنولدتوتيبى : سبق ذكره ، ص ١٤٧ .
١٢ ــ آيدرس بل : سبق ، ص ٤٤

١٣ ــ ارمـــــان : ديانة .. ، ص ٤٠٥
١٤ ــ آيــدرس بل : سبق ، ص ٧٧ ، أنظر أيضا : توينبى : سبق ، ص ١٤٨ ، ١٤٩
١٥ ــ نفســـــه : ص ٥٣
١٦ ــ ارمـــــان : ديانة .. ، ص ٤٢٦ ، ٤٢٧
١٧ ــ نفســـــه : ص ٤٢٧ ، ٤٢٨
١٨ ــ دريتون وفانديه : سبق ذكره ، ص ٨٦
١٩ ــ ارمـــــان : ديانة ، ص ٤٣٢
٢٠ ــ الموضع نفسه :
٢١ ــ نفســـــه : ص ٤٨٣ ، ٤٨٤
٢٢ ــ نفســـــه : ص ٤٣٥
٢٣ ــ نفســـــه : ص ٤٣٦
٢٤ ــ نفســـــه : ص ٤٨٩
٢٥ ــ نفســـــه : ص ٤٦٥
٢٦ ــ نفســـــه : ص ٤٨٧
٢٧ ــ نفســـــه : ص ٤٦٥
٢٨ ــ نفســـــه : ص ٤٦٩
٢٩ ــ نفســـــه : ص ٤٦٥ ، ٤٦٦
٣٠ ــ توينبـــــى : سبق ذكره ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢
31 - Gardiner, : Egyptof the Faraohs..., P.8
٣٢ ــ إرمـــــان : ديانة .. ، ص ٤٦٦
٣٣ ــ توينبـــــى : سبق ذكره ، ص ٢٣٩
٣٤ ــ آيدرس بل : سبق ذكره ، ص ٥٥
٣٥ ــ ارمـــــان : ديانة .. ، ص ٤٨٦
٣٦ ــ م . ب . تشالز

وورث : الإمبراطورية الرومانية ، ترجمة دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣

٣٧ ـ أبكار السقاف : نحو آفاق أوسع ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د . ت ، ج ٢ ، ص ٩٢٩ ، ٩٣٠

٣٨ ـ توينبي : سبق ذكره ، ص ٢٤٠

٣٩ ـ الموضع نفسه

٤٠ ـ أبكار السقاف : سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٩٥٢

٤١ ـ توينبي : سبق ذكره ، ص ٢٤٧

٤٢ ـ إرمان : ديانة .. ، ص ٤٦٦

٤٣ ـ نفسه : ص ٤٨٦

٤٤ ـ ديورانت : سبق ذكره ، ص ١٦٦

٤٥ ـ إرمان : ديان ..، ص ٤٧٧

٤٦ ـ العقاد : سبق ذكره ، ص ١٥٣

٤٧ ـ أبكار : سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٩٠١

٤٨ ـ نفسه : ص ٩٦٧ ، ٩٦٨

٤٩ ـ نفسه : ص ٩٧٣

٥٠ ـ نفسه : ص ٩٧٤

٥١ ـ نفسه : ص ٩٧٥

٥٢ ـ توينبي : ذكره ، ص ٢٤٧

٥٣ ـ نفسه : ص ٢٤٦

٥٤ ـ العقاد : سبق ذكره ، ص ١٥٣

٥٥ ـ إرمان : ديانة .. ، ص ٤٨٧ ، ٤٨٩

# ( المصادر والمراجع العربية والمترجمة )


١ – أبكار السقاف : نحو آفاق أوسع ، جزئين ، الإنجلو المصرية ، القاهرة ، د . ت .

٢ – د.أحمد بدوى : فى موكب الشمس ، جزئين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ط ، ٢ ، ١٩٥٥ .

٣ – د . أحمد فؤاد الأهوانى : المدارس الفلسفية ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٥

٤ – د . أحمد كمال : بغية الطالبين فى علوم وصنائع وعوائد وأقوال قدماء المصريين ، ج ١ ، مدرسة الفنون والصنائع الخدوية القاهرة ، ١٣٠٩ هـ .

٥ – إتيين دريتون : مصر ، ترجمة عباس بيومى ، وجاك فانديه مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د .ت

٦ أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ترجمة د . محمد عبد المنعم أبو بكر ، ومحمد أنور شكرى نشر مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة . د . ت .

٧ ادولف إرمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور : القديمة ، ترجمة د . محمد عبد المنعم أبو بكر

ومحرم كمال ، نشر البابى الحلبى القاهرة ، د . ت .

٨ السيد سابق : العقائد الإسلامية ، دار الكتب الحديثة القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٧ .

٩ اليزابيث رايفشتال : طيبة فى عهد أمنحوتب الثالث ، ترجمة ابراهيم رزق ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٦٧ .

١٠ أندريه إيمار : الشرق واليونان القديم ، المجلد وجانين ابويه الأول

وجانين ابويه : من تاريخ الحضارات العام ، ترجمة فريد واغر وفؤاد أبو ريحان ، دار عويدات بيروت ، ١٩٦٤ .

١١ إرنولد توينبى : تاريخ الحضارة الهلينية ، ترجمة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ .

١٢ د . إريك بيت : حياة المصرين وثقافتهم فى عهدها الاول ، ترجمة محمد بدران ، تاريخ العالم ، المجلد الاول ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، د . ت

١٣ د . اريك بيت : الحياة فى مصر فى الدولة الوسطى ، ترجمة محمد بدران ، تاريخ العالم المجلد الاول ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط ٢ ، د . ت

١٤ بلى جراهام : سلام مع الله ، مركز المطبوعات المسيحية بيروت ، د . ت .

١٥ تيودور هـ روبنسون : اسرائيل فى ضوء التاريخ ، ترجمة عبد الرحمن صدق ودرينى خشبه ، تاريخ العالم ، المجلد الثانى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د . ت .

١٦ جون ولسن : الحضارة المصرية ، ترجمة د . أحمد فخرى مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة د . ت .

١٧ جيمس هنرى برستد : نتصار الحضارة ، ترجمة د . أحمد فخرى مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د . ت

١٨ جيمس هنرى برستد : كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارس ، ترجمة د . حسن كمال وزارة المعارف المصرية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٢٩ .

١٩ جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، مكتبة مصر ، القاهرة ، د . ت .

٢٠ د . حسام محى الدين الألوسى : بواكير الفلسفة قبل طاليس ، المطبعة العصرية الكويت ، د . ت .

٢١ دولا بورت : بلاد ما بين النهرين ، ترجمة مارون خورى ، دار الروائع الجديدة ، بيروت د . ت .

٢٢ رود لف آنتس : الأساطير فى مصر القديمة ( مجموعة أساطير العالم القديم بإشراف صموئيل نوح كريمر ) ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

٢٣ د . ستانلى كوك : آلهة السحر ، ترجمة إبراهيم خورشد تاريخ العالم ، المجلد الاول ، مكتبة النهضة المصرّية ، ط ٢ ، القاهرة ، د . ت .

٢٤ د . سليم حسن : مصر القديمة ، ١٦ جزء ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

٢٥ سيد القمنى : الموجز الفلسفى ، دار السياسة ، الكويت د . ت .

٢٦ د . سيد عويس : الخلود فى التراث الثقافى المصرى ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت .

٢٧ عباس محمود العقاد : الله ، دار المعارف ، ط ٢

٢٨ د . عبد الحميد زايد : من أساطير الشرق الأدنى القديم عالم الفكر ، الكويت ، المجلد السادس

| | | |
|---|---|---|
| ٢٩ | د . عبد الحميد زايد | : التسجيلات المصرية القديمة لجيمس هنرى برستد ، مجلة كلية الآداب والتربية جامعة الكويت ، العدد ٣ ، يونيو ١٩٧٣ . |
| ٣٠ | د . عبد الحميد زايد | : مصر الخالدة ، دار النهضة العربية القاهرة ، ١٩٦٦ . |
| ٣١ | د . عبد الرحمن بدوى | : ربيع الفكر اليونانى ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٥٨ . |
| ٣٢ | د . عبد العزيز صالح | : الشرق الأدنى القديم ، الهيئة العامة للمطابع الأميرية ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٦٧ . |
| ٣٣ | د . عزت زكى | : الموت والخلود فى الأديان المختلفة مطبعة كليوباترا ، القاهرة ، د . ت . |
| ٣٤ | فاروق فريد | : التاريخ الجامع لهيرودت ، تراث الانسانسة دار الكاتب العربى للطابعة والنشر ، المجلد الخامس ، القاهرة ، د . ت . |
| ٣٥ | ف لولين جريفث | : الإنقلاب الدينى فى مصر ، ترجمة عبد الرحمن صدقى ودرينى خشبه ، تاريخ العالم ، المجلد الثانى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة د . ت . |
| ٣٦ | د . فؤاد زكريا | : التفكير العلمى ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٧٨ . |
| ٣٧ | كريم متى | : الفلسفة اليونانية ، مطبعة الارشاد بغداد ، ١٩٧١ . |
| ٣٨ | م . ب . تشالزوورث | : الإمبراطورية الرومانية ، ترجمة دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦١ . |
| ٣٩ | د . محمد السيد سلطان ود . صادق جعفر | : مسار الفكر التربوى عبر العصور : دار القلم ، الكويت ، د . ت . |
| ٤٠ | د . محمد اسماعيل الندوى | : الأساطير الهندية ، تراث الانسانية : المجلد السادس ، القاهرة ، د . ت . |
| ٤١ | محمد العزب موسى | : أول ثورة على الاقطاع ، دار الهلال القاهرة ، ١٩٦٦ . |

| | | |
|---|---|---|
| ٤٢ | د . محمد أنور شكرى ( وأخرون ) | : حضارة مصر والشرق الادنى القديم : القاهرة ، د . ش ، د . ت . |
| ٤٣ | د . نجيب ميخائيل | : مصر والشرق الأدنى القديم : ج ١ ، دار المعارف ، ط ٤ ، ١٩٦٣ ج ٤ ، دار المعارف ، ط ٢ ، ١٩٦٦ ج ٦ ، دار المعارف ، ط ١ ، د . ت . |
| ٤٤ | ه . آيدرس بل | : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى ترجمة ، د . عبد اللطيف حمزة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، د . ت . |
| ٤٥ | هنرى فرنكفورت | : فجر الحضارة فى الشرق الأدنى ، ترجمة نجيب خورى ، مكتبة دار الحياة ، بيروت . ١٩٦٥ |
| ٤٦ | د . وديع ميخائيل | : أين هم الموتى ؟ مطبعة كليوباترا ، القاهرة ، ط ٢ ، د . ت . |
| ٤٧ | ول ديورانت | : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران الإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، مج ٢ ج ١ ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦١ . |
| ٤٨ | يوسف كرم | : تاريخ الفلسفة اليونانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ط ٥ ، ١٩٦٦ . |

# المصادر والمراجع الأجنبية


1 - Breasted (J.H) Ancienr Records,v.3.

2 - Breasted Development of the Religion and thought in ancientEgyp New York,1912

3 - Erman Die literatur der Aegypter, leipzig, 1923

4 - Frankfort (Henri) Kingship and the the gods University of chicagopress, sixth impression, 1969.

5 - Gardiner(A.H) Ancient Egypt, 1914

6 - Gardiner Egypt of the Faraons, Oxford Universty press, london.

7 - Gardiner The chester Beatty papyrus, No.l,london,1931

8 - Gardiner The Defeat of Hyksos by Kamose, The Carrnarvon Tablet, No. 1, (J.E.A) III (1916)

9 - Gumn & Gardiner : New Rendring of Egyption text (J.E.A) V,1923.

10- Jéquier : Histoire de la civilisation Egyptinne Paris, 1923.

11- Renouf (Lepage) : The true sense of important Egyptian words, in the transactions of the society of Biblical archeology, VI, 1978

12- Lieblein : "Le mythe d' Osiris" dans La Revue de l' Histoire des Religions, lx (1884)

13- Maspéro : tudes de mythologie et d'archeologie Egyptiennes, l,Paris, 1881.

14- Moret : La passion d' Osiris, dans Rois et Dieux d'Egypte, Paris, 1916 .

15- Naville : La Religion des anciens Egyptiens, Paris, 1906 .

16- Pritchard (james.B.) : Ancient Near Estern textes, Princeton University press, New jersey Third Edition, 1969

17- Sanders (N.K.): The Epic of Gilgamesh, Penguin books

18- Sharff : Der Histotrische Abshnitt der lehre fuer Mori Ka Re, Mundren, 1936 .

19- Speelers : Traduction, index et vocabulaire ds textes des pyramides, Bruxelles, S.d.

20- Steirdorff : Die ka und die Grabstatuen, Ae .Z. 48 (1910 - 1911) .

21- Viry : La religion de L'ancienne Egypte, Paris, 1910 .

22- Wiedemann : Da salte Aegypten, Heidelberg 1920

23- Zayed (D. Abd ElH amid) : Abydos, General Organisation for Government printing offices, cairo, 1963 .

# فهرست

## صدر فى سلسلة كتاب الفكر

| | العنوان | المؤلف |
|---|---|---|
| ١ | الحقيقة والوهم فى الحركة الاسلامية المعاصرة | د . فؤاد زكريا |
| ٢ | جماعة النهضة القومية | د . رؤوف عباس |
| ٣ | محمد مندور وتنظير النقد العربى | د . محمد براده |
| ٤ | تحديث العقل السياسى الاسلامي | د . محمد رضا محرم |
| ٥ | الواقع ألفلسطينى « الماضى والحاضر والمستقبل » | ادوارد سعيد وابراهيم أبو لغد |
| ٦ | الفلسطينيون عبر الخط الأخضر | الكسندر شولش ، ترجمة : محمد هشام |
| ٧ | بين الأدب والتاريخ | د . قاسم عبده قاسم |
| ٨ | أوراق من الملف العربى | لطفي الخولى |
| ٩ | المعلم يعقوب بين الاسطورة والحقيقة | د . أحمد حسين الصاوى |
| ١٠ | الحقيقة الغائبة | د . فرج فودة |
| ١١ | نافذة على مسرح الغرب المعاصر | فاروق عبد القادر |
| ١٢ | أوزويريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة | د . سيد القمنى |

# أوزيريس
# و
# عقيدة الخلود في مصر القديمة

كثيرة هى الجهود التى بذلت للتعرف على مصر ( القديمة )، ولكنها نادرة تلك التى نجحت فى أن تضع فى أيدينا مفاتيح صحيحة لفهم الإنسان ومجتمعه ، وفكره ومعتقداته فى تلك الحقب السحيقة من التاريخ .

معظم الجهود البحثية كانت وصفية المنهج ، لاتهتدى إلا بالمعالم البارزة : الملوك ، القادة ، كبار الكهنة ،والحروب ، والمؤامرات ، والانتصارات والهزائم .

قليلة ، بل ونادرة ، هى تلك الجهود التى بذلت لفهم العلاقات الاجتماعية ومدى تأثيرها على الإنسان وفكره وسلوكه ومعتقداته .

ومن بين هذه الجهود النادرة ، هذا البحث الذى نقدمه اليوم والذى كما يقول صاحبه «يحاول أن يستنطق التاريخ ما خفى وراء أحداثه الظاهرة من تأثير العوامل السياسية والاجتماعيه والاقتصادية على العقل المصرى بحيث دفعته الى ابداع تصوراته عن عالم خالد ، ونتاج ارتباط الحدث السياسى أو الاجتماعى بتطور عقيدة الخلود ومفاهيمها » .